سلسلة تراث الأزهريين

التنوير في إسقاط التدبير

للعارف بالله تعالى

ابن عطاء الله السكندري

المتوفى سنة ٧٠٩هـ

تقديم وتعليق

أ.د/ عطية مصطفى محمد حسين

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

ووكيل كلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر

للنشر والتوزيع
كشيدة

سلسلة تراث الأزهريين

التنوير في إسقاط التدبير

للعارف بالله تعالى

ابن عطاء الله السكندري

المتوفى سنة ٧٠٩هـ

تقديم وتعليق

أ.د/ عطية مصطفى محمد حسين

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية

ووكيل كلية أصول الدين والدعوة - جامعة الأزهر بالمنوفية



للنشر والتوزيع

كشيدة

ابن عطاء الله الإسكندري، أحمد بن محمد بن عبد الكريم (٠٠-١٣٠٩)
التنوير في إسقاط التدبير /لابن عطاء الله السكندري؛ تقديم وتعليق:
عطية مصطفى محمد حسين - الشرقية: كشيدة للنشر والتوزيع، ٢٠١٧
٢٥٦ ص؛ ٢٠ سم (سلسلة تراث الأزهريين)
تدمك ٤ ٨٨ ٢ ٥٠٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١- التصوف الإسلامي
أ. حسين، عطية مصطفى محمد (مقدم ومعلق)
ب. العنوان ٢٦٠

طبعة كشيدة الأولى
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

رقم الإيداع بدار الكتب
٢٠١٧/١٧٤١١

الترقيم الدولي ISBN
978-977-5002-88-4

الناشر: كشيدة للنشر والتوزيع
العاشر من رمضان - مصر

info@kasheeda-publishing.com
www.kasheeda-publishing.com

كشيدة للنشر والتوزيع

لمؤسسها ومديرها: إيهاب أحمد محمد علي

تقديم الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت وهو السميع البصير، الضامن لكل دابة في الأرض رزقها وهو العليم الخبير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت، وهو على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على البشير النذير والسراج المنير، سيدنا ومولانا محمد، المتلئ القلب بالتوكل على العلي الكبير، صلى الله عليه وعلى آله نجوم الهدى وصحبه مصابيح الدجى، ومن سار على هديه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

وبعد،

فإن كتاب «التنوير في إسقاط التدبير» للعارف بالله تعالى سيدي أحمد بن عطاءالله السكندري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ تحفة نادرة ودرة ثمينة، لم يسبق إليه -رحمه الله تعالى- كعادته وشأنه في كل ما يسطِر، فقد جمع فيه همته العالية وعزمته الماضية لعلاج النفوس من داء عضال، يستعصي في كثير من الأحيان على العلاج، كتبه بغية تزكية النفوس وترقية الأرواح وطمأنينة القلوب، فوقع النفع به كثيرا -ويقع- لكثير من السالكين والواصلين والمريدين والمحبين، وجمع غير قليل من عوام المسلمين، فجزاه الله خير ما جزى عالمًا عاملًا عن تلاميذه، وعارفًا مراشدًا عن محبيه ومريديه.

لقد أقام سيدي أحمد بن عطاء الله موضوع كتابه -كما هو واضح من عنوانه- على إسقاط تدبير العبد الذي لا يقدم ولا يؤخر مع تدبير المدبر وتقدير المقدر جل في علاه، شيئا. قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢].

وقد رمى المؤلف في كتابه إلى تصحيح العقيدة في مجال التوكل على الله تعالى، وإزاحة الشبه ونفض غبار الخيالات والأوهام، لا سيما في أمر الرزق الذي ضمنه سبحانه قبل أن يكلف العباد بآماد بعيدة وأزمنة مديدة، لا يدرك بُعد غورها إلا هو. وقد قال جل شأنه في ذلك: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذرايات: ٥٦-٥٨].

والمتدبر لهذه الآيات الكريمة يدرك كيف أوصد الحق جميع أبواب الشك، وسد سائر منابع الريبة عن أمر الرزق، حتى تطمئن النفوس القلقة، فقد جمع في الآيات من المؤكدات ما من شأنه أن يطمئن كل عاقل، ويروي ظمأ كل قاحل. فلو قال سبحانه: «الله رازق» لكفى، لكنه بدأ الآية بأداة التوكيد «إن» ثم أتى بلفظ الجلالة دون غيره من أسمائه الحسنى سبحانه، كما أتى بالضمير الظاهر «هو»، ثم جعل «الرزاق» مكان «الرازق» كصيغة مبالغة إمعانًا في الطمأنينة، وأدخل عليها «أل» المعرفة، ثم وصف نفسه بذي القوة المتين.. كل ذلك لاعتلاج النفوس في أمر الرزق، وحيرتها واضطرابها بين الأسباب والتوكل، والاستسلام والتواكل.

ولم يكتف جل جلاله بذلك، بل أقسم في موضع آخر من كتابه في نفس السورة لعباده على أن رزقهم في السماء، حتى لا تتعلق نفوسهم بسواه، فإذا باشر العبد الأسباب في الأرض تعلقت همته بالمسبب في سماء علوه ورفعة قدسه.

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]. فما ينبغي بعد قسم الله تعالى إلا الطمأنينة في أمر الرزق وترك التدبير المشوش على اليقين.

وليس في ذلك دعوة إلى القعود والكسل وترك الأخذ بالأسباب، إذ الأسباب يد الله المبسوطة لعباده بالعطاء، وذلك محل الاختبار والابتلاء، وموضع التشريف والتكليف، المنبئ عن صدق الإيمان وكمال اليقين، شريطة معرفة مصدر الرزق ومنبع الجود وعين الكرم.

ولما تفاوتت العقول في القدرة على استيعاب ذلك، وعجزت كثير من النفوس عن التوفيق بين إحكام الأخذ بالأسباب والتحقق بمقام التوكل، جاء ذلك التنوير الإلهي، بإسقاط التدبير البشري بالتبصير الرباني، على يد ذلك العالم العارف والولي الكامل سيدي ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله تعالى- الذي جابه النفوس بما جبلت عليه من خوف في أمر الرزق وجزع، وقلق وهلع، وحرص وطمع، فحللها أيما تحليل، وفصل طباعها وتعلقاتها أيما تفصيل، فشخص الداء وقدم له الدواء، مستندا في كل ما قدم إلى تجربته الصادقة وتربيته الكاملة، بعد اغترافه من مشكاة نور الرسالة، ومعدن فيض النبوة، ومصادر التشريع التي لا تخفى.

والحق أن المشكلة تكمن -لدى المبتدئين في سلوك طريق الله تعالى- في التوفيق بين أمر الشرع بالتوكل على الله تعالى، وأمره بإحكام الأخذ بالأسباب وإتقانها، فهذا من أعظم المشوشات، لدى الكثير من السالكين، على مقام التوكل، فقد تُصوِّر النفس الأمارة أو يلبس الشيطان الرجيم على البعض في أمر الرزق، بدعوة أن ترك الأسباب مما ييسر أمر التوكل، فيدخلهم في حالة من التواكل والخمول، والكسل والقعود، من حيث لا يشعرون، في حين أن المتبصر في نداءات الشرع الحنيف وهو يأمر بالضرب في الأرض والسعي للابتغاء من

فضل الله تعالى وطلب الرزق، يدرك -وللوهلة الأولى- كيف ربط الحق تعالى ونبيه ﷺ بين أعلى مقامات التوكل وأوضح أمارات إحكام الأخذ بالأسباب.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. فقوله «فامشوا» أمر بالأخذ بالأسباب، وقوله تعالى «في مناكبها» دعوة إلى موالاة الأسباب وإتقانها وإحكامها، وقوله عز وجل «وكلوا من رزقه» أي ليس من مشيكم، أي: توكلوا، وقوله «وإليه النشور» أي: بالغوا في التوكل إذ من يملك النهاية وحده لا مؤثر معه في أمر رزق ولا غيره من الأسباب ولا من غيرها. ففي ذلك دعوة إلى الجمع بين الأسباب والتحقق بمقام التوكل.

وقوله تعالى ﴿يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللهِ﴾ [المزمل: ٢٠] جمع بين الأخذ بالأسباب يشير إليه قوله تعالى «يضربون في الأرض» وبين التحقق بمقام التوكل يشير إليه قوله «يبتغون من فضل الله»، أي لا من ضربهم في الأرض وإنما من محض فضله، فكم من ضارب لا يرزق من ضربه، وكم من عاجز عن الضرب يأتيه رزقه أنى كان، فسبحان من بيده الأمر وإليه النشور.

والسنة المطهرة لم تبعد عن تلك التربية وهذه التزكية، فقد جمع ﷺ بين التوجيه إلى الأسباب مع حسن التوكل كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)، ففي قوله «تغدو» و«تروح» دلالة واضحة على ضرورة السعي وأهمية الأخذ بالأسباب، كما أن الشهادة على توكل الطير حاصلة بضرب المثل به وتسليمه كل أمره لخالقه.

لهذا فصل سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه الأمر تفصيلا، وبين الأسباب والدوافع التي توجب صبر العبد ورسوخه وثبوته لأحكام سيده

ومولاه، كما بين النتائج والفوائد التي يصل المتوكل إليها ويتحلى بها حين يتحقق بذلك.

وما أصدق ما قيل في مقام ترك التدبير المشوش على طمأنينة النفس ورضا القلب وراحة الروح، واستسلام العبد في حضرة مولاه، وضيافة وجود من خلقه ويراه:

إنَّ مقاديرَ إلهي * قالَتْ لي خَلِّ عَنْكا
لا تُدبِّرْ لكَ أمرا * فأولوا التدبير هَلْكى
سَلِّمْ الأمرَ تجِدْنا * نحنُ أولى بكَ مِنكا .

نسأل الله تعالى أن يجزي عنا العارف بالله تعالى سيدي أحمد بن عطاء الله خير الجزاء، وأن يوقع النفع بكتابه وسائر مؤلفاته حديثة العهد بربها، كما نسأله تعالى أن يخلصنا من الأوهام والخيالات، والأباطيل والضلالات، وأن يستعملنا بالأسباب في الصالحات الطيبات، وأن يسعدنا في الحياة وعند الوفاة وبعد المات، إنه ولي ذلك والقادر عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وهو حسبنا ونعم الوكيل، والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه:

راجي رحمة ربه المعين

عطية مصطفى محمد حسين

ضحى يوم الخميس، الرابع من ذي القعدة سنة ١٤٣٨هـ

السابع والعشرون من يوليو سنة ٢٠١٧م

التعريف بالمؤلف سيدي أحمد ابن عطاء الله السكندري

اسمه ومولده: هو الإمام الملقب بتاج الدين، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري. ولد رحمه الله في بدايات النصف الثاني من القرن السابع الهجري، ولا يُعرف على وجه التحديد السنة التي وُلد فيها.

نشأته وحياته: يمكن التمييز بين ثلاثة أطوار في حياة ابن عطاء الله الإسكندري: فالطور الأول بمدينة الإسكندرية قبل عام ٦٧٤ هجرية، وقد نشأ فيه ابن عطاء الله طالبا لعلوم عصره الدينية من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو وغيرها على خيرة الشيوخ.

أما الطور الثاني فيبدأ من سنة ٦٧٤ هجرية، وهي السنة التي صحب فيها أبا العباس المرسي، وفيه تصوَّف على طريقة الشاذلي، ولم ينقطع في الوقت نفسه عن طلب العلوم الدينية، وتدريسها.

وأما الطور الثالث فيبدأ من ارتحاله من الإسكندرية إلى القاهرة، وينتهي بوفاته، وهو طور نضوجه واكتماله كصوفي وفقيه.

وفي الطور الأول من أطوار حياته بمدينة الإسكندرية كان ابن عطاء الله يُنكر على الصوفية إنكارا شديدا، تعصبا لعلوم الفقهاء. أما في الطور الثاني فقد زال إنكارُه وتعصُّبه لأهل العلم الظاهر حين لقي أستاذه المرسي، فأعجب به إعجابا شديدا وأخذ عنه طريق الصوفية.

ويقصُّ ابن عطاء الله في كتابه اللطيف القيم «لطائف المنن» قصةَ صلته بأبي العباس المرسي، فيقول:

كنت لأمرِه (أي أمر الشيخ أبي العباس) من المُنكرين، وعليه من المُعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين

أصحابه، فقلتُ فيهم قولا عظيما.

ثم قلتُ في نفسي: دعني أذهبْ أنظرْ هذا الرجلَ، فصاحبُ الحق له أماراتٌ لا يخفى شأنُه، فأتيتُ إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به وقربهم منه، فقال:

«الأول إسلام، وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة، وثانيها الإيمان، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية، وثالثها الإحسان، وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب، وإن شئتَ قلتَ: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبْوَدة، وإن شئتَ قلتَ: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقُّق».

فما زال يقول: «وإن شئت قلت، وإن شئت قلت»، إلى أن بهرَ عقلي وسلب لُبِّي، فعلمتُ أن الرجل إنما يغترفُ من فيضِ بحرٍ إلهي، ومددٍ رباني، فأذهبَ الله ما كان عندي.

ثم أتيتُ تلك الليلةَ إلى المنزل، فلم أجد شيئا يَقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدتُ معنى غريبا لا أدري ما هو؟ فانفردت في مكانٍ أنظرُ إلى السماء وكواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياءٌ لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيتُ إليه، فاستُؤذِن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائما وتلقَّاني ببشاشة وإقبال، حتى دُهشت خجلا، واستصغرت نفسي أن أكون أهلا لذلك، فكان أول ما قلتُ له: يا سيدي، أنا والله أحبك، فقال: أحبك الله كما أحببتني.

تدريسه وتلاميذه:

وفي الطور الثالث والأخير من حياته، وهو الطور الذي شهد نضوجه من

الناحيتين الفقهية والصوفية، لمعَ اسمُه عالما من أجلّ علماء الشريعة، ودرَّس علوم الشريعة في الأزهر، وتخرج على يديه كثير من مشاهير العلماء، من أمثال الإمام تقي الدين السبكي، والإمام القرافي.

وكان إذا جلس للنصح والوعظ والتوجيه، أخذ حديثه بمجامع القلوب، وسرى من كلامه تأثيرٌ شديد إلى النفوس.

قال الذهبي: «كان ابن عطاء الله السكندري يتكلم بالجامع الأزهر فوق كرسي، يُرَوِّح النفس، ويمزج كلامَ القوم بآثار السلف وفنون العلم، فكثُر أتباعُه، وكانت عليه سيما الخير».

مؤلفات ابن عطاء الله:

للشيخ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مؤلفات كثيرة، من أهمها:

١- كتاب الحكم، وهو أكثر كتبه انتشارا، وقد سبق أن أصدرته كشيدة للنشر والتوزيع -مع شرح العلامة الشيخ عبد الله الشرقاوي- ضمن سلسلة «تراث الأزهريين».

٢- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن.

٣- التنوير في إسقاط التدبير، وهو الكتاب الذي بين أيدينا.

٤- تاج العروس في تهذيب النفوس.

٥- مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح.

٦- القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد.

وفاته:

توفي رحمه الله بالمدرسة المنصورية بمصر، ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩هـ - ١٣٠٩م)، ودفن بسفح جبل المقطم بزاويته التي كان يتعبد فيها، ومقامه فيها يُزار.

***

[مقدمة المؤلف]

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ الشَّيخُ، الإمَامُ، العَارِفُ، القُدْوَةُ، المحقِّقُ، تَاجُ العَارِفِينَ، لِسَانُ المتكَلِّمينَ، إمَامُ وَقْتِه، وَأَوْحَدُ عَصْرِه، حُجَّةُ السَّلَفِ، وإمَامُ الخَلَفِ، قُدْوَةُ السَّالِكينَ، وحُجَّةُ المتَّقِينَ، تاجُ الدِّينِ، أبو الفَضْلِ، أحمَدُ بنُ محمَّد بن عَبد الكَرِيم، ابنِ عَطَاءِ الله السَّكَندَرِيُّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأرْضَاه، ونَفَعَنا بِه، ونفَعَ بِه كافَّةَ المسْلِمِينَ، إنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ(١):

الحمْدُ لله المنفَرِدِ بالخَلْق والتَّدبيرِ،

الواحِدِ في الحُكْم والتَّقْدِيرِ،

الملِكِ الَّذِي ليسَ كَمثْله شيءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ، ليسَ لهُ في مُلْكه وَزيرٌ،

المالكِ الَّذي لا يَخْرُجُ عنْ مُلْكِه كبيرٌ ولا صَغيرٌ،

المتقدِّسِ في كَمالِ وَصْفه عَنِ الشَّبيهِ والنَّظِيرِ،

المنَزَّهِ في كَمالِ ذَاتِه عَنِ التَّمْثِيلِ والتَّصْوِيرِ،

العَلِيمِ الَّذِي لا يَخْفَى عَلَيهِ مَا في الضَّمِيرِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]،

---

(١) لعل ما ورد من تعظيم الشيخ بعد قوله «قال» من كلام الناسخ الأول؛ إذ يبعد أن يقول الشيخ ذلك عن نفسه وهو الذي يعلم الخلق التواضع والفناء لله تعالى.

العَالِم الَّذي أَحَاطَ عِلْمُه بِمَبادِيءِ الأُمُورِ ونِهاياتِهَا،
السَّميعِ الَّذي لا فَصْلَ في سَمْعِه بَيْنَ جَهْرِ الأَصْواتِ وإخْفاتِها،
الرَّزَّاقِ وهُوَ المُنْعِمُ عَلى الخَليقَةِ بإيصَال أقْوَاتِها،
القَيُّوم وهوَ المتكَفِّلُ بها في جَميع حَالاتِها،
الوَاهِبِ وهُوَ الَّذي مَنَّ على النُّفوسِ بوُجُودِ حيَاتِها،
القَدِيرِ وهُوَ المعِيدُ لها بَعْدَ وجُودِ وَفَاتِها،
الحسِيبِ وهُوَ المجَازِي لها يومَ قدُومِها عَليهِ بحَسَنَاتِها وسَيِّئَاتِها.

فسُبحانَه مِنْ إلَهٍ مَنَّ على العِبادِ بالجُود قبلَ الوُجُودِ، وقامَ لهمْ بأرْزاقِهِم مَعَ كِلتَا حَالتَيْهِمْ مِنْ إقْرارٍ وجُحُودٍ، وأمَدَّ كُلَّ موجُودٍ بوجُودِ عطَائِه، وحَفظَ وجُودُه وجُودَ العَالَمِ بإمْدادِ بَقائِه، وظَهَرَ بِحِكْمتِه في أرْضِهِ، وبِقُدْرَتِهِ في سَمائِهِ.

وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وحدَهُ لا شَريكَ له، شَهادةَ عَبْدٍ مُفَوِّضٍ لقَضَائِهِ، مُسْتَسْلِمٍ له في حُكْمِه وإمْضَائه.

وأشْهَدُ أنَّ [سيدنا] مُحَمَّدًا عَبدُه ورَسُولُه، المفضَّلُ على جميعِ أنْبيائه المخْصُوصُ بجَزيلِ فَضْلِه وعَطَائه، الفَاتحُ الخاتمُ، وليسَ ذلِك لِسَوائِه[1]، الشَّافعُ في كُلِّ العِبادِ حينَ يَجمَعُهم الحقُّ لفَصْلِ قَضَائه، ﷺ وعلَى سائرِ أنبيَائه، وعلى آلِه وصَحْبِهِ المسْتَمْسِكينَ بِوَلائِه، وسلَّمَ تَسْليمًا كثيرًا.

(١) سَواءُ الشيء: غَيرُه. قال الأخفش: سِوى إذا كان بمعنى غَيْرٍ.. يكون فيه ثلاث لغات: إنْ ضممت السين أو كسرتها قصرت فيهما جميعاً، وإن فتحت مددتَ لا غير. [الصحاح في اللغة]

أمَّا بَعْدُ،

اعلَمْ يا أخِي، جعَلَكَ الله منْ أهْلِ حُبِّه، وأتْحفَكَ بوجُودِ قُرْبه، وأذاقَكَ منْ شَرابِ أهلِ وُدِّهِ، وأمَّنَكَ بِدَوَامِ وَصْلِهِ مِنْ إعْراضِه وصَدِّه، ووَصَلَكَ بعِبادِه الذينَ خصَّهُمْ بمراسَلاتِه، وجَبَرَ كَسْرَ قلوبِهِم لَمَّا عَلِمُوا أنَّه لا تدْرِكُه الأبْصارُ بأنْوارِ تَجلِّياتِه، وفتَحَ رِياضَ القُرْبِ وأهَبَّ مِنْهَا عَلى قُلوبِهم وارِدَاتِ نَفَحَاتِه، وأشْهَدَهُم سَابقَ تَدْبيرِه فيهِمْ، فسَلَّمُوا إليهِ القِيادَ، وكشَفَ لهمْ عنْ خَفيٍّ لُطْفه في صُنْعِه، فخَرجُوا عَنِ المنازَعَةِ والعِنادِ، فهُمْ مُسْتَسْلِمُون إلَيه، ومتوَكِّلُونَ في كُلِّ الأمُورِ عَلَيه، عِلمًا مِنْهُم أنَّه لا يَصِلُ عَبدٌ إلى الرِّضَا إلَّا بالرِّضَا، وَلَا يَبْلُغُ إلى صَريحِ العُبوديَّة إلَّا بالاسْتِسلامِ إلى القَضَا، فلَمْ تَطْرقْهُمُ الأغْيارُ، ولم تَرِدْ عَلَيهُمُ الأكْدارُ، كما قال قائلهم:

لا تَهْتَدِي نُوَبُ الزَّمـانِ إليهِمُ * ولهمْ على الخَطْبِ الشَّديدِ لجَامُ

يُجرِي عَليهُمْ أحْكَامَه وهمْ لجَلالِه خامِدُون، ولحُكْمِه مُسْتَسْلِمُونَ، كما قَال:

تَجْرِي عَلَيكَ صُرُوفُه * وهمومُ سِرِّكَ مُطْرِقَهْ[1]

(١) نسبه السرَّاج الطوسي في «اللمع» إلى علي بن عبد الرحيم القناد، قال:
أهل التصوف قد مضوا * صـار التصوفُ مَخْرَقة
صار التصوف صيحة * وتواجدًا ومُطبَّقـة
مضت العلومُ فلا علومَ * ولا قلـوبٌ مُشْرقة
كذبتك نفسك ليس ذا * سنن الطريق المُخْلقـة
حتى تكون بعين من * عنه العيـون المُحدِقة
تجرى عليك صروفه * وهمـوم سرك مُطرِقة

وإنَّ مَنْ طَلبَ الوُصُولَ إلى الله تَعالى، فحقِيقٌ عليهِ أنْ يأْتِيَ الأمْرَ مِنْ بَابه وأنْ يَتَوصَّلَ إليه بوُجُودِ أسْبابه.

وأهَمُّ مَا يَنْبَغِي تَرْكُه والخرُوجُ عنْهُ والتَّطَهُّرُ منه، وجُودُ التَّدْبيرِ ومنازَعة المقادِيرِ، فَصَنَّفتُ هَذا الكِتَابَ مُبيِّنا لذَلكَ، ومُظْهِرًا لما هُنالكَ، وسمَّيتُه «التَّنْويرُ في إسْقَاطِ التَّدْبيرِ» ليكُونَ اسْمُه مُوافقًا لمُسَمَّاه، ولَفْظُه مُطابقًا لمعْنَاه والله أسألُ أنْ يجعَلَه خَالصًا لوجْهِه الكَريم، وأنْ يتقبَّلَه بفضْلِه العَميم، وأن يَنْفعَ به الخَاصَّ والعامَّ، بِمُحَمَّدٍ عَليَه أفْضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ، إنَّه على مَا يشَا قديرٌ، وبالإجَابةِ جَديرٌ.

***

[حقيقة الإيمان]

قالَ الله سُبْحَانَه وتَعَالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقَالَ تَعَالى: ﴿ ورَبُّك يَخْلُقُ مَا يشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كانَ لَهُمُ الخِيرَةُ، سُبْحَانَ الله وتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، وقالَ تَعالى: ﴿أَمْ للإِنْسَانِ ما تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى﴾ [النجم: ٢٤-٢٥].

وقالَ ﷺ: (ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ، مَنْ رضيَ بالله ربًّا، وبالإسْلامِ دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا)(١)، وقالَ ﷺ: (اعْبُدِ الله بالرِّضَا، فإنْ لم تَستَطِعْ ففِي الصَّبرِ على ما تكْرَهُ خيرٌ كَثِيرٌ)(٢).

إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الآياتِ والأحَاديثِ الدَّالَّةِ عَلى تَرْكِ التَّدْبيرِ، ومنازَعَةِ المَقَادِيرِ، إمَّا نَصًّا صَرِيحًا، وإمَّا إشَارةً وتَلْوِيحًا.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٣٤)، وغيره من حديث العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٤)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٩٥٢٨) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، ولفظ البيهقيِّ: (فإن استطعتَ أن تعملَ لله بالرِّضا واليقين فافعل، وإن لم تستطع فإنَّ في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا...) الحديث. وذكره الغزاليُّ في «الإحياء» (٣/ ٥٨) بنفس لفظ المصنِّف، وعزاه العراقيُّ إلى الطبرانيِّ. وهو جزءٌ من حديث ابن عبَّاسٍ المشهور وأصله عند أحمد (٢٨٠٣)، والترمذيِّ وصحَّحه (٢٥١٦)، وغيرهما بلفظ: (غلامُ، إنِّي أعلِّمك كلماتٍ: احْفظِ الله يَحْفَظْكَ...) الحديث

وقَدْ قَال أهْلُ المعْرِفَةِ: «منْ لم يُدَبِّرْ دُبِّرَ له». وقالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ الشَّاذُليُّ[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنْ كَانَ ولا بُدَّ منْ التَّدبيرِ فدَبِّرُوا أنْ لَا تُدَبِّرُوا». وَقَال أيْضًا: «لَا تَخْتَرْ مِنْ أمْركَ شَيئًا، واخْتَرْ أنْ لَا تَخْتَارَ، وفِرَّ مِنْ ذَلِكَ المخْتَارِ، ومِنْ فِرَارِكَ، ومِنْ كُلِّ شَيءٍ إلى الله تَعَالى، وربُّك يَخْلُقُ مَا يَشَاء ويَخْتَارُ».

فَقَوْلُه تَعَالى في الآيَةِ الأُولى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه دَلالةٌ عَلى أنَّ الإيمانَ الحقِيقيَّ لا يَحْصُلُ إلَّا لمنْ حَكَّمَ الله ورسُولَه ﷺ عَلى نَفْسِه قَوْلًا وفِعْلًا، وأَخْذًا وتَرْكًا، وحُبًّا وبُغْضًا، ويَشْمَلُ ذلكَ حُكْمَ التَّكْليفِ، وحُكْمَ التَّصْريفِ، والتَّسْليمُ والانْقيادُ واجِبٌ على كُلِّ مُؤمِنٍ في كِلَيْهما، فأحْكَامُ التَّكْلِيفِ: الأوامِرُ والنَّواهِي المتَعَلِّقةُ باكتِسَابِ العِبَادِ، وأحْكَامُ التَّصرِيفِ: هوَ ما أوْرَدَهُ علَيْكَ مِنْ قَهْرِ المرَادِ. فتَبَيَّنَ مِنْ هَذا أنَّه لا يَحْصُلُ لَكَ حَقِيقةُ الإيمانِ إلَّا بأمْرَينِ: بالامْتِثالِ لأمْرِهِ، والاسْتِسْلامِ لقَهْرِه.

---

(١) الشيخ الإمام حُجَّة الصوفية أستاذ الأكابر أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن عبد الجبَّار بن تميم بن هرمز الشاذلي المغربي، نسبةً إلى شاذلة قرية بالقرب من تونس، نزيل الإسكندرية، وشيخ الطائفة الشاذلية، ولد سنة ٥٩١، أثنى عليه كبراء عصره، وقال شيخ الإسلام تقي الدين محمد بن علي القشيري: «ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي»، تتلمذ على العارف عبدالسلام ابن مشيش، ومن أشهر تلاميذه العارف أبو العباس المرسي دفين الإسكندرية، وله كلامٌ عال في طريق القوم والدلالة على الله نقله عنه أصحابه، وله أحزاب وأوراد مشهورة، وأفرد سيرته بالتصنيف جماعة، منهم: ابن عطاء الله في كتابه «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن»، ولأحمد بن محمد ابن عياد كتاب «المفاخر العلية في المآثر الشاذلية»، ومن المعاصرين الشيخ عبدالحليم محمود في «المدرسة الشاذلية»، حجَّ مرات، وتُوفي بصحراء عيذاب، فدُفن هناك، ومشهده معروفٌ يُزار، وعليه ما عليه من الأنوار، تُوفي أول ذي القعدة سنة ٦٥٦. انظر: «الوافي بالوفيات» للصفدي (٢١/ ١٤١-١٤٢)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (١/ ٤٥٨)، و«لطائف المنن» لابن عطاء الله.

ثُمَّ إنَّه سُبْحانَه وتَعَالَى لم يكتَفِ بنَفْيِ الإيمانِ عمَّنْ لم يُحكِّمْ، أوْ حَكَّمَ ووَجَدَ الحَرَجَ في نَفْسِه على ما قَضَى، حتَّى أقْسَمَ على ذَلكَ بالرُّبُوبيَّةِ الخاصَّة برَسُولِه ﷺ رأفةً وعِنايةً، وتخْصِيصًا ورعَايةً؛ لأنَّهُ لم يقُلْ «فَلا وَالرَّبِّ»، وإنَّما قَالَ: ﴿فلا وربِّك لا يُؤْمِنُونَ حتَّى يحكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بينَهُم﴾، ففِي ذَلكَ تَأكيدٌ بالقَسَم، وتأكيدٌ في المقسَم علَيهِ، عِلْمًا مِنْهُ -سُبْحَانَه- بما النُّفُوسُ مُنْطَويةٌ علَيهِ، مِنْ حُبِّ الغَلَبَةِ ووجُودِ النُّصْرَةِ، سواءٌ كانَ الحقُّ عَلَيْها أوْ لها.

وفي ذَلِكَ إظْهَارٌ لعِنايَتِه برسُولِه ﷺ؛ إذْ جَعَلَ حُكْمَه حُكْمَه، وقضَاءَهُ قَضَاءَهُ، فأوْجَبَ على العِبادِ الاسْتِسْلامَ لحُكْمِه، والانْقِيادَ لأمْرِه، ولَمْ يَقْبَلْ مِنهُم الإيمانَ بإلاهِيَّتِه حتَّى يُذْعِنُوا لأحْكَامِ رسُولِه ﷺ؛ لأنَّه كَما وصَفَهُ ربُّه: ﴿ومَا ينْطِقُ عَنِ الهَوى * إنْ هُوَ إلَّا وَحيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤]، فحُكْمُه حُكْمُ الله، وقَضَاؤُه قضَاءُ الله، كَما قَال: ﴿إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّما يُبَايِعُون الله﴾ وأكَّدَ ذلكَ بقَوْلِه: ﴿يَدُ الله فَوْقَ أيدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وفي الآيةِ إشَارةٌ أُخْرَى لِعَظِيمِ قَدْرِه، وتفْخِيمِ أمْرِه ﷺ، وهِيَ قَولُه تَعالَى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ﴾، فأضَافَ نفْسَهُ تعالى إليه، كَما قَال في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكرِيَّا﴾ [مريم: ١-٢]، فأضَافَ الحقُّ سُبْحانَه اسْمَهُ إلى محمَّدٍ ﷺ وأضَافَ زَكَرِيَّا إليهِ؛ ليَعْلَمَ العِبادُ فَرْقَ مَا بَيْنَ المنْزِلَتَيْنِ، وتَفَاوُتَ مَا بَينَ الرُّتْبَتَيْنِ.

ثُمَّ إنَّه تَعالَى لم يكْتَفِ بالتَّحْكِيمِ الظَّاهِرِ فيكُونُوا بِه مُؤْمِنينَ بَلْ اشتَرطَ فُقْدَانَ

الحَرَجِ وهُوَ الضِّيقُ مِنْ نفُوسِهِم في أحْكَامِه ﷺ، سَواءٌ كانَ الحكمُ بما يُوافِقُ أهوائَهُم أوْ يُخالِفُهَا. وإنَّما تَضيقُ النُّفُوسُ لفُقْدانِ الأنوارِ، ووُجُودِ الأغْيارِ، فعَنْه يَكُونُ الحرَجُ، وهوَ الضِّيقُ، والمؤْمِنُونَ ليسُوا كَذلَكَ؛ إذْ نُورُ الإيمانِ ملأَ قلُوبَهُم، فاتَّسَعَتْ وانشَرَحَتْ، فكَانَتْ واسِعةً بنُورِ الوَاسِعِ العَلِيمِ، ممْدُودَةً بوجُودِ فضْلِه العَظِيمِ، مُهَيَّأةً لوارِدَاتِ أحْكَامِه، مُفَوَّضةً إليْهِ في نقْضِه وإبْرَامِه.

***

أسباب صبر العبد وثبوته لأحكام سيده

فائدةٌ: اعْلَمْ أنَّ الحقَّ سُبْحانَه إذَا أرادَ أنْ يقوِّيَ عبْدًا علَى مَا يريدُ أنْ يُورِدَهُ علَيه منْ وجُودِ حُكْمِه، ألْبَسَهُ منْ أنوارِ وصْفِه، وكسَاهُ منْ وجُودِ نَعْته، فتَنزَّلَتِ الأقْدَارُ، وقدْ سَبَقَتْ إليهَا الأنوارُ، فكَانَ بربِّه لا بنَفْسِه، فقَوِيَ لأعْبائِهَا، وصَبَرَ للأْوَائِهَا.

١ - وإنَّما يُعِينُهُم على حَمْلِ الأقْدَارِ، وُرودُ الأنْوَارِ. وإنْ شِئْتَ قُلتَ:

٢ - وإنَّما يُعِينُهُم عَلى حَمْلِ الأحْكَامِ، فَتْحُ بَابِ الأفْهَامِ. وإنْ شِئْتَ قُلتَ:

٣ - وإنَّما يُعِينُهُم على حَملِ البَلايَا، وَارِدَاتُ العَطَايا. وإنْ شِئْتَ قُلتَ:

٤ - وإنَّما يقَوِّيهِم عَلى حَملِ أقْدَارِه، شُهودُ حُسْنِ اخْتيارِه. وإنْ شِئْتَ قُلتَ:

٥ - وإنَّما يُصَبِّرُهُم عَلى وجُودِ حُكْمِه، عِلْمُهم بوجُودِ عِلْمِه، وإنْ شِئْتَ قُلتَ: وإنَّما صَبَّرَهُم على ما جَرى، عِلْمُهُم بأنَّه يَرَى. وإنْ شِئْتَ قُلتَ:

٦ - وإنَّما يُصَبِّرُهُم على أفْعَالِه، ظُهورُه عَلَيهم بُوجُودِ جَمالِه. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ:

٧- وإنَّما صَبَّرَهُم علَى القَضَاء، عِلْمُهُم بأنَّ الصَّبرَ يُورِثُ الرِّضَا. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ:

٨- وإنَّما صَبَّرَهُم عَلَى الأَقْدار، كشْفُ الحُجُبِ والأَسْتَارِ. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ:

٩- وإنَّما قوَّاهُم على حَملِ أثْقَالِ التَّكليفِ، وُرُودُ أسْرَارِ التَّصريفِ. وإنْ شِئْتَ قُلْتَ:

١٠- وإنَّما صَبَّرَهُم عَلَى أقْدَارِه، علْمُهُم بما أوْدَعَ فيها مِنْ لُطْفِه وإبْرَارِه.

فهَذه عشْرَةُ أسْبابٍ تُوجِبُ صَبْرَ العَبْدِ وثُبوتَه لأحْكَام سَيِّده، وقوَّتَه عندَ وُرُودِها، وهوَ المعْطِي لكُلِّ ذلكَ بفضْلِه، والمانُّ بذَلكَ على ذَوِي العِنايةِ منْ أهْلِه.

ولْنَتَكَلَّمِ الآنَ على كُلِّ قِسْمٍ مِنْهَا لتَكْمُلَ الفَائدةُ، وتحصُلَ الجدْوَى والعَائدةُ.

فأمَّا الأوَّلُ وهو: «إنَّما يُعينُهم عَلَى حَملِ الأقْدَارِ، وُرُودُ الأنوار»:

وذلكَ أنَّ الأنْوارَ إذَا وَرَدَتْ كشَفَتْ للعَبْدِ عَنْ قُرْبِ الحقِّ سُبْحانه وتَعالى مِنْه، وأنَّ هذِه الأحْكَامَ، لم تكنْ إلَّا عنْه، فكَانَ علمُه بأنَّ الأحْكَام إنَّما هِيَ مِنْ سَيِّدِهِ سَلْوةً له، وسَبَبًا لوجُودِ صَبْره. ألم تسْمَعْ لما قَالَ الله سُبْحانَه لنَبيِّه ﷺ: ﴿واصْبِرْ لحُكْم ربِّكَ، فإنَّكَ بأعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، أي: ليسَ هوَ حُكْمَ غيْره، فَيشُقَّ عَلَيكَ، بل هوَ حُكْمُ سَيِّدِكَ القائِم بإحْسَانه إليك.

ولنا في هذا المعنى:

وَخَفِّفَ عنِّي مَا أُلاقِي مِنَ العَنَا * بِأنَّكَ أنْتَ المُبْتَلِي وَالمقَدِّرُ

وَمَا لأمْرِي عَمَّا قَضَى اللهُ مَعْدِلُ * وَلَيْسَ لهُ منْهُ الَّذي يَتَخَيَّرُ

وَمِثالُ ذلكَ: لَوْ أنَّ إنْسَانًا في بيتٍ مُظْلِم، فَضُرِبَ بشَيءٍ، ولا يدْرِي مَنِ الضَّارِبُ له، فلمَّا أُدْخِلَ عَلَيهِ مِصْباحٌ نَظَرَ، فإذَا هُوَ شَيخُهُ، أو أبُوهُ، أوْ أمِيرُه، فإنَّ عِلْمَهُ بذَلكَ مما يُوجِبُ صَبْرَه عَلى مَا هُنالِكَ.

الثَّاني وهوَ قولُه: «إنَّما يُعينُهُم على حَمْلِ الأحْكَام فَتْحُ بَابِ الأفْهَام»:

اعْلمْ أنَّه إذَا أوْرَدَ الله تَعَالى على عبْده حُكْمًا، وفتَحَ له بابَ الفَهْم عنْهُ في ذلكَ الحكْم، فاعْلَمْ أنَّه أرَادَ سُبحَانَه أنْ يحْملَه عَنْه؛ وذلك أنَّ الفَهْمَ يُرْجعُكَ إلى الله، ويحثُّكَ إليه، ويَجْعَلُكَ مُتوَكِّلًا عَلَيه، وقَدْ قَال تَعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أيْ: كَافِيهِ وَوَاقِيهِ، وناصِرُهُ على الأغْيارِ ورَاعِيه؛ لأنَّ الفَهْمَ عَنِ الله تَعَالى يكشِفُ لكَ عَنْ سرِّ العُبُودِيَّة فِيكَ، وقدْ قَالَ سُبْحَانَه وتَعَالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]. وكلُّ هذه الوُجوهِ العَشْرةِ ترجِعُ إلى الفَهْمِ عنْهُ، وإنَّما هِيَ أنواعٌ فيه.

الثَّالثُ وهوَ قَولُه: «إنَّما يعينُهُم على حَمْلِ البَلايَا وَارِدَاتُ العَطَايا»:

وَذلكَ أنَّ وَارِدَاتِ العَطَايَا السَّابقَة مِنَ الله تَعَالى إليكَ، تَذَكُّرُكَ لها ممَّا يُعَينُكَ على حَملِ أحْكَامِ الله، إذْ كَما قَضَى لك بِما تُحِبُّ، اصْبِرْ له عَلَى ما يحبُّ فيكَ.

أَلم تَسْمَعْ قوْلَه تَعَالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فسَلَّاهُم الحقُّ فيما أُصِيبُوا بِما أَصَابُوا. هَذا مِنَ العَطَايَا السَّابقة.

وقدْ يَقْتَرِنُ بالبَلايا في حِينِ وُرُودِهَا، ما يُخفِّفُها على العبادِ المقرَّبينَ: منْ ذلكَ أنْ يكْشفَ لهمْ عنْ عَظِيمِ الأَجْرِ الَّذي ادَّخَرَهُ لَهم في تِلْكَ البَليَّة، ومنْهَا ما ينْزِلُه على قُلُوبِهِمْ مِنَ التَّثْبيتِ والسَّكِينَةِ.

ومِنْها ما يُورِدُه علَيهم مِنْ دَقَائقِ اللُّطْفِ وتنزُّلاتِ المِنَنِ، حتَّى كانَ بعضُ الصَّحَابة رَضِيَاللهُعَنْهُمْ يقُولُ في بعْضِ مَرَضِه: «اشدُدْ خَنْقَكَ»، وحتَّى قالَ بعْضُ العَارِفِينَ: «لقَدْ مَرِضْتُ مَرْضَةً فأَحْبَبْتُ أنْ لا تَزُولَ لِمَا ورَدَ عَلَيَّ فِيهَا مِنْ أَمْدَادِ الله تَعَالى، وانْكَشَفَ فِيهَا مِنْ وجُوهِ غَيْبِه». ولِلْكَلَامِ في سَبَبِ ذلكَ موضِعٌ غيرُ هَذَا.

الرَّابعُ وهُوَ: «إِنَّما يُقَوِّيهم على حَمْلِ أقْداره شُهُودُ حُسْنِ اختياره»:

وَذلكَ أنَّ العَبدَ إذَا شَهِدَ حُسْنَ اخْتِيارِ الله تعَالى لَهُ، عَلِمَ أنَّ الحقَّ سبحانه لا يقْصِدُ أَلمَ عَبْدِه؛ لأنَّه به رحيمٌ ﴿وكَانَ بالمؤْمِنينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقَدْ رَأى رسُولُ الله ﷺ امْرَأةً مَعَهَا ولَدُهَا، فقَال: (أتَرَوْنَ هَذه طارِحةً ولَدَها في النَّار؟) قالُوا: لا يا رسُولَ الله، فقَالَ ﷺ: (الله أرْحَمُ بعبْدِه المؤْمِنِ مِنْ هذه بولَدِهَا)[1].

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٩)، ومسلمٌ (٢٧٥٤)، وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَاللهُعَنْهُ.

غَيرَ أنَّه سُبْحانَه وتَعَالى يَقْضِي عليكَ بالآلام، لما يَتَرتَّبُ عليْها منَ الفَضْلِ والإنْعَامِ؛ ألم تَسْمَعْ قَوْلَه تَعَالى: ﴿إنَّما يُوفَّى الصَّابِرُونَ أجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولَوْ وَكَلَ الحقُّ سُبْحَانه العِبادَ إلى اخْتيارِهِمْ، لحُرِمُوا وُجُودَ مِنَّته، ومُنِعُوا الدُّخُولَ إلى جَنَّته، فلَهُ الحمْدُ على حُسْنِ الاخْتِيار؛ ألَمْ تَسْمَعْ قولَه تَعَالى: ﴿وَعَسَى أنْ تكْرَهُوا شيْئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيئًا وهوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَإنَّ الأَبَ المشْفِقَ يَسُوقُ لابْنِه الحجَّامَ لَا لِقَصْدِ الإيلَامَ؛ وكالطَّبيبِ النَّاصِحِ، يُعَانِيكَ بالمَرَاهِمِ الحادَّةِ وإنْ كانَتْ مُؤْلِمَةً لَكَ، ولوْ طَاوَعَ اخْتِيارَكَ لبَعُدَ الشِّفَاءُ عَلَيكَ؛ ومَنْ مُنِعَ وَعَلِمَ أنَّ المنعَ إنَّما هُوَ إشْفاقٌ عَلَيْه، فهَذَا المنعُ في حَقِّه عَطَاءٌ. وكالأمِّ المشْفِقَةِ تمنَعُ ولدَهَا كثْرَةَ المأكَلِ خَشْيَةَ التُّخَمَةَ، ولذلكَ قَالَ الشَّيخُ أبو الحَسنِ -رَحمَه الله تَعالى-: «اعْلَم أنَّ الحقَّ سُبْحانَه وتَعَالى إذَا منَعَكَ لم يَمْنَعْكَ منْ بُخْلٍ، وإنَّما يَمْنَعُكَ رحمةً لك؛ فمَنْعُ الله تَعَالى عَطَاءٌ، ولَكِنْ لا يفْهمُ العَطَاءَ في المنْعِ إلا صِدِّيقٌ».

وفي كَلام أثبتنَاهُ في غيرِ هَذَا الكتابِ: «إنَّه ليُخَفِّفُ عنكَ ألَمَ البَلايَا، علْمُكَ بأنَّه سُبْحانه وتَعَالى هوَ المبتَلِي لكَ، فالَّذي واجَهتْكَ منْهُ الأقْدارُ هُوَ الَّذي لَهُ فيكَ حُسْنُ الاخْتيارِ»[١].

(١) انظر «الحكم العطائية»، حكمة رقم ١٠٥.

الخامسُ وهُو قَولُه: «إنَّما صَبَّرهُمْ عَلى وجُود حُكمه، علمُهم بوُجُود علمه»:

وذَلِكَ أنَّ عِلْمَ العَبْدِ بأنَّ الحقَّ سُبْحانه مُطَّلعٌ عَليه فِيما ابتَلاهُ، يخفِّفُ عنهُ أعْبَاءَ البَلايَا؛ ألَمْ تَسْمَعْ قولَه تَعالى: ﴿واصْبِرْ لحُكْم ربِّكَ، فإنَّكَ بأعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. أيْ: ما تلْقَاهُ يا محمَّدُ مِنْ كفَّارِ قُريشٍ، مِنَ المعَانَدةِ والتَّكْذيب، فليسَ بخَافٍ عَلَيْنَا.

والحِكَايةُ المشْهُورةُ: «أنَّ إنْسَانًا ضُرِبَ تِسْعةً وتِسْعينَ سَوطًا ولمْ يتأوَّهْ، فلمَّا ضُرِبَ السَّوطَ الذِي هُوَ تمَامُ المائةِ تأوَّهَ، فقِيلَ له في ذلكَ، فقال: كانَ الَّذي ضُربْتُ مِنْ أجْلِهِ في الحَلْقَة في التِّسْعَةِ والتِّسْعِينَ، فلمَّا ولَّى عنِّي أحْسَسْتُ بالألَمِ»(١).

السَّادسُ وهُو: «إنَّما صَبَّرهُمْ عَلى أفعَاله ظُهُورُه عَليهمْ بوجُود جَماله»:

وذلكَ أنَّ الحقَّ سُبْحانه وتَعالى إذا تجلَّى عَلَى عبْدِه، في حِينِ مُلاقَاته لِمُرِّ غَلبةِ البَلايَا، حَمَلَ حَرارَتَها عنه لمَّا أذاقَهُ مِنْ حَلاوَةِ التَّجلِّي؛ فربُّما غَيَّبَهُم ذلكَ عَنِ الإحْسَاسِ بالألَمِ، ويَكْفِيكَ في ذلك قولُه تَعالى: ﴿فلمَّا رَأيْنَهُ أكْبَرْنَه وقطَّعْنَ أيدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١].

(١) كأنه رأى أن غريمه أخذ حقه وتم إنصافه بالتسعة والتسعين، فكأن تمام المائة زائد عن الحاجة، فهو ظلم تألم لوقوعه عليه، أما ما يجري من الله تعالى فهو عين العدل والحكمة، وهذا ما يمنع الإحساس بالألم، ويوجب التلذذ بالقدر بعد الصبر عليه والرضا به.

السَّابِعُ وهُو: «إِنَّما صَبَّرَهُم عَلَى القَضَا عِلْمُهُم بأَنَّ الصَّبْرَ يُورِثُ الرِّضَا»:

وذلِكَ: أَنَّ مَنْ صَبرَ على أَحْكَامِ الله، أَوْرَثَه ذلكَ الرِّضَا مِنَ الله، فتَحَمَّلُوا حَرارَتَها طَلَبًا لِرِضَاهُ، كَما يُتَحسَّى الدَّوَاءُ المرُّ، لمَا يُرْجَى فيه مِنْ عَاقِبةِ الشِّفَاءِ[1].

الثَّامنُ وهُو: «إِنَّما صَبَّرَهُمْ على الأَقْدَارِ؛ كَشْفُ الحُجُبِ والأَسْتَارِ»:

وذلِكَ أَنَّ الحقَّ سُبْحانه وتَعَالى، إذَا أرادَ أَنْ يحمِلَ عَنْ عبدٍ ما يُورِدُهُ عليه، كَشَفَ الحِجَابَ عَنْ بَصِيرةِ قَلْبه، فأَرَاهُ قُرْبَهُ منْهُ، فغَيَّبَه أُنْسُ القُرْبِ عنْ إدراكِ المؤلماتِ؛ ولوْ أَنَّ الحقَّ سُبْحَانه وتَعَالى تجلَّى لأَهْلِ النَّارِ بجَمالِه وكَمالِه، لغَيَّبَهُم ذَلكَ عنْ إدْراكِ العَذَابِ، كَما أَنَّه لوِ احْتَجَبَ عنْ أَهْلِ الجنَّةِ لما طَابَ لهمُ النَّعيمُ؛ فالعَذابُ إنَما هُو وُجُودُ الحِجَابِ، وأَنْواعُ العَذَابِ مَظَاهِرُه؛ والنَّعِيمُ إنَّما هُو بالظُّهُورِ والتَّجَلِّي، وأَنْوَاعُ النَّعِيمِ مظَاهِرُه.

التاسعُ وهُو: «إنَّما قَوَّاهُم على حَمْلِ أَثْقَالِ التَّكْليفِ، وُرُودُ أَسْرارِ التَّصْرِيفِ»:

وذلكَ لأَنَّ التَّكَاليفَ شَاقَّةٌ على العِبادِ، ويدْخُلُ في ذَلكَ امْتِثالُ الأَوَامِرِ، والانْكِفَافُ عَنْ الزَّواجِرِ، والصَّبْرُ على الأَحْكَامِ، والشُّكْرُ عِندَ وجُودِ الإنْعامِ.

---

(١) وقد قيل لسيدنا أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد مرض: نأتي لك بالطبيب؟ فقال: «الطبيب هو الذي أمرضني»، أي أمرض بدني لشفاء روحي، وأعل جسدي لعافية قلبي، وأنزل بي من القضاء ما يرفع به درجتي عنده؛ فعلمُ سيدنا أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأن الصبر يورث الرضا جعله ينظر إلى المرض على أنه نعمة من الله تعالى ساقها إليه ليصبر.

ولنفس السبب قالت السيدة نفيسة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا حين مرضت وجيء لها بالطبيب:

أخرجوا عني طبيبي * ودعوني وحبيبـــي

فَهِيَ إِذَنْ أربعة: طاعةٌ، ومَعْصِيةٌ، ونِعْمَةٌ، وبَلِيَّةٌ. وهِيَ أَرْبعٌ لا خَامِسَ لَهَا، ولله عَلَيْكَ فِي كُلِّ واحِدةٍ مِنْ هذهِ الأَرْبعِ عُبودِيَّة يقْتَضيها مِنْك بِحُكْمِ الرُّبُوبيَّة[1]؛ فَحقُّه عَلَيْكَ فِي الطَّاعةِ: شُهودُ المِنَّة مِنْهُ عَلَيكَ فِيها، وَحقُّه عَليكَ فِي المعْصِيةِ: الاسْتِغْفارُ مِمَّا ضَيَّعتَ فِيها، وحَقُّه عَلَيْكَ فِي البَلِيَّةِ: الصَّبْرُ معَهُ علَيهَا، وحَقُّه علَيكَ فِي النِّعْمَةِ: وجُودُ الشُّكْرِ مِنْكَ فِيها.

ويَحْمِلُ عَنْكَ أعْباءَ ذلكَ كُلِّه الفَهْمُ، وإذَا فَهِمْتَ أَنَّ الطَّاعةَ راجِعَةٌ إلَيْكَ وعَائِدةٌ بِالجَدْوَى عليكَ؛ صَبَّرَكَ ذلكَ عَلى القِيامِ بِها.

وَإذا عَلِمْتَ أَنَّ الإِصْرَارَ على المعْصِيةِ والدُّخُولَ فيهَا يُوجِبُ العُقُوبَةَ مِنَ الله آجِلًا، وانكشافَ نُورِ الإيمانِ عَاجِلًا، كانَ ذلكَ سبَبًا للتَّرْكِ مِنْكَ لها.

وإذَا عَلِمْتَ أَنَّ الصَبرَ تَعُودُ عليكَ ثَمَرتُه وتَنْعَطِفُ علَيكَ بَرَكتُه، سَارَعْتَ إِلَيه، وعوَّلْتَ عَلَيه. وإذَا عَلِمْتَ أَنَّ الشُّكْرَ يَتَضَمَّنُ المزيدَ مِنَ الله لِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾ [إبراهيم: ٧] كانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِمُثَابَرَتِكَ عَليه، ونُهوضِكَ إِلَيه.

وسَنَبْسُطُ الكَلامَ علَى هَذِه الأَرْبعِ فِي آخِرِ الكِتابِ، ونُفْرِدُ لها فَصْلًا إنْ شَاءَ الله تَعَالى.

(١) فعبودية الطاعة الثبات عليها وشكر الله عز وجل عليها، والتبري من الحول والقوة بعدم نسبتها إلى النفس، والإخلاص لله تعالى فيها، وعبودية المعصية التوبة النصوح بشروطها وآدابها، وعبودية النعمة الشكر بأركانه، والبذل لها فيما جاءت من أجله، و التحدث بها في غير بطر، وإبرازها في غير خيلاء، وعبودية البلية الصبر عليها، والرضا عن الله تعالى فيها، وسترها عن الخلق [illegible]

العَاشرُ وهُو: «إنَّما صَبَّرَهُم على أقْدَاره، عِلْمُهُم بما أوْدَعَ فيهَا مِنْ لُطْفه وإبْرَاره»:

وذلكَ أنَّ المكَارهَ أوْدَعَ الحقُّ تَعَالى فِيهَا وجُودَ الألْطَافِ؛ ألم تَسْمَعْ قَولَه تَعَالى: ﴿وَعَسَى أنْ تكْرَهُوا شَيئًا وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقولَهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ)[١].

وفي البَلايَا وَالأسْقَام والفَاقَاتِ مِنْ أسْرَارِ الألْطَاف مَا لا يَفْهَمُه إلَّا أولُو البَصَائرِ؛ ألم تَرَ أنَّ البَلايَا تُخْمِدُ النَّفْسَ وتُذِلُّها، وتُدْهِشُهَا عَنْ طَلب حُظُوظِهَا وَيقَعُ مَعَ البَلايا وُجُودُ الذِّلَّةِ، ومَعَ الذِّلَّةِ تكُونُ النُّصْرَةُ: ﴿ولقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وَأنْتُمْ أذِلَّةٌ﴾[٢] [آل عمران: ١٢٣].

وبَسْطُ القَوْلِ في ذَلكَ، يُخْرِجُنا عَنِ قَصْدِ الكِتَابِ.

***

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٨٢٢)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) وقد وصف سبحانه أهل بدر بالذلة، وفيهم رسول الله ﷺ مدحًا لهم، كما ذم الكفار حين وصفهم بعكس ذلك: ﴿بل الذين كفروا في عزة وشقاق﴾ [ص: ٢].

الآيات الواردة في وجوب إسقاط التدبير

انعطافٌ: لِنَرْجِعِ الآنَ إِلى الآيةِ، وهِيَ قَولُه سُبْحَانه وتَعَالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

اعْلَمْ أَنَّ الأَحْوَالَ ثَلَاثَةٌ: قَبْلَ التَّحْكِيمِ، وفِيهِ، وبَعْدَهُ. فأَمَّا قَبْلَ التَّحْكِيمِ: فَعُبُودِيَّتُهُم التَّحْكِيمُ[1]، وأَمَّا في الحُكْمِ وبَعْدَهُ: فَعُبُودِيَّتُهُمْ عَدَمُ وُجْدَانِ الحَرَجِ في أُمُورِهِمْ.

فإِنْ قُلْتَ: إِنَّ ذَلِكَ لازِمٌ مِنْ قَولِه تَعَالى: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ﴾! قِيلَ: لَيْسَ كُلُّ مَنْ حَكَّمَ فُقِدَ الحَرَجُ عنه، إِذْ قَدْ يُحَكِّمُ ظَاهِرًا والكَرَاهَةُ عِنْدَهُ مَوْجُودَةٌ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْضَمَّ إِلى التَّحْكِيمِ فُقْدَانُ الحَرَجِ، وَوُجُودُ التَّسْلِيمِ[2].

فَإِنْ قَالَ القَائِلُ: إِذا لم يَجِدُوا الحَرَجَ فقَدْ سَلَّمُوا تَسْلِيمًا، فَمَا فَائِدَةُ الإِتْيَانِ بِقَوْلِه: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ بَعْدَ نَفْيِ الحَرَجِ المُسْتَلْزِمِ لِقَبُولِ التَّسْلِيمِ الَّذِي مِنْ صِفَتِهِ وُجُودُ التَّأْكِيدِ؟! فالجَوَابُ عَنْهُ أَنَّ قَوْلَه تَعَالى: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أَيْ: في جَمِيعِ أُمُورِهِمْ.

(١) والمعنى أن يقبلوه ولا يبتغوا حكما سواه، وأن يعظموا أمر رسول الله ﷺ، وأهم مظاهر ذلك لزوم سنته في سائر الأحوال.

(٢) وهذا الرضا القلبي يحتاج إلى تدريب ومثابرة.

فإنْ قُلْتَ: إنَّ ذلكَ لازمٌ مِنْ قَولِه: ﴿حتَّى يحكِّمُوكَ﴾! فالجَوابُ: أنَّ التَّحْكِيمَ مَا أطْلَقَه، بَلْ قيَّدَه بقَولِه تَعَالى: ﴿فِيما شَجر بَيْنَهُم﴾، فصَارَتِ الآيةُ تَتَضَمَّنُ ثلاثةَ أمُورٍ: أَحدُهَا: التَّحْكِيمُ فيما اخْتَلفُوا فيه. الثَّاني: عدَمُ وُجْدَانِ الحَرَجِ في التَّحْكِيمِ. والثَّالثُ: وجُودُ التَّسْلِيمِ المطْلقِ، فيما شَجَرَ بينَهُمْ، وفِيما نَزَلَ في أنْفُسِهِمْ، فَهُو عامٌّ بَعْدَ خَاصٍّ فافْهَمْ.

***

الآيةُ الثَّانيةُ، وهِيَ قَوْلُه تَعَالى: ﴿ورَبُّكَ يخْلُقُ مَا يشَاءُ ويَختارُ مَا كَانَ لهمُ الخِيَرَةُ سُبْحَانَ الله وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] تَتَضَمَّنُ فوائِدَ:

الفَائدةُ الأُولَى: قولُه تَعَالى: ﴿ورَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، يَتَضَمَّنُ ذلكَ الإلْزامَ للعَبْدِ بتَرْكِ التَّدْبيرِ مَعَ الله، لأنَّهُ إذَا كَانَ يَخْلُقُ مَا يشَاءُ فهُوَ يدَبِّرُ ما يَشَاءُ، فمَنْ لا خَلْقَ لَهُ لَا تَدْبيرَ لَهُ: ﴿أفَمَنْ يَخلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أفَلَا تذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

ويتَضَمَّنُ قولُه ﴿ويختَارُ﴾ انفرَادَهُ بالاخْتِيارِ وأنَّ أفْعَالَهُ ليْسَتْ عَلَى الإلْجاءِ والاضطِّرَارِ، بلْ هُوَ عَلى نَعْتِ الإرَادَةِ والاخْتيارِ، وفي ذَلِكَ إلزَامٌ لِلْعَبدِ بإسْقَاطِ التَّدبِيرِ والاخْتِيارِ مَعَ الله تعَالى؛ إذْ مَا هُو لَه لَا يَنْبَغِي أنْ يكُونَ لَكَ.

وقولُه: ﴿ما كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾ يَحتَمِلُ الوَجْهَيْنِ: أحَدُهُما: لا يَنْبَغِي أنْ تكُونَ الخيرَةُ لهم، وأنْ يكُونُوا أوْلى بِها منْه سُبْحَانَه وتَعَالى. وثَانِيهما: ما كَانَ لهمُ الخِيرَةُ، أيْ: مَا أعْطَيْناهُمْ ذَلِكَ، ولا جَعَلْنَاهُمْ أوْلَى بِها هُنالِكَ.

وقَوْلُه: ﴿سُبْحَانَ الله وتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أيْ: تَنْزِيهًا لله أنْ يكُونَ لهُمُ الخِيَرَةُ مَعَهُ. وبيَّنَتِ الآيةُ أنَّ مَن ادَّعَى الاخْتِيارَ مَعَ الله، فهُوَ مُشْرِكٌ مُدَّعٍ للرُّبُوبيَّةِ بِلِسَانِ حَالِه وإنْ تَبرَّأَ مِنْ ذَلِكَ بِمقَالِه[1].

***

الآيةُ الثَّالثَةُ، وهِيَ قَولُه تَعالى: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى * فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى﴾ [النجم: ٢٤-٢٥] فيهَا دَلالةٌ على إسْقَاطِ التَّدْبِيرِ مَعَ الله بِقَوْلِه: ﴿أَمْ لِلإِنْسَانِ ما تَمَنَّى﴾ أيْ: لا يَكُونُ، ولا يَنْبَغِي لَهُ؛ لأنَّا مَا جَعَلْنَاهُ لهُ.

وأكَّدَ ذلِكَ بِقَولِه: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ والأُولَى﴾ فَفِي ذَلِكَ أيضًا إلْزامُ العَبْدِ تَرْكَ التَّدْبيرِ مَعَ الله تَعالى. أيْ: إذا كَانَ لله الآخِرَةُ والأُولَى فَلَيسَ فِيهما لِلإنْسَانِ شَيءٌ، فَلا ينبَغِي لَهُ التَّدْبيرُ في مُلْكِ غَيْرِه، وإنَّما يَنْبغِي أنْ يُدَبِّرَ في الدَّارَيْنِ مَنْ هُوَ مَالِكُهما وهُوَ اللهُ سُبْحَانَه وتَعَالى.

***

وقَولُه ﷺ: (ذَاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضِيَ بالله رَبًّا...)[2] فيهِ دَلِيلٌ عَلى أنَّ مَنْ لم يَكُنْ كذَلِكَ لَا يَجِدْ حَلَاوةَ الإيمانِ، وَلا يُدْرِكْ مَذَاقَه، وإنَّما يكُونُ إيمانُه صُورةً لا رُوحَ فِيهَا، وظَاهِرًا لا بَاطِنَ لهُ، ومُرْتَسَمًا لا حَقِيقَةَ تَحْتَهُ.

---

(١) فلا بد من البراءة القلبية والتسليم الباطني الذي لا يدرك إلا بدوام الذكر مع الفكر والمرشد العارف.

(٢) تقدم تخريجه. انظر ص١٩.

وفيه إشَارةٌ إلى أنَّ القُلوبَ السَّليمةَ مِنْ أمْراضِ الغَفْلةِ والهوَى، تَتَنَعَّمُ بِمَلْذُوذاتِ المعاني، كَما تَنْعَمُ النُّفوسُ بِمَلْذُوذاتِ الأطْعِمَةِ.

وإنَّما ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَنْ رَضيَ باللهِ رَبًّا؛ لأنَّه لمَّا رَضيَ باللهِ ربًّا اسْتَسْلَمَ لَهُ، وانقَادَ لِحُكْمِه، وألقَى قِيادَهُ إلَيه خَارجًا عنْ تَدْبيرِه واخْتيارِه إلى حُسْنِ تَدْبيرِ اللهِ واخْتِيَارِه، فَوَجَدَ لَذَاذَةَ العَيْشِ، وَرَاحَةَ التَّفْويضِ.

ولَمَّا رَضيَ باللهِ ربًّا، كَانَ لَهُ الرِّضَا مِنَ اللهِ، كَما قالَ تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾[1] [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨].

وإذَا كَانَ لَهُ الرِّضَا مِنَ اللهِ أوجَدَهُ اللهُ حَلاوَةَ ذلِكَ؛ ليعْلَمَ مَا مَنَّ به علَيه؛ ولِيَعْلَمَ إحْسَانَ اللهِ إليه.

ولا يَكُونُ الرِّضَا باللهِ إلَّا مَعَ الفَهْمِ، ولا يكُونُ الفَهْمُ إلَّا مَعَ النُّورِ، ولا يَكُونُ النُّورُ إلَّا مَعَ الدُّنُوِّ، ولا يكُونُ الدُّنُوُّ إلَّا مَعَ العِنَايَةِ[2].

فَلَمَّا سَبَقَتْ لهذا العَبْدِ العِنايةُ خَرَجَتْ له العَطَايَا مِنْ خِزَائنِ المِنَنِ، فَلَمَّا واصَلَتْهُ أمدَادُ اللهِ وأنوارُهُ عُوفِي قَلْبُه مِنَ الأمْراضِ والأسْقَامِ، فَكَانَ سَلِيمَ الإدْرَاكِ، فأدْركَ لَذَاذةَ الإيمانِ وحلاوَتَه؛ لِصِحَّةِ إدْرَاكِه ولِسَلامَةِ ذَوْقِه.

---

(١) فكان رضا الله تعالى عنهم سببا في رضاهم عن الله عز وجل، وهو بدوره جالب لمزيد رضا الله تعالى، وهكذا دواليك.

(٢) ولا سبيل إلى العناية إلا طلبها من الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، مع الأخذ في الأسباب التي تحققها، رحمة منه سبحانه ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦].

ولَوْ سَقِمَ قَلْبُه بالغَفْلةِ عنِ الله، لم يدْرِكْ ذلكَ؛ لأنَّ المحْمُومَ رُبَّما وجَدَ طعْمَ السُّكَّرِ مُرًّا، وليسَ هُوَ في نَفْسِ الأمْرِ كذَلِكَ[1]. فإذَا زَالَتْ أسْقَامُ القُلوبِ، أدْرَكَتِ الأشْياءَ على مَا هِيَ عَلَيهِ، فتُدرِكُ حَلَاوَةَ الإيمانِ وَلَذَاذَةَ الطَّاعَةِ، ومَرَارَةَ القَطِيعَةِ والمخَالَفَةِ. فيُوجبُ إدْراكُهَا لحَلاوَةِ الإيمانِ اغْتباطَهَا به، وشُهُودَ المنَّةِ مِنَ الله عَلَيهَا فيهِ، وتَطَلُّبَ الأسْبابِ الحافظةِ للإيمانِ، وَالجَالبَةِ لَهُ، ويُوجِبُ إدْراكُ لذَاذَةِ الطَّاعةِ المدَاوَمةَ عليهَا، وشُهُودَ المنَّةِ مِنَ الله فيهَا. ويُوجبُ إدْرَاكُهَا لمرارَةِ الكُفْرَانِ والمخَالفَةِ التَّرْكَ لهما، والنُّفُورَ عنْهُما، وعَدَمَ الميلِ إليْهِمَا، فيَحْمِلُ عَلى التَّركِ للذَّنْبِ، وعَدَمِ التَّطَلُّعِ إليه، ولَيْسَ كُلُّ مُتَطَلِّعٍ تارِكًا، ولا كُلُّ تارِكٍ غيرَ مُتَطَلِّعٍ.

وإنَّما كانَ كذلكَ، لأنَّ نُورَ البَصيرَةِ دَالٌّ عَلى أنَّ المخَالفَةَ لله، والغَفْلَةَ عنْهُ سُمٌّ لِلْقُلُوبِ مُهْلِكٌ، فنَفْرةُ قُلوبِ المؤْمنينَ عنْ مخالفَةِ الله تَعَالى كنَفْرَتِكَ عَنِ الطَّعَامِ المسْمُومِ.

وقولُه ﷺ: (وبالإسْلامِ دِينًا)؛ لأنَّه إذا رَضِيَ بالإسْلامِ دِينًا، فَقَدْ رَضِيَ بما رَضِيَ بِهِ المولَى واختَارَهُ، لقَولِه تَعَالى: ﴿إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ولقولُهُ تَعَالى: ﴿ومَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، ولِقَوْلِه: ﴿إنَّ الله اصْطَفَى لكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُم مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

---

(١) ولله درُّ الإمام البوصيري حين يقول:

قد تنكِر العينُ ضوءَ الشمس من رَمَدٍ * وينكِر الفمُ طعمَ الماء من سَقَم

وإذَا رَضِيَ بالإسْلام دِينًا، فمِنْ لازِم ذَلِكَ: امْتِثالُ الأوَامِرِ، والانْكِفَافُ عن وُجُودِ الزَّوَاجِرِ، والأمرُ بالمعْرُوفِ، والنَّهْيُ عَنِ المنكرِ، والغَيْرَةُ إذا رَأى مُلْحِدًا يجادِلُ أنْ يُدْخِلَ فيهِ مَا ليسَ مِنْهُ، فيدمَغُه ببُرهَانِه، ويَقْمَعُه بتِبيانِه.

وقَولُه ﷺ: (وبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا)، فلازِمُ مَنْ رَضِيَ بمُحَمَّدٍ نَبِيًّا أنْ يَكُونَ لَه ولِيًّا، وأنْ يتَأدَّبَ بآدَابِه، وأنْ يتَخَلَّقَ بأخلَاقِهِ زُهْدًا في الدُّنْيَا، وخُرُوجًا عنهَا، وصَفْحًا عَنِ الجنَايَةِ، وعَفْوًا عمَّنْ أسَاءَ إليهِ، إلى غَيرِ ذَلِكَ مِنْ تحقُّقِ المتَابَعَةِ، قَولًا وفِعْلًا، وأخْذًا وتَرْكًا، وحُبًّا وبُغْضًا، وظَاهِرًا وبَاطِنًا.

فمَنْ رَضِيَ باللهِ اسْتَسْلَمَ لَه، ومَنْ رَضِيَ بالإسْلَام عَمِلَ لَه، ومَنْ رضِيَ بمحمَّدٍ ﷺ تَابعَهُ. ولا تَكُونُ واحدةٌ منها إلا بكُلِّهَا؛ إذْ مُحالٌ أنْ يَرْضَى باللهِ ربًّا ولا يَرْضَى بالإسْلام دِينًا، أوْ يَرْضَى بالإسْلامِ دِينًا ولا يَرْضَى بمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، وتَلازُمُ ذَلِكَ بَيِّنٌ لا خَفَاءَ فِيهِ.



مقامات اليقين لا تصح إلا بإسقاط التدبير

وإذْ قَدْ تَبَيَّنَ هَذَا فَاعْلَمْ أنَّ مَقَاماتِ اليقِينِ تِسْعَةٌ، وَهِيَ:

التَّوبةُ، والزُّهْدُ، والصَّبْرُ، والشُّكْرُ، والخَوفُ، والرِّضَا، والرَّجاءُ، والتَّوَكُّلُ، والمحبَّةُ.

ولا تَصِحُّ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْ هَذهِ المقَامَاتِ إلَّا بإسْقَاطِ التَّدْبيرِ مَعَ الله، والاخْتِيارِ.

وذلكَ أنَّ التَّائِبَ كَما يجبُ عَليه أنْ يَتُوبَ منْ ذَنبه، كذَا يجبُ عَلَيه أنْ يتُوبَ عَنِ التَّدْبيرِ مَعَ رَبِّه؛ لأنَّ التَّدْبيرَ والاخْتِيارَ مِنْ كَبائِرِ القُلوبِ وَالأسْرَارِ.

والتَّوبةُ هِيَ: الرُّجُوعُ إلى الله تَعَالَى، مِنْ كُلِّ مَا لا يَرْضَاهُ لكَ، والتَّدبيرُ لا يَرْضَاه لَك؛ لأنَّه شِرْكٌ بالرُّبُوبِيَّةِ، وكُفْرٌ لِنعْمَةِ العَقْلِ، ولا يَرْضَى لعِبَادِهِ الكُفْرَ. وكَيفَ يَصِحُّ تَوبةُ عَبْدٍ مَهْمُومٍ بتَدْبِيرِ دُنْياهُ، غافِلٍ عَنْ حُسْنِ رِعايَةِ مَوْلاه!؟

وكذَلكَ لَا يَصِحُّ الزُّهْدُ إلَّا بالخُرُوجِ عَنِ التَّدْبيرِ؛ لأنَّ ممَّا أنْتَ مُخاطَبٌ بالخُروجِ عنْهُ، والزُّهْدِ فيهِ: تَدْبِيرُكَ؛ إذِ الزُّهْدُ زُهْدَانِ: زُهْدٌ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ؛ وزُهْدٌ باطِنٌ خَفِيٌّ.

فالظَّاهرُ الجليُّ: الزُّهْدُ في فُضُولِ الحَلَالِ مِنَ المأكُولَاتِ والملْبُوسَاتِ وغيرِ ذلكَ.

والزُّهْدُ الخَفِيُّ: الزُّهْدُ في الرِّياسَةِ، وَحُبِّ الظُّهُورِ، ومِنْهُ الزُّهْدُ في التَّدْبيرِ مَعَ الله.

وكَذلكَ لا يَصِحُّ صَبرٌ، ولا شُكْرٌ، إلَّا بإسْقَاطِ التَّدْبيرِ؛ وذَلكَ لأَنَّ الصَّابرَ، مَنْ صَبَرَ عَمَّا لا يُحِبُّه الله، ومَّا لا يُحبُّه الله تَعَالى التَّدبيرُ معَه والاخْتِيارُ؛ لأنَّ الصَبرَ عَلى أقْسَام: صَبرٌ عنِ المحَرَّمَاتِ، وصَبرٌ [على] الواجِبَاتِ، وصبرٌ عنِ التَّدبيراتِ والاخْتِيارَاتِ. وإنْ شئْتَ قُلْتَ: صَبرٌ عَنِ الحظُوظِ البَشَرِيَّةِ، وصَبرٌ على لَوازِمِ العُبودِيَّةِ. ومِنْ لَوَازِمِ العُبُودِيَّةِ إسْقَاطُ التَّدْبيرِ مَعَ الله تعالى.

وكَذلكَ لا يَصِحُّ الشُّكْرُ إلَّا لِعَبدٍ تَرَكَ التَّدْبيرَ مَعَ الله؛ لأنَّ الشُّكْرَ كَما قَالَ الجُنَيْدُ[1] -رَحِمَه الله تَعَالى-: «الشُّكْرُ أنْ لا تَعْصيَ الله بنِعْمَه».

ولوْلَا العَقْلُ الَّذي مَيَّزكَ الله بهِ عَلى أشْكالِكَ، وجَعَلَه سبَبًا لكَمالِكَ، لم تكُنْ مِنَ المدَبِّرينَ مَعَهُ؛ إذِ الجَمادَاتُ والحيواناتُ لا تَدْبيرَ لها معَ الله، لفُقْدَانِ العَقْلِ الَّذي مِنْ شَأنِه النَّظَرُ إلى العَوَاقِبِ والاهْتِمامِ بها.

ويُنَاقِضُ أيضًا مقَامَ الخَوفِ والرَّجَاءِ، إذِ الخَوفُ إذَا توَجَّهَتْ سَطْوَاتُه إلى القُلوبِ، منَعَهَا أنْ تَسْتَروِحَ إلى وُجودِ التَّدْبيرِ.

والرَّجَاءُ أيضًا كَذلِكَ؛ إذِ الرَّاجِي قَدِ امْتلأَ قَلْبُه فرَحًا بالله، ووَقْتُه مَشْغُولٌ بمُعَامَلَةِ الله تعالى؛ فأيُّ وقْتٍ يَسَعُهُ التَّدبيرُ مع اللهِ تعالى؟!

ويناقِضُ أيضًا مقامَ التَّوكُّلِ، وذلكَ أنَّ المتوكِّل على الله مَنْ ألقَى قِيادَهُ إليهِ، واعْتَمَدَ في كُلِّ أمُورِه عَلَيهِ؛ فمِنْ لازِمِ ذلك: عَدَمُ التَّدبيرِ، والاسْتِسْلَامُ

---

(١) سيِّد الطائفة وإمام الجماعة الجُنيد بن محمَّد أبو القاسم الخزَّاز القواريري، أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق، وكلامه في الحقيقة مشهور مُدوَّن، تفقَّه على أبي ثَوْر وكان يُفتي في حلقته وله من العمر عشرون سنة، وسمع الحديث من الحسن بن عَرَفَة وغيره، واختصَّ بصُحبة السري السَّقَطي والحارث ابن أسد المحاسبي وأبي حمزة البغدادي وغيرهم، وهو من أئمَّة القوم وسادتهم مقبولٌ على جميع الألسنة، شيخ وقته، وفريد عصره في علم الأحوال والكلام على لسان الصوفية، وصحبه أبو العباس ابن سريج الفقيه الشافعي، واستفاد من مجالسته، وله رسائل مطبوعة، منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد والألوهية، ومسائل أخرى، وآثاره كثيرةٌ مشهورةٌ، تُوفي يوم السبت سنة ٢٩٧.

انظر: «طبقات الصوفية» للسُّلميِّ (ص ١٢٩)، و«تاريخ بغداد» للخطيب (٧/ ٢٥٤)، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان (١/ ٣٧٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكيِّ (٢/ ٢٦٠).

لجَرْيانِ المَقَاديرِ. وتَعَلُّقُ إسْقَاطِ التَّدْبيرِ بِمَقَامِ التَّوكُّلِ والرِّضَا أَبْيَنُ مِنْ تَعلُّقه بسَائرِ المَقَامَاتِ.

ويُناقِضُ أيضًا مَقَامَ المَحَبَّةِ؛ إذِ المحِبُّ مُسْتَغرِقٌ في حُبِّ محبُوبه، وتَرْكُ الإرَادةِ معَهُ هِيَ عَيْنُ مَطْلُوبه، وليسَ يتَّسِعُ وقْتُ المحِبِّ للتَّدْبيرِ مَعَ الله؛ لأنَّه قَد شَغَلَه عنْ ذلكَ حُبُّه لله، ولذَلكَ قَالَ بَعْضُهُم: «مَنْ ذَاقَ شَيئًا مِنْ خَالِصِ محبَّةِ الله ألهاهُ ذلكَ عمَّا سِوَاهُ».

ويُناقِضُ أيضًا مقَامَ الرِّضَا، وهُو بَيِّنٌ لا إشْكَالَ فيهِ؛ وذلكَ أنَّ الرَّاضيَ قد اكْتَفَى بسَابقِ تدْبيرِ الله فيه، فكَيفَ يكُونُ مُدَبِّرًا معَهُ وهُوَ قدْ رَضيَ بتدْبيره؟! ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ نُورَ الرِّضَا يَغسِلُ مِنَ القُلُوبِ غُثَاءَ التَّدْبيرِ؟!

فالرَّاضي عنِ الله بَسَطَهُ نورُ الرِّضَا لأحْكَامِهِ، فليسَ لهُ تَدْبيرٌ مَعَ الله، وكفَى بالعَبْدِ حسنُ اخْتِيارِ سَيِّدِه لَه، فافْهَمْ!

***

فصلٌ: [دوافعُ تَرْكِ التَّدْبيرِ]

اعلَمْ أنَّ الَّذي يحملُكَ علَى إسْقاطِ التَّدبيرِ مَعَ اللهِ والاخْتيارِ أمورٌ:

الأوَّلُ: علْمُكَ بسَابقِ تدبيرِ اللهِ فيكَ، وذلكَ أنْ تَعْلَمَ أنَّ اللهَ كانَ لكَ قبلَ أنْ تكُونَ لنَفْسكَ، فكَما كانَ لكَ مُدَبِّرًا قَبْلَ أنْ تكونَ ولا شَيءَ مِنْ تَدْبيرِكَ مَعَهُ، كذلكَ هُوَ سُبْحانَه وتَعَالى مُدَبِّرٌ لكَ بعْدَ وُجُودِكَ، فكُنْ لهُ كما كُنْتَ لهُ، يكُنْ لكَ كَما كانَ لكَ.

ولِذلكَ قالَ الحسَينُ الحلَّاجُ(1): «كُنْ لي كَما كُنْتَ لي، في حِينِ لم أكُنْ»،

(١) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور، من أهل بيضاء فارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب الجنيد وأبا الحسين النوري وعمر المكي وغيرهم، وكان يتكلم على أسرار الناس وما في قلوبهم ويُخبر عنها فسُمِّي بذلك حلاج الأسرار، فصار الحلاج لقبه، وقيل إن أباه كانَ حلَّاجا فنُسب إليه، وقيل غير ذلك. اشتهرت عنه عبارات كانت سببا في تكفير البعض له، حتى قال ابن خلكان: «أفتى أكثر علماء عصرة بإباحة دمه»، وقد اعتذر له حُجَّة الإسلام الغزالي في كتاب «مشكاة الأنوار» فيما صدر عنه مثل قوله: «أنا الحق»، وقوله: «ما في الجبَّة إلا الله» وحملها كلها على محامل حسنة، وأوَّلها، وقال: هذا من فرط المحبة وشدة الوجد وكلام العشَّاق في حال السكر يُطوَى ولا يُحكى. قدم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة فأقام بها سنة في الحجر لا يستظل تحت سقف شتاء ولا صيفا، وكان يصوم الدهر، وكان حسن العبارة، حلو المنطق، وله شعرٌ على طريقة التصوف، وله تصانيف كثيرة منها -كما في فهرست ابن النديم-: «طواسين الأزل»، «حمل النور والحياة والأرواح»، «خلق الإنسان والبيان»، «السياسة والخلفاء والأمراء»، و«الأصول والفروع» و«علم البقاء والفناء»، وغيرها، وأفرده بعض المستشرقين بالتصنيف. قُتل ببغداد يوم الثلاثاء لست بقين من ذي القعدة سنة ٣٠٩. انظر: «تاريخ بغداد» (٨/ ١١٢، رقم ٤٢٣٢)، «طبقات الصوفية» للسلمي (ص٢٣٦، رقم ٥٣)، «الفهرست» لابن النديم (ص ٢٣٦)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٢/ ١٤٠، رقم ١٨٩).

فسَألَ منَ الله أنْ يكُونَ لهُ بالتَّدبيرِ بعدَ وجُودِه، كَما كانَ له بالتَّدبيرِ قَبْلَ وجُودِه، لأنَّه قبلَ وُجُودِ العَبْدِ كَانَ العَبدُ مُدَبَّرًا بعِلْمِ الله، وليسَ هُناكَ للْعَبدِ وُجُودٌ فتقَعُ الدَّعْوى منْه لتَدْبيرِ نَفْسِه، فيقَعُ الخِذْلانُ لأَجْلِ ذلكَ.

فإنْ قُلْتَ: فإنَّه في حِينِ لم يكُنْ عَدمٌ، فكيفَ يتعلَّقُ التَّدْبيرُ به؟ فاعْلَمْ أنَّ للأشْياءِ وُجُودًا في عِلْمِ الله، وإنْ لم يَكُنْ لها وجُودٌ في أعْيانها، فالحقُّ سبحانه وتعالى يتَولَّى تدْبيرَها منْ حَيثُ إنَّها موجُودةٌ في عِلمِه، وفي هَذِه المَسْألةِ غَوْرٌ عَظِيمٌ ليسَ هَذَا المَوْضِعُ محَلًّا لبَسْطِهِ.

بَيانٌ وإعْلامٌ: اعْلَمْ أنَّ الحقَّ سُبْحَانه وتَعَالى توَلَّاك بتَدْبيرِه عَلى جَميعِ أطْوَارِكَ، وقامَ لَكَ في كُلِّ ذلكَ بوجُودِ إبْرازِكَ.

فقَامَ لكَ بحُسْنِ التَّدبيرِ يَوْمَ المقَادِيرِ، يومَ: ﴿ألسْتُ برَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلى﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ومِنْ حُسْنِ تدْبيره لكَ حِينئَذٍ أنْ عرَّفَكَ به فعَرَفْتَه، وتجلَّى لَكَ فشَهِدْتَه، واسْتَنْطَقَكَ وألْهمَكَ الإقْرارَ برُبُوبيَّته فوحَّدْتَه.

ثُمَّ إنَّه جعَلَكَ نُطفةً مُسْتَوْدَعةً في الأصْلابِ، وتوَلَّاكَ بتدْبيرِه هُنا لكَ، حَافظًا لَكَ، وحَافظًا لما أنتَ فيهِ، مُواصِلًا لكَ المدَدَ بواسِطَةِ مَنْ أنْتَ فيهِ مِنَ الآباءِ إلى أبيكَ آدَمَ.

ثُمَّ قذَفَكَ في رَحِمِ الأمِّ، فتوَلَّاك بحُسْنِ التَّدْبيرِ حِينئذٍ، وجَعَلَ الرَّحِمَ قابلةً لكَ أرضًا يكونُ فِيهَا نباتُكَ ومُستودَعًا تُعْطَى فيها حَياتَكَ.

ثُمَّ جَمَعَ بينَ النُّطفتَيْنِ وألَّفَ بينَهُما فكُنْتَ عنهما، لما بُنِيَتْ عليه الحِكْمةُ الإلهيَّةُ مِنْ أنَّ الوجُودَ كُلَّهُ مبنيٌّ على سرِّ الازْدِوَاجِ.

ثمَّ جَعَلَكَ بعدَ النُّطفَةِ عَلَقَةً مُهَيَّأةً لما يُريدُ سُبْحانَه وتَعالى أنْ ينقُلَهَا إليه، ثُمَّ بعْدَ العَلَقَةِ مُضْغَةً، ثُمَّ فتَقَ سبحانه وتَعالى في المضْغَةِ صُورَتَكَ، وأقامَ بنْيَتَكَ، ثُمَّ نفخَ فيكَ الرُّوحَ بعدَ ذلكَ، ثمَّ غَذَّاكَ بِدَمِ الحيْضِ في رَحِمِ الأمِّ فأجْرَى عَليكَ رِزْقَه مِنْ قبلِ أنْ يُخرِجَكَ إلى الوُجُودِ.

ثُمَّ أبقاكَ في رحِمِ الأمِّ حَتَّى قَوِيَتْ أعْضَاؤُكَ، واشْتَدَّتْ أرْكَانُكَ لِيُهَيِّئَكَ إلى البُرُوزِ إلى مَا قَسَمَ لَكَ أوْ عَليكَ، ولِيُبْرِزَكَ إلى دارٍ يتَعَرَّفُ فِيها بفَضْلِه وعَدْلِه إلَيْكَ.

ثُمَّ لَمَّا أنْزَلَكَ إلى الأَرْضِ عَلِمَ سبحانه وتعالى أنَّكَ لا تَستَطِيعُ تَناوُلَ خُشونَاتِ المطَاعِمِ، وَلَيْسَ لكَ أسنَانٌ ولا أرْحَاءُ[1] تَسْتَعِينُ بها عَلى مَا أنتَ طَاعِمٌ، فَأجْرَى الثَّدْيَيْنِ بالغِذاءِ اللطيفِ، وَوَكَّلَ بهما مُسْتَحَثَّ الرَّحْمَةِ في قَلْبِ الأُمِّ، كُلَّما وَقَفَ اللَّبنُ عَنِ البُرُوزِ اسْتَحَثَّتْه الرَّحْمَةُ التِي جَعَلَها لَكَ في الأمِّ مُسْتَحِثًّا لا يَفْتُرُ، ومُسْتَنْهِضًا لا يُقَصِّرُ.

ثُمَّ إنَّه شَغَلَ الأبَ والأُمَّ بتَحْصيلِ مَصَالِحكَ والرَّأْفَةِ عليكَ والنَّظَرِ بعَينِ المَوَدَّةِ منْهُما إليكَ، ومَا هِيَ إلَّا رأفةٌ سَاقَها إليكَ، وإلَى العبادِ في مَظَاهِرِ الآبَاءِ والأمَّهَاتِ، تَعْريفًا بالودَادِ، وفي حقِيقَةِ الأمْرِ ما كَفَلَكَ إلَّا رُبُوبِيَّتُه، ومَا حَضَنَكَ

(١) أي: أضراس، جمع «رحى» وهي الضرس. [الصحاح في اللغة]

إلَّا إلاهيَّتُه. ثمَّ ألزَمَ الأبَ القِيامَ بِكَ إلى حِينِ البُلوغِ، وأوْجَبَ علَيهِ ذلِكَ، رَأْفةً منْهُ بِكَ.

ثَمَّ رفَعَ قلَمَ التَّكْليفِ عَنْكَ إلى أوَانِ تكمُّلِ الأَفْهامِ، وذلكَ عندَ الاحْتِلَامِ، ثُمَّ إلى أنْ صِرْتَ كَهْلًا لم يَقْطَعْ عَنْكَ نَوالًا، ولا فَضْلًا، ثُمَّ إذَا انْتَهَيْتَ إلى الشَّيخُوخَةِ، ثُمَّ إذَا قَدِمْتَ علَيهِ، ثُمَّ إذا حُشِرْتَ إليه، ثُمَّ إذَا أقَامَكَ بَيْنَ يَدَيْه، ثُمَّ إذا سَلَّمَكَ مِنْ عِقَابِه، ثُمَّ إذَا أدْخَلَكَ دارَ ثَوابِه، ثُمَّ إذا كَشَفَ عَنْكَ وُجُودَ حِجَابِه، وأجْلَسَكَ مجلِسَ أوْليائِه وأحْبابِه، قالَ سُبْحانَه وتَعالَى: ﴿إنَّ المتَّقِينَ في جَنَّاتٍ ونَهَرٍ * في مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَليكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

فَلأَيِّ إحْسَانِه تشْكُرُ، وأيَّ آلائِه وأيادِيه تَذْكُرُ؟! واسْمَعْ قَوْلَه تَعالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ﴾ [النحل: ٥٣]، تَعْلَمْ أنَّكَ لم تَخْرُجْ، ولنْ تَخْرُجَ عن إحْسَانِه، ولنْ يَعْدُوَكَ وُجودُ فَضْلِه وامْتِنَانِه.

وإنْ أرَدْتَ البَيانَ في تَقَلُّبَاتِ أطْوَارِكَ فاسْمَعْ ما قَالَهُ سُبْحَانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً في قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فتَبَارَكَ الله أحْسَنُ الخالِقِينَ * ثُمَّ إنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إنَّكُمْ يَوْمَ القِيامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦]، تَبْدُو لَكَ بوارِقُها، وتُبْسَطُ عَلَيْكَ شوارِقُهَا، وفي ذلكَ ما يُلزِمُكَ أيُّها العَبْدُ الاسْتِسْلامَ إليه، والتَّوكُّلَ عليه، ويضْطَّرُكَ إلى إسْقَاطِ التَّدْبيرِ، وعَدَمِ مُنازَعَةِ المَقَادِيرِ. والله المَوفِّقُ.

الثَّاني: أنْ تَعْلَمَ أنَّ التَّدْبيرَ منْكَ لنَفْسكَ جَهْلٌ منْكَ بحُسْنِ النَّظَرِ لها؛ فإنَّ المؤمنَ قدْ عَلِمَ أنَّه إذَا تَركَ التَّدْبيرَ مَعَ الله، كانَ لهُ بحُسْنِ التَّدْبيرِ منْه، لقَوْله تَعالى: ﴿ومَنْ يتَوكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُه﴾ [الطلاق: ٣].

فصَارَ التَّدبيرُ في إسْقَاطِ التَّدْبيرِ، والنَّظَرُ للنَّفْسِ تَرْكَ النَّظرِ لهَا، فافْهَمْ هَهُنَا قَوْلَه تَعَالى: ﴿وَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أبْوَابِها﴾ [البقرة: ١٨٩]، فبَابُ التَّدْبيرِ منَ الله لكَ، هُوَ إسْقَاطُ التَّدْبيرِ منْكَ لنَفْسكَ.

الثَّالثُ: علْمُكَ بأَنَّ القَدْرَ لا يَجْري عَلى حَسْبِ تَدْبيركَ، بلْ أكثَرُ مَا يكُونُ مَا لا تُدَبِّرُ، وأقَلُّ مَا يكُونُ ما أنتَ له مُدَبِّرٌ، والعَاقِلُ لا يَبْني بناءً على غيرِ قرَارٍ، فمَتَى تَتِمُّ مبانِيكَ والأقدارُ تَهْدِمُهَا وعَنِ التَّمامِ تَصُدُّها؟!

شِعْرًا:

مَتَى يَبْلُغُ البُنْيانُ يومًا تَمَـــامَه * إذَا كُنْتَ تَبْنيهِ وغَيرُكَ يَهْدِمُ[1]

وإذَا كَانَ التَّدْبيرُ منْكَ، والقَدَرُ يجري عَلى خِلافِ مَا تُدَبِّرُ، فَما فائدَةُ تَدْبيرٍ لا تنْصُرُهُ الأقْدارُ؟ وإنَّما ينْبَغِي أنْ يكُونَ التَّدْبيرُ لمَنْ بيَدِه أزِمَّةُ المقَادِيرِ، ولذَلكَ قِيلَ شِعْرًا.

ولما رَأيْتُ القَضَا جَاريًا * بلا شَـكٍّ فيهِ وَلَا مِرْيَة
تَوَكَّلْتُ حَقًّا عَلى خَالِقِي * وَألْقَيْتُ نَفْسي مَعَ الجِرْيَة

(١) للشاعر العباسي بشار بن برد.

الرَّابعُ: عِلْمُكَ بأنَّ الله تَعَالى هُوَ المتولِّي لتَدْبيرِ مملَكتِه، عُلْوِّهَا وسُفْلِهَا، غَيْبِهَا وشَهَادَتِها.

وكَما سَلَّمْتَ لَهُ تَدْبيرَه في عَرْشِهِ، وكُرْسِيِّه، وسَماوَاتِه وأرْضِه، فسَلِّمْ لهُ تدْبيرَه في وجُودِكَ إلى هَذِهِ العَوالمِ، فإنَّ نِسْبَةَ وجُودِكَ إلى هذِه العَوالمِ نِسْبةٌ تُوجِبُ تلاشِيَكَ، كَما أنَّ نِسْبةَ السَّمَواتِ السَّبْعِ والأرَضِينَ السَّبعِ بالنِّسْبةِ إلى الكُرْسيِّ كَحَلقَةٍ مُلْقَاةٍ في فَلاةٍ مِنَ الأرْضِ، والكُرسيُّ والسَّمواتُ السَّبعُ والأرَضُونَ السَّبعُ بالنِّسْبةِ إلى العَرْشِ كَالحَلقَةِ المُلْقَاةِ في فَلاةٍ مِنَ الأرْضِ، فماذا عَسَى أنْ تكُونَ أنتَ في مَمْلَكَتِه؟

فاهْتِمامُكَ بأمرِ نفسِكَ، وتدْبيرُكَ لهَا جَهْلٌ مِنْكَ بالله، بَلِ الأمْرُ كَما قالَ سُبْحَانه: ﴿ومَا قَدَرُوا الله حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧].

فَلَوْ أنَّ العَبْدَ عرَفَ ربَّه، لاستحى أنْ يُدَبِّرَ معَه، ولَا قذَفَ بكَ في بَحْرِ التَّدبيرِ إلَّا حَجْبَتُك عَنِ الله، لأنَّ الموقنينَ، لما كُشِفَ عَنْ بصَائرِ قلُوبِهِمْ، شَهِدُوا أنفسَهُم مُدَبَّرِينَ لا مُدَبِّرين، ومُصَرَّفِينَ لا مُتَصَرِّفينَ، ومحرَّكِينَ لا مُتَحَرِّكِينَ.

وكذَلِكَ عُمَّارُ الصَّفِيحِ الأعْلى، مُشَاهِدُونَ لظُهُورِ القُدْرَةِ، ونفُوذِ الإرَادةِ، وتَعلُّقِ القُدْرَةِ بمقْدُورِهَا، والإرَادةِ بمُرادِهَا، والأسْبَابُ مَعْزُولةٌ في مشْهَدِهِمْ، فلذَلِكَ طَهُرُوا مِنَ الدَّعْوَى؛ لما هُمْ عَليهِ مِنْ وُجُودِ المعَاينةِ، وثُبوتِ المَوَاجَهَةِ؛ فلِذَلِكَ قالَ سُبْحَانَه: ﴿إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ ومَنْ عَلَيهَا، وإلَينَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠].

فَفي هَذا تزْكيةٌ للْمَلائكة، وإشَارةٌ إلى أنَّهمْ لم يكُونُوا مَعَ الله مُدَّعِينَ لما خَوَّلهمْ، ولا مُنْتَسبينَ لما نُسبَ إليهِمْ، إذْ لوْ كانَ كَذلكَ لقَالَ: «إنَّا نحنُ نَرِثُ الأرْضَ والسَّماءَ» بل نِسْبَتُهُم إليه، وهَيْبَتُهُم لَه، وَوَلَهُهُم مِنْ عَظَمَتِه مَنَعَهُم أنْ يَرْكَنُوا لشَيءٍ دُونَه. فَكَما سَلَّمْتَ لله تدْبيرَه في سَمائه وأرْضِه، فسَلِّمْ لهُ تدْبيرَه في وجُودِك، ﴿لخَلْقُ السَّمَواتِ والأرْضِ أكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

الخامِسُ: عِلْمُكَ بأنَّكَ مِلْكٌ لله، وليسَ لكَ تَدْبيرُ ما هُوَ لغَيرِكَ، فما ليسَ لَكَ مِلْكُه، ليسَ لَكَ تَدْبيرُه.

وإذَا كُنْتَ أيُّها العَبْدُ، لا تُنازِعُ فِيما تَملكُ، ولا مِلْكَ لكَ إلَّا بتَمْليكِه إيَّاكَ، وليسَ لَكَ مِلْكٌ حقِيقيٌّ، وإنَما هِيَ نِسْبةٌ شَرْعيةٌ، أوْجَبَت المِلْكَ لكَ مِنْ غيرِ شَيءٍ قَائِم بوَصْفِكَ تَسْتَوْجِبُ به أنْ تكُونَ مَالكًا، فأنْ لا تُنازِعَ الله فيما يمْلكُه أوْلَى وأحْرَى، لا سِيَّما وقدْ قَالَ سُبْحَانَه وتَعَالى: ﴿إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المؤْمنينَ أنفُسَهُم وأمْوَالَهم بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فَلا يَنبْغِي لعَبدٍ بَعْدَ المبَايَعَةِ تَدْبيرٌ ولا مُنازَعةٌ؛ لأنَّ مَا بِعْتَه وجَبَ عليكَ تَسْليمُه، وعَدَمُ المنازَعةِ فيهِ، فالتَّدبيرُ فِيهِ نَقْضٌ لعَقْدِ المبايَعَةِ.

ودَخَلْتُ عَلى الشَّيخِ أبي العَبَّاسِ المرْسيِّ[1] -رحمه الله- يومًا، فشَكَوتُ إليه

(١) الشيخ العارف الكبير أبو العباس، أحمد بن عمر بن محمد الأندلسي المرسي الأنصاري، ولد سنة ٦١٦ نزل الإسكندرية، وخلف الشيخ أبي الحسن الشاذلي، صحبه تاج الدين ابن عطاء الله ونقل عنه فوائد، وكان له مجلسٌ عظيمٌ في المعارف والحقائق والرقائق، وكان يقول: هذا الأمر لا يكون إلَّا لواحدٍ بعد واحدٍ، ولا يكون اثنان في الزمان، ومن عجيب حاله أنه ما تسبَّب في الدنيا=

بعضَ أمْري فقَالَ: «إنْ كانَتْ نفْسُكَ لَكَ فاصْنَعْ بِها مَا شِئْتَ، ولنْ تَسْتَطِيعَ ذلكَ أبدًا، وإنْ كانتْ لبَارِئِهَا فسَلِّمْهَا له يَصْنَعْ بِها ما شاء».. ثُمَّ قالَ: «الرَّاحةُ في الاسْتِسْلامِ إلى الله، وتَرْكِ التَّدْبيرِ معَهُ، وهوَ العُبودِيَّة».

قَالَ إبراهيمُ بنُ أدْهَمَ[1] -رحمه الله-: «نِمْتُ ليلةً عَنْ وِرْدي فَاسْتَيْقَظْتُ فَندِمْتُ، فنِمْتُ بَعْدَ ذَلكَ ثلاثَةَ أيَّامٍ عنِ الفَرَائضِ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ سَمِعْتُ هَاتِفًا يقُولُ شِعْرًا:

كُلُّ شَيْءٍ لَكَ مَغْفُـــو * رٌ سِوَى الإعْرَاضِ عَنَّا

قَدْ غَفَرْنَا لَكَ مَا فـــا * تَ بَقِي مَا فَاتَ مِنَّا[2]

ثُمَّ قِيلَ لي يا إبراهِيمُ: كُنْ عَبْدًا، فَكُنتُ عَبْدًا فاسْتَرحْتُ».

=بشيء حتى خرج منها، فقيل له فيه! فقال: سببنا الإيمان والتقوى، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦]. وله كرامات عِدَّة، وكان يقول: والله ما نُطالع كتب القوم إلّا لنرى فضل الله علينا. تُوفي (٦٨٦) ومقامه مشهور يُزار. انظر: «الوافي» للصفدي (٧/ ١٧٣)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (ص ٤١٨)، و«لطائف المنن» لابن عطاء الله.

(١) الإمام العارف، سيِّد الزهاد، أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، كان من أبناء الملوك والمياسير، خرج متصيِّدًا فهتف به هاتف أيقظه من غفلته، فترك طريقته في التزيُّن بالدنيا، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع، خرج إلى مكة وصحب بها سفيان الثوري والفضيل ابن عياض، ودخل الشام فكان يعمل ويأكل من عمل يده، وبها مات، وأسند الحديث عن بعض التابعين، وطلب العلم، ثمَّ استقلَّ بالزهد، وروى عنه بقية بن الوليد وسفيان الثوري وشقيق البلخي وسهل بن هاشم، وغيرهم، ترجمه ابن عساكر في «التاريخ» ترجمةً مطوّلةً، وأخباره وأحواله معروفةٌ مشهورةٌ، ومناقبه جمة، أفردها ابن الحلبي بالتأليف، تُوفي سنة ١٦١، وقيل: (١٦٢)، ودُفن بسوقين حصن ببلاد الروم، وقيل بالشام. انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٧/ ٣٦٧)، و«تاريخ بغداد» (٢١/ ٣١)، و«طبقات الصوفية» للسلمي (ص ٣٥) و«الرسالة القشيرية» (ص ٣٥) و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (٦/ ٢٧٧).

(٢) والمعنى: كل ما يفوت العبد يمكن أن يدرك أو يعفى عنه، إلا أن يفوته الحق.

السَّادِسُ: عِلْمُكَ بأنَّكَ في ضِيَافَةِ الله؛ لأنَّ الدُّنيا دارُ الله، وأنتَ نازِلٌ فِيهَا علَيهِ، ومِنْ حَقِّ الضَّيفِ أنْ لَا يعُولَ هَمًّا مَعَ رَبِّ المنْزِلِ.

قِيلَ للشَّيخِ أبي مَدْيَن -رحمه الله-: يا سَيِّدِي، مَا لنَا نَرى المشَايِخَ يدْخُلُونَ في الأَسْبابِ وأنْتَ لا تدخُلُ فيها؟

فقَالَ: «يا أخِي، أنْصِفُونَا: الدُّنْيَا دارُ الله، ونَحْنُ فيها ضُيوفُه، وقَدْ قَالَ ﷺ: (الضِّيافَةُ ثلاثةُ أيام)(1) فَلَنا عندَ الله ثَلاثَةُ أيامِ ضِيافةٌ، وقَدْ قالَ تَعَالى: ﴿وإنَّ يَوْمًا عِندَ ربِّكَ كَألْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، فَلَنا عندَ الله ثَلاثَةُ آلافِ سنةٍ ضِيافةٌ، مدَّةُ إقَامَتِنا في الدُّنيا مِنْها، وهو مُكْمِلٌ ذَلكَ بِفَضْلِه في الدَّارِ الآخِرَةِ، وزَائِدٌ على ذَلِكَ الخُلودَ الدَّائمَ».

السَّابعُ: نَظَرُ العَبْدِ إلى قَيُّومِيَّةِ الله تَعَالى في كُلِّ شَيءٍ. ألَمْ تَسْمَعْ قَولَه تَعَالى: ﴿الله لَا إلَه إلَّا هُوَ الحيُّ القَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢].

فهُوَ سُبحَانَه وتَعَالى قَيُّومُ الدُّنيا والآخِرَةِ، قَيُّومُ الدُّنْيا بِالرِّزقِ والعَطَاءِ، والآخَرةِ بالأجْرِ والجزَاءِ.

فإذَا عَلِمَ العَبدُ قَيُّومِيَّةَ ربِّه به، وقِيَامَهُ عليه، ألْقَى قِيادَهُ إليهِ، وانْطَرَحَ بالاسْتِسْلَامِ بَيْنَ يدَيْهِ، فألْقَى نفْسَه بَيْنَ يَدَيْ رَبِّه مُسَلِّمًا؛ ناظِرًا لما يَرِدُ عَلَيهِ مِنَ الله حُكْمًا.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٠١٩)، ومسلمٌ (٤٨)، وغيرهما من حديث أبي شريح العدوي مرفوعًا.

الثَّامنُ: هُوَ اشْتِغَالُ العَبدِ بوَظَائفِ العُبُودِيَّة التي هِيَ مُغَيَّاةٌ بالعُمْرِ[1]، لِقَولِه: ﴿واعْبُدْ ربَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ اليَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فإذَا توجَّهَتْ هِمَّتُه إلى رِعَايَةِ عبودِيَّتِه شَغَلَهُ ذلِكَ عنِ التَّدْبيرِ لنَفْسِه والاهْتِمام لهَا.

قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ -رَحِمَه الله تعالى-: «اعْلَمْ أنَّ للهِ تَعَالَى عَلَيْكَ في كُلِّ وقْتٍ سَهْمًا في العُبودِيَّة، يقْتَضيهِ الحقُّ -سُبْحَانَه وتَعَالى- منكَ بحُكْمِ الرُّبُوبيَّةِ، والعُبدُ مُطَالَبٌ بذلِكَ كُلِّه، ومَسئُولٌ عنه، وعَنْ أنفَاسِه الَّتي هيَ أمانَةُ الحقِّ عِندَهُ، فأيْنَ الفَراغُ لأُولي البَصَائرِ عنْ حُقُوقِ الله حتَّى يُمْكِنَهُمُ التَّدْبيرُ لأنفُسِهِمْ، والنَّظَرُ في مَصَالحِهَا باعْتِبارِ حُظُوظِهَا ومآربِهَا، ولا يَصِلُ أحَدٌ إلى مِنَّةِ الله إلا بغَيبتِه عنْ نَفْسِه، وزُهْدِه فِيهَا، مَصْروفَةً هِمَّتُه إلى مَحابِّ الله تَعَالى، مُتَوفِّرَةً دَواعِيهِ على مُوَافقَتِه، دائبًا عَلى خِدْمَتِه ومُعَامَلَتِه».

فبِحَسَبِ غَيْبَتِكَ عَنْ نفْسِكَ، فناءً عنها، يُبقِيكَ اللهُ به، لِذَلِكَ قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ: «أيُّها السَّابقُ إلى سَبيلِ نَجَاتِه، الشَّائقُ إلى حَضْرَةِ جَنابِه، أقْلِلِ النَّظرَ إلى ظَاهِرِكَ، إنْ أرَدْتَ فَتْحَ بَاطِنِكَ لأسْرارِ مَلَكُوتِ ربِّكَ».

التَّاسِعُ: وهُوَ أنَّكَ عَبدٌ مَرْبوبٌ، وحقُّ العَبدِ أنْ لا يعُولَ هَمًّا مَعَ سيِّدِه، معَ اتِّصَافِه بالإفْضَال، وعَدَمِ الإهْمالِ، فإنَّ رُوحَ مَقَامِ العُبوديَّة: الثِّقَةُ باللهِ، والاسْتِسْلامُ إلى الله تَعَالى، وكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُما يُناقِضُ التَّدْبيرَ مَعَ الله تَعَالى والاخْتِيارَ مَعَهُ.

(١) أي: غايتها ونهايتها العمر.

بلْ عَلى العَبْدِ أنْ يقُومَ بِخِدْمَتِه، والسَّيِّدُ يقُومُ له بِمِنَّتِه، وعَلى العَبْدِ القِيامُ بالخِدْمةِ، والسَّيِّدُ يقُومُ له بوجُودِ القِسْمَةِ، فافْهَمْ قَولَه تَعالى: ﴿وأْمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ علَيْها لا نَسْألُكَ رِزْقًا، نَحنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، أيْ: قُمْ بِخِدْمَتِنا، ونَحْنُ نقُومُ لَكَ بإيصَال قِسْمَتِنا.

العَاشِرُ: عَدَمُ عِلْمِكَ بعَواقِبِ الأُمُورِ، فرُبَّما دَبَّرْتَ أمْرًا ظَنَنْتَ أنَّه لكَ، فكَانَ عَلَيكَ، ورُبَّما أتَتِ الفَوائِدُ مِنْ وُجُوهِ الشَّدائِدِ، والشَّدَائدُ مِنْ وُجُوهِ الفوائِدِ، والأضْرَارُ مِنْ وُجُوهِ المَسَارِّ، والمَسَارُّ مِنْ وُجُوهِ الأضْرارِ، ورُبَّما كَمَنَتِ المِنَنُ في المِحَنِ، والمِحَنُ في المِنَنِ، ورُبَّما انْتَفَعْتَ عَلى أيْدي الأعْدَاءِ، وأُرْديتَ على أيدِي الأحْبابِ.

فإذَا كانَ الأمْرُ كَذَلكَ؛ فكَيفَ يُمْكِنُ عَاقِلًا أنْ يُدَبِّرَ مَعَ الله، ولا يَدْرِي المَسَارَّ فَيأتِيَها، ولا المضَارَّ فيَتَّقِيَها؟!

ولِذلِكَ قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رحمه الله: «اللَّهُمَّ إنَّا قَدْ عَجَزْنا عَنْ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْ أنفُسِنَا مِنْ حَيْثُ نَعْلَمُ بِما نَعْلَمُ، فَكَيفَ لا نَعجِزُ عَنْ ذلِكَ مِنْ حَيثُ لا نَعْلَمُ، بِما لا نَعْلَمُ».

ويَكْفِيكَ قَولُه تَعالى: ﴿وعَسَى أنْ تكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيرٌ لَكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لكُمْ والله يَعْلَمُ وأنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَكَمْ مرَّةٍ أرَدْتَ أيُّها العَبْدُ أمْرًا فَصَرَفَه عَنْكَ فوَجَدْتَ لِذلكَ غَمًّا في قَلْبِكَ،

وحَرَجًا في نَفْسِكَ، حتَّى إذَا كَشَفَ لَكَ عَنْ عَاقِبَةِ ذَلِكَ عَلِمْتَ أنَّه -سُبْحَانه- نَظَرَ لكَ بِحُسْنِ النَّظَرِ مِنْ حَيْثُ لا تَدْرِي، وخَارَ لَكَ مِنْ حَيثُ لا تَعْلَمُ، وما أقْبَحَ مُرِيدًا لا فَهْمَ لَه، وعُبَيْدًا لا اسْتِسْلامَ له، فكُنْ كما قِيلَ[1]:

وَكَمْ رُمْتُ أمْرًا خِرْتَ لي في انْصِرَافِه * فَلا زِلْتَ بِي مِنِّي أبرَّ وَأرْحَمَا
عَزَمْتُ عَلى ألَّا أُحِسَّ بِخَاطِرٍ * عَلى القَلْبِ إلَّا كُنْتَ أنْتَ المقَدَّمَا
وأنْ لَا تَرَانِي عِنْدَ مَا قَد نَهَيْتَنِي * لِكَوْنِك في قَلْبِي كَبِيرًا مُعَظَّمَا

ويُحْكَى أنَّ بَعْضَهُمْ كانَ إذا أُصِيبَ بِشيءٍ أو ابتُلِيَ به يقولُ: «خِيرَةٌ»، فاتُّفِقَ ليلةً أنْ جَاءَ ذِئبٌ فأكَلَ دِيكًا لهُ، فقِيلَ لَهُ به، فقَالَ: «خِيرَةٌ». ثُمَّ ضُرِبَ في تِلْكَ اللَّيلةِ كلْبُه فماتَ، فقِيلَ له، فقَالَ: «خِيرَةٌ». ثُمَّ نَهَقَ حِمارُهُ فماتَ، فقَالَ: «خِيرَةٌ»، فضَاقَ أهْلُهُ بكَلامِهِ هَذَا ذَرْعًا، فاتُّفِقَ أنْ نَزلَ بهم في تِلْكَ اللَّيلةِ عَرَبٌ أغارُوا عَلَيهِمْ، فقَتَلُوا كُلَّ مَنْ بالمحِلَّةِ، ولم يَسْلَمْ غيرُه وأهلُ بَيْتِه.

استَدَلَّ العَرَبُ النَّازِلُونَ عَلى النَّاسِ، بِصِيَاحِ الدِّيكِ ونُباحِ الكَلْبِ ونَهِيقِ الحِمارِ، وهُوَ قَدْ ماتَ لَه كُلُّ ذلكَ، فكَانَ هَلاكُ هَذه الأشْياءِ سَبَبًا لِنَجَاتِه، فسُبْحَانَ المدَبِّرِ الحكِيمِ.

---

(١) لأبي الحسين أحمد بن محمد النوري البغوي البغدادي، أحد أئمة الصوفية، شاعر، أصله من خراسان، بغدادي المولد والمنشأ، صحب السري السقطي وابن أبي الحواري، وكان من أقران الجنيد (٢٩٨هـ). مات سنة خمس وتسعين ومائتين (٢٩٥هـ)، وكان كبير الشأن، حسن المعاملة واللسان. قال الجنيد عنه: منذ مات النوري لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد. وقال أبو أحمد المغازلي: ما رأيت أعبد من أبي الحسين النوري، قيل له: ولا الجنيد؟ قال: ولا الجنيد.

وإنَّ العَبدَ لا يَشْهَدُ حُسْنَ تدْبيرِ الله، إلَّا إذَا انْكَشَفَتْ له العَواقِبُ، وليْسَ هَذا مِنْ مَقَام أهْلِ الخصُوصِ في شَيءٍ؛ لأنَّ أهْلَ الفَهْم عنِ الله شَهِدُوا حُسْنَ تدْبيرِ الله قَبْلَ أنْ تَنكَشِفَ لهم العَوَاقِبُ، وهُمْ في ذَلِكَ عَلى أقْسَام ومَرَاتِبَ:

فمِنْهُمْ مَنْ حَسُنَ ظَنُّهُ بالله فاسْتَسْلَمَ له لما عَوَّدَهُ مِنْ جَمِيلِ صُنْعِه، ووُجُودِ لُطْفِه.

ومِنْهُمْ مَنْ حَسُنَ ظَنُّه بالله عِلْمًا منهُ أنَّ الاهْتِمامَ والتَّدْبيرَ والمنَازَعَةَ، لا تَدْفَعُ عنهُ مَا قُدِّرَ عَلَيهِ، وَلا تَجْلِبُ لَه مَا لمْ يُقْسَمْ لَه.

ومِنْهُم مَنْ حَسَّنَ الظَّنَّ بالله تَعَالى لِقَولِه ﷺ حَاكيًا عَنْ ربِّه: (أنَا عِنْدَ ظَنِّ عبْدِي بي)[1]، فكَانَ مُتَعَاطِيًا بحُسْنِ الظَّنِّ بالله وأسْبَابه، رَجَاءَ أنْ يُعَامَلَ بِمثْلِ ذَلِكَ، فيكُونُ الله لَه عِندَ ظَنِّه. ولقَدْ يَسَّرَ الله لِلْمُؤمِنينَ سَبيلَ المنَنِ إذْ كَانَ عِنْدَ ظُنُونِهِم: ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وأرْفَعُ مِنْ هَذه المرَاتِبِ كُلِّهَا، الاسْتِسْلامُ إلى الله تَعَالى والتَّفْويضُ لَه، بما يَسْتَحِقُّه الحقُّ مِنْ ذلِكَ، لا لأمْرٍ يَعُودُ على العَبْدِ؛ فإنَّ المرَاتِبَ:

الأَوَّلَ لم تُخرِجِ العَبدَ عَنْ رِقِّ العِلَلِ؛ إذْ مَن اسْتَسْلَمَ له بحُسْنِ عَوائِدِه فاسْتِسْلامُه مَغلولٌ بعَوائدِ الألْطَافِ السَّابِقَةِ، فلَوْ لَمْ تكُنْ لم يكُنْ اسْتِسْلامُه.

---

(١) متفقٌ عليه؛ ومخرَّج في الصحيحين في عدَّة مواضع، منها ما أخرجه البخاريُّ (٧٤٠٥)، ومسلمٌ (٢٦٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والثَّاني أيضًا كَذلكَ؛ لأنَّ تركَ التَّدبيرِ مَعَ الله لكَوْنه لا يُجْدي شَيئًا ليسَ هُوَ تركًا لأَجْلِ الله؛ لأنَّ هَذا العَبْدَ لوْ عَلِمَ أنَّ تَدْبيرَهُ يُجْدي شَيئًا فَلعَلَّه كانَ غيْرَ تَارِكٍ لِلتَّدْبيرِ.

وأمَّا الذِي اسْتَسْلَمَ إلى الله تَعَالى، وحَسَّنَ ظَنَّه به لِيكُونَ لَه عنْدَ ظَنِّه، فَهُو إنَّما يَسْعَى في حَظِّ نَفْسه، مُشْفِقًا عَلَيهَا أنْ يفُوتَها الفَضْلُ بِعدُولِه عَنِ الاسْتِسْلامِ وحُسْنِ الظَّنِّ بِالله.

ومَن اسْتَسْلَمَ إلى الله، وَحَسُنَ ظَنُّهُ به لما هُوَ عَلَيه مِنْ عَظَمَةِ الإلاهِيَّةِ، ونُعُوتِ الرُّبُوبيَّة، فهَذَا هُوَ العَبدُ الذِي دُلَّ عَلى حقيقَةِ الأمْرِ، وحَرِيٌّ أنْ يَكُونَ هَذا مِنَ الذينَ قالَ رسُولُ الله ﷺ فِيهِم: (إنَّ لله عِبَادًا، التَّسْبيحَةُ الواحِدةُ مِنْهُم مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ)[1].

ولقَدْ عَاهَدَ الله سُبْحانَه وتَعَالى العِبادَ أجْمعَ، عَلى إسْقَاطِ التَّدْبيرِ مَعَه، بِقَوْلِه تَعَالى: ﴿وإذْ أخَذَ ربُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِم ذُرِّيَّاتِهِمْ[2] وأشْهَدَهُم عَلَى أنفُسِهِمْ ألسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢]؛ لأنَّ إقْرارَهُم بأنَّه ربُّهم، يَسْتَلْزِمُ ذلكَ إسْقَاطَ التَّدْبيرِ مَعَهُ، فهَذه مُعَاقَدَةٌ كَانتْ قبلَ أنْ تكُونَ النَّفسُ -التِي هيَ مَحَلُّ الاضْطِرابِ- المدَبِّرةُ معَ الله تعَالى.

---

(١) ذكره الحكيم الترمذيُّ معلَّقًا في «نوادر الأصول» (المسندة ٢/ ٧١٦) عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ أنه نظر إلى جبل أحد فقال: (رُبَّ رجلٍ من أمَّتي يعدل الحرفُ الواحد مِن تسبيحه هذا الجبل).

(٢) قرأ «ذرياتهم» بالجمع نافع المدني وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب وأبو جعفر، وقرأ «ذريتهم» بالإفراد ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر.

ولوْ بقِيَ العَبدُ على تلْكَ الحالةِ الأُولى التِي هِيَ كشْفُ الغِطَاءِ ووُجُودُ الحضْرَةِ، لما أمكَنَهُ أنْ يُدبِّر مَعَ الله تعالى.

فَلمَّا أُسْدِلَ الحِجَابُ وقَعَ التَّدبيرُ والاضْطِّرابُ؛ فلأَجْلِ ذلكَ، أهْلُ المعْرِفَةِ بالله المشَاهِدونَ لأسْرَارِ الملكُوتِ، لا تدْبيرَ لهُمْ مَعَ الله؛ إذْ وجُودُ المواجَهَةِ أبَى لهُمْ ذلِكَ، وفَسَخَ عَزَائِمَ تَدْبيرِهِمْ، وكيفَ يُدَبِّرُ مَعَ الله عَبدٌ هُوَ في حَضْرَتِه، وُمشَاهِدٌ لِكِبريَاءِ عَظَمَتِه!!

***

بيان وبال التدبير من خلال قصة آدم عليه السلام

فائدةٌ: اعْلَمْ أنَّ التَّدْبيرَ والاخْتِيارَ، ويَالُهُ عَظِيمٌ، وخَطَرُهُ جَسِيمٌ، وذَلِكَ أنَّا نَظَرْنَا فَوَجَدْنا أنَّ آدمَ عليه السلام إنَّما حَمَلَهُ عَلى أكْلِ الشَّجَرةِ تَدْبيرُه لنَفْسِه، وذَلِكَ أنَّ الشَّيطانَ قَالَ لآدَمَ وحَوَّاءَ عليهما السلام -كَما قَالَ الله تَعالَى-: ﴿وَقَالَ مَا نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرةِ إلَّا أنْ تكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

ففَكَّر آدمُ عليه السلام في نَفْسِه، فعَلِمَ أنَّ الخُلودَ في جِوَارِ الحبيبِ هُوَ المطْلوبُ الأسْنَى، وانتِقَالُه مِنَ الآدَمِيَّةِ إلى وَصْفِ الملَكيَّةِ إمَّا أنْ يكُونَ لأنَّ وصْفَ الملَكيَّةِ أفضَلُ، أوْ ظَنَّ آدمُ عليه السلام أنَّ ذَلكَ أفْضَلُ.

فَلمَّا دبَّرَ عليه السلام في نَفْسه هذَا التَّدْبيرَ، أكَلَ مِنَ الشَّجرةِ فَما أُتِيَ إلَّا مِنْ عَينِ وجُودِ التَّدْبيرِ، وكانَ مُرادُ الحقِّ منه ذَلكَ ليُنزِلَه إلى الأرْضِ، ويَسْتَخْلِفَه فيها، فكَانَ هُبُوطًا في الصُّورَةِ، وترَقِّيًا في المعْنَى.

ولذَلكَ قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحمَه الله: «والله مَا أنْزَلَ الله آدمَ إلى الأرْضِ، ليُنقصَه، وإنَّما أنزَلَه إلى الأرْضِ ليُكمِّلَه». فلَمْ يزَلْ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ راقيًا إلى الله تَعالى: تارَةً على مِعْراجِ التَّقْريبِ والتَّخْصيصِ، وتَارةً على مِعْراجِ الذِّلَّةِ والمسْكَنةِ، وهُوَ في التَّحْقيقِ أتَمُّ.

ويجِبُ على كُلِّ مُؤْمنٍ أنْ يَعْتَقِدَ أنَّ النَّبيَّ والرَّسُولَ، لا ينْتَقلَان منْ حَالةٍ إلَّا إلى حَالةٍ أكْمَلَ منْها. وافْهَمْ هَهُنا قَولَه سُبْحانَه وَتَعالى: ﴿وللآخِرَةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى﴾ [الضحى: ٤]. قالَ ابنُ عَطِيَّة[1]: «ولَلْحالةُ الثَّانيةُ، خَيرٌ لكَ مِنَ الأُولَى».

وإذْ قدْ عَرَفْتَ هَذا فاعْلَمْ أنَّ الحقَّ سُبْحَانه وتَعالى لهُ التَّدْبيرُ والمشيئةُ وكَانَ قدْ سَبَقَ منْ تَدْبيرِ مَشيئَته أنَّه لا بُدَّ أنْ يَعْمُرَ الأرْضَ ببَني آدَمَ، وأنْ يكُونَ منْهُم كَما شَاء منْهُمْ محُسنٌ وظَالمٌ لنفْسه مُبينٌ. وَكَانَ منْ تدْبيرِ حِكْمَته: أنْ لا بُدَّ منْ تَمامِ ذلكَ، وظُهُورِه إلى عالمِ الشَّهادَةِ، فأرادَ الحقُّ سُبحَانَه أنْ يكُونَ تَناوُلُ آدم للشَّجَرَةِ سببًا لنُزُولِه إلى الأرْضِ، ونُزولُه إلى الأرْضِ سَبَبًا لظهُورِ مَرْتَبةِ الخلافَةِ التي مَنَّ عَليه بها. ولَذلكَ قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أكْرِمْ بِها مَعْصيةً أوْرَثَتِ الخلافَةَ، وسَنَّتِ التَّوبَةَ لمنْ بعدَهُ إلى يَومِ القِيامَةِ».

(١) الإمام العلامة، شيخ المفسِّرين، أبو محمد عبد الحق بن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، ولد سنة ٤٨٠، حدَّث عن أبيه الحافظ الحجَّة أبي بكر، وعن أبي علي الغساني، ومحمد بن الفرج الطلاعي وخلائق، وكان فقيهًا عارفًا بالأحكام والحديث والتفسير بارعًا في الأدب، ذا ضبط وتقييد وتجويد من كتبه «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تُوفي خامس عشر من رمضان سنة ٥٤٢ بحصن لورقة. انظر «السير» للذهبي (١٤/ ٤٠١)، و«طبقات المفسرين» للسيوطي (١/ ٦٠، ٦١).

وكانَ نزولُه إلى الأرْضِ بحُكْمِ قضاءِ الله تعالى قبلَ أنْ يخلُقَ السَّمواتِ والأرْضَ[١]. قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رضي الله عنه: «والله لقدْ أنزَلَ آدمَ إلى الأرْضِ قبلَ أنْ يخلُقَهُ كما قالَ سُبْحانه: ﴿إنِّي جاعِلٌ في الأرْضِ خليفةً﴾ [البقرة: ٣٠].

فمِنْ حُسْنِ تَدْبيرِ الله تعالى لآدَمَ، أكْلُه مِنَ الشَّجَرَةِ، ونُزُولُه إلى الأرْضِ، وإكرَامُ الله تعالى إيَّاهُ بالخلافةِ والإمَامَةِ.



وإذْ قَدِ انْتَهى بنا المقالُ إلى هَهُنَا، فَلْنَتْبعِ الفوائدَ والخصَائصَ التي مُنِحَها آدمُ عليه السلام في هذه الواقِعَةِ؛ لنَعْلَمَ أنَّ لأهْلِ الخصُوصِ مَعَ الله حَالًا لَيْسَتْ لمن سِواهُمْ، ولله فيهِمْ تدْبيرٌ لا يَتوجَّهُ بِه لما عدَاهُم.

فَفِي أكْلِ آدَمَ مِنَ الشَّجرةِ، ونُزُولِه إلى الأرْضِ فوائدُ مِنْهَا:

أنَّ آدَمَ وحَوَّاءَ عليهما السلام كَانَا في الجنَّة مُتعرَّفًا إليهما بالرِّزْقِ والعَطاءِ، والإحْسَانِ والنَّعْماءِ، فأرادَ الحقُّ سُبْحَانه وتَعَالَى، مِنْ خَفِيِّ لُطْفِه في تَدْبيرِه أنْ يأكُلَا مِنَ الشَّجرةِ، ليتَعرَّفَ لهُما بالحِلْمِ والسَّترِ والمغفِرَةِ والتَّوبَةِ والاجْتِبائيَّةِ.

---

(١) وهذا يفسر ما حكي من محاجة آدم لموسى عليه السلام. روى البخاري في صحيحه [كتاب القدر، باب تحاج آدم وموسى عند الله]، ومسلم في صحيحه [كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فقال النبي ﷺ: فحج آدم موسى فحج آدم موسى).

أمَّا الحِلْمُ: فلأنَّه لم يُعَاجِلْهُما بالعُقُوبَةِ حينَ فَعَلا؛ والحليمُ هوَ الذي لا يُعاجِلُ بالعُقُوبةِ عَلى ما صَنَعْتَ، بلْ يُمْهِلكَ: إمَّا إلى عَفْوه وإنْعَامِه، وإمَّا إلى سَطْوتِه وانْتِقَامِه.

الثَّاني: هُو أنَّ الله سُبْحانَه وتَعالَى تعرَّف لَهُما بالسَّتْرِ، وذلكَ أنَّهما لما أكَلا منْها، وَبدَتْ لهُما سَوآتُهما بزَوَالِ مَلابسِ الجنَّةِ، سَتَرهُمَا بورَقِها، كَما قَالَ الله تعالى: ﴿وطَفِقَا يَخْصِفَانِ علَيهِما مِنْ وَرَقِ الجنَّة﴾ [الأعراف: ٢٢، طه: ١٢١] فكَانَ ذلكَ مِنْ وجُودِ سَتْرِه.

الثَّالثُ: هُوَ أنَّه أرادَ الحقُّ سُبحانَه وتَعالَى أنْ يُعْلِمَه باجْتِبائِه له، وينْشَأ عَنِ اجْتِبائِه مقَامانِ: التَّوبةُ إليه، والهِدايةُ مِنْ عِندِه.

فأرادَ الحقُّ سُبْحانَه، أنْ يُعَرِّفَ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ باجْتِبائِه له، وسَابقِ عِنايتِه فيه، فقَضَى عليه بأكْلِ الشَّجَرةِ، ثُمَّ لم يَجعلْ أكْلَه إيَّاها سَبيلًا لإعْراضِه عَنْه، ولا لقَطعِ مَدَدِهْ منه، بَلْ كَانَ في ذَلك إظْهارٌ لوُدِّهِ سُبحانَه وتَعَالى فيه، وعِنايتِه به، كما قَالوا: «مَنْ سَبقَتْ له العِنايةُ، لم تضرهُ الجنايةُ»، و«رُبَّ وُدٍّ تقْطَعُه المخَالفَةُ»، والوُدُّ الحقِيقيُّ: هو الذِي يدُومُ لكَ مِنَ الوَادِّ لكَ مُوافِقًا كُنْتَ أو مُخالِفًا.

وليسَ في قوْلِه تَعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ ربُّه﴾ دليلٌ عَلَى حُدُوثِ اجْتِبائِيةِ الحقِّ فيه، بلْ كانَ قبلَ وجُودِه، وإنَّما الَّذي حَدَثَ بَعْدَ الذَّنب ظُهورُ أثَرِ الاجْتِبائيَّة مِنَ الله لَه، فهُو الَّذي قَال فِيه الحقُّ -سُبحَانه وتَعَالى-: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّه﴾، أيْ: أظْهَرَ له أثَرَ الاجْتِبائيَّةِ فيه، والعِنايةِ بهِ بتَيَسُّرِه للتَّوبَةِ إليه، والهدايةِ مِنْ عندِه.

فصَارَ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ ربُّه فتَابَ عَليه وهَدَى﴾ [طه: ١٢٢] تعْريفاتٌ ثلاثةٌ: الاجْتِبائيةُ، والتَّوبَةُ الَّتي هِيَ نتيجَتُهَا، والهُدَى الذِي هُوَ نتِيجَةُ التَّوبةِ، فافْهَمْ.

ثُمَّ أنزَله إلى الأرْضِ فتَعَرَّفَ له بحِكْمتِه كما تَعرَّفَ له في الجنَّة ببَواهِرِ قُدْرَتِه، وذَلِكَ؛ لأنَّ الدُّنْيا مَحلُّ الوَسَائطِ والأسْبابِ، فلَمَّا نزَلَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى الأرْضِ عُلِّمَ الحِراثَةَ، والزِّراعةَ، ومَا يَحتاجُ إليه منْ أسبابِ عِيشَتِه ليُحقِّقَه الله تعالى بما أعْلَمَه بِه مِنْ قبلِ أنْ ينْزِلَ بقَولِه: ﴿فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الجَنَّةِ فتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

والمرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فتَشْقَى﴾ تَعَبُ الظَّواهِرِ، لا الشَّقَاوَةُ التي هِيَ ضِدُّ السَّعَادةِ. والدَّليلُ على ذلِكَ قولُه تعالى: ﴿فتَشْقَى﴾ ولم يَقُلْ «فتَشْقَيَا»؛ لأنَّ المتاعبَ والكُلَفةَ إنَّما هِيَ على الرِّجَال دُونَ النِّسَاءِ، كَما قَالَ تَعالى: ﴿الرِّجالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ، بما فَضَّلَ الله﴾ [النساء: ٣٤]. ولوْ كَانَ المرادُ شَقَاءً بالقَطِيعَةِ، أوْ وجُودِ الحجْبَةِ لقَالَ: «فتَشْقَيَا» فدَلَّ الإفرادُ عَلى أنَّه ليْسَ الشَّقَاءُ هُنا بقَطِيعَتِه ولا إبْعَادِهِ مَعَ أنَّه لوْ وَرَدَ كَذَلِكَ لحمَلْناهُ على الظَّنِّ الجَمِيلِ وأرْجَعْنَاهُ إلى المتَاعِبِ الظَّاهِرَةِ على التَّأويلِ.



فائدَةٌ جَليلةٌ: اعْلَمْ أنَّ أكلَه عَلَيْهِ السَّلَامُ للشَّجَرَة لم يكنْ عِنادًا ولا خِلافًا، فإمَّا أنْ يكُونَ نَسِيَ الأمرَ فتَعَاطى الأكْلَ وهوَ له غيرُ ذَاكِرٍ، وهُو قَوْلُ بعْضِهِم، ويُحْمَلُ

عَليهِ قولُه تعالى: ﴿ولقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. أوْ إنْ كَانَ تَنَاوَلَه ذَاكرًا للأَمْرِ، فهُوَ إنَّما تناوَلَه لأنَّه قِيلَ لَهُ: ﴿مَا نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هَذه الشَّجَرَةِ إلَّا أنْ تكُونَا مَلَكَيْنِ أوْ تكُونَا مِنَ الخَالِدِين﴾ [الأعراف: ٢٠]، فَلِحُبِّه فِي الله، وشَغَفِه به أحَبَّ مَا يُؤَدِّيه إلى الخُلودِ في جُوارِه، والبَقاءِ عندَهُ، أوْ مَا يُؤَدِّيه إلى الملَكيَّة؛ لأنَّ آدَمَ ﷺ عَايَنَ قُرْبَ الملَكيَّةِ مِنَ الله، فأحَبَّ أنْ يأكُلَ مِنَ الشَّجَرةِ لِينَالَ رُتْبَةَ الملَكيَّةِ التي هِيَ أفْضَلُ، أو التي هِيَ فِي ظَنِّه كَذلِكَ، على اخْتِلافِ أهْلِ العِلْمِ وأهْلِ المعْرفةِ أيْضًا أيُّهما أفضَلُ: الملَكيةُ أم النُّبوةُ؟

لا سِيَّما وقدْ قالَ -سُبْحَانه وتَعَالى-: ﴿وقَاسَمَهُما إنِّي لَكُما لمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. قالَ آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَا ظَنَنْتُ أنَّ أحَدًا يحْلِفُ بالله كَاذِبًا»[1]، فكَانَ كَما قَالَ تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢].

***

فائدةٌ: اعْلَمْ أنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكُنْ لشَيءٍ ممَّا كَانَ يأكُله أذًى، بلْ كَانَ رَشْحًا كَرَشْحِ المِسْكِ، كما يكُونُ أهْلُ الجنَّةِ في الجنَّةِ، إذَا دَخَلُوهَا، لَكنَّه لَمَّا أكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ المنْهِيِّ عنْهَا، أخَذَتْه بَطْنُه، فقِيلَ لَهُ: يَا آدَمُ أيْنَ؟! عَلى الأسِرَّةِ، أمْ عَلى الحِجَالِ، أمْ عَلَى شَاطِىءِ الأنْهارِ؟! انْزِلْ إلى الأرْضِ التِي يُمْكِنُ ذلكَ فِيهَا. فإذَا كَانَ مَا بِه المعْصيةُ وصَلَتْ إلَيه آثارُهَا، فَكَيفَ لا تُؤَثِّرُ المعْصيةُ في الفَاعِلِ بِها، فافْهَمْ.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرقة والبكاء» (٣٢٨) عن مجاهد من قول حواء، قالت: «يا آدمُ، ما ظننتُ أحدًا يحلف بالله كاذبًا».

تنبيه واعتبار: اعْلَمْ أنَّ كُلَّ شَيءٍ نَهى اللهُ عَنه، فهُو شَجَرةٌ، والجنَّةُ هيَ حَضْرةُ الله، فيُقَالُ لآدم قَلبكَ، ولِحوَّاء نَفْسكَ: ﴿ولا تقْربَا هذِه الشَّجَرَةَ فتكُونَا مِنَ الظَّالمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

لَكِنَّ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ محفُوفٌ بالعِنايةِ، لمَّا أكَلَ مِنَ الشَّجرةِ أُنْزلَ إلى الأرْضِ، للخَلَافَةِ، وأنْتَ إذا أكَلْتَ مِنْ شَجَرةِ النَّهْيِ أُنزِلْتَ إلى أرْضِ القَطِيعَةِ، فافْهَمْ!

فإنْ تَناوَلْتَ شَجَرَةَ النَّهْيِ، أُخْرِجْتَ مِنَ جنَّةِ الموافَقَة، إلى وجُودِ أرْضِ القَطِعَيةِ، فيَشْقَى قَلبُكَ، وإنَّما يُلاقِي الشَّقَاءَ وقْتَ القَطِيعةَ القلْبُ لا النَّفْسُ، لأنَّ وقتَ القَطِيعَةِ يكُونُ فيهِ مُلائِماتُ النُّفُوسِ مِنْ مَلْذُوذاتِها وشَهَواتِها، وانْهِماكِهَا في غَفْلاتِها.

***

تَرْتِيبٌ وبَيَانٌ:

اعْلَمْ أنَّ الله تَعَالى تَعَرَّفَ لآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالإيجَادِ، فنَادَاهُ: «**يا قَدِيرُ**»،
ثمَّ تعَرَّفَ لهُ بتَخْصِيص الإرَادَة، فنادَاهُ: «**يا مُرِيدُ**»،
ثُمَّ تعَرَّفَ لَه بحُكْمِه في نَهْيِه عَنْ أكْلِ الشَّجَرَة، فنَادَاه: «**يا حَاكِمُ**»،
ثُمَّ قَضَى عليه بأكْلِهَا، فنَاداه: «**يا قَاهِرُ**»،
ثُمَّ لم يُعَاجِلْه بالعُقُوبةِ إذ أكَلَهَا، فنَادَاهُ: «**يا حَلِيمُ**»،
ثُمَّ لم يفْضَحْهُ في ذَلكَ فنادَاهُ: «**يا سَتَّارُ**»،
ثُمَّ تَابَ عليه بَعْدَ ذلكَ، فنادَاهُ: «**يا تَوَّابُ**»،

ثُمَّ أشْهَدَهُ أنَّ أكْلَهُ مِنَ الشَّجَرةِ لم يَقْطَعْ عنْه وُدَّهُ فيه، فنَادَاهُ: **«يا وَدُودُ»**،

ثُمَّ أنْزَلَهُ إلى الأرْض، ويَسَّرَ له أسْبَابَ المعِيشَةِ، فنَادَاهُ: **«يا لَطِيفُ»**،

ثُمَّ قَوَّاهُ عَلى مَا اقْتَضَاهُ منْهُ، فنَادَاهُ: **«يا مُعِينُ»**،

ثُمَّ أشْهَدَهُ سِرَّ الأكْلِ والنَّهْي والنُّزُولِ، فنَادَاهُ: **«يا حَكِيمُ»**،

ثُمَّ نَصَرَهُ على العَدُوِّ، والمُكَائد لَه، فنَادَاهُ: **«يا نَصِيرُ»**،

ثُمَّ سَاعَدَهُ على أعْباءِ تكَاليفِ العُبودِيَّةِ، فنَادَاهُ **«يا ظَهِيرُ»**.

•

فَما أنْزلَهُ إلى الأرْضِ إلَّا لِيُكْمِلَ لَه وجُودَ التَّصْريفِ، ويُقِيمَهُ بوظَائفِ التَّكْليفِ، فتكَمَّلَتْ في آدمَ عليه السلام العُبُودِيَّتانِ: عُبودِيَّةُ التَّصْرِيفِ، وعُبُودِيةُ التَّكْليفِ، فعَظُمَتْ مِنَّةُ الله عَلَيه، وَتَوَفَّرُ إحْسَانه إلَيهِ، فَافْهَمْ!

***

[مقامُ العبودية]

انْعِطَافٌ: اعْلَمْ أنَّ أَجَلَّ مَقَامٍ أُقِيمَ العَبْدُ فِيهِ: مَقَامُ العُبُودِيَّةِ؛ وكل المقامات إنَّما هِيَ كَالخِدْمَةِ لهذَا المقَامِ، والدَّلِيلُ عَلَى أنَّ العُبودِيَّةَ أشْرَفُ مقامٍ قولُ الله -سُبْحَانَه وتَعَالى-: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلًا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وما أَنْزَلْنا عَلى عَبْدِنا﴾ [الأنفال: ٤١]، ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمةِ رَبِّكَ عبْدَه زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ١-٢]، ﴿وأنَّه لَمَّا قَامَ عَبدُ الله يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

ولَمَّا خُيِّرَ رسُولُ ﷺ بيْنَ أنْ يكُونَ نَبيًّا مَلِكًا أوْ نَبيًّا عَبْدًا اخْتَارَ العُبُودِيَّةَ لله تَعَالى [١]، فِفِي ذلِكَ أدَلُّ دَليلٍ أنَّها مِنْ أفْضَلِ المقَامَاتِ، وأعْظَمِ القُرُبَاتِ.

وقالَ ﷺ: (إنَّما أنَا عَبْدٌ لا آكُلُ مُتَّكِئًا، إنَّما أنَا عَبدُ الله آكُلُ كَما يَأكُلُ العَبيدُ)[٢].

(١) أخرجه أحمد (٧١٦٠)، وابن أبي الدنيا في «التواضع والخمول» (١٢٥)، والبزَّار في «مسنده» كما في «كشف الأستار» (٢٤٦٢)، وأبو يعلى (٦١٠٥)، وابن حبَّان (٦٣٦٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وفيه: أفملكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضع لربك يا محمَّدُ. قال: (بل عبدًا رسولًا). وفي الباب عن ابن عبَّاس وعائشة وابن عمر، وغيرهم.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٤٠)، وأبو الشيخ في «أخلاق النبي» (٦١٧)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا بلفظ: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لا يأكل متكئًا يقول: (آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ). وحسَّن إسناده الحافظ الهيثميُّ في «مجمع الزوئد» (٩/ ١٩).
وفي الباب عن البراء بن عازب وأبي هريرة وأنس وابن عمر وابن عبَّاس وعبد الله بن بسر، وغيرهم، وخرَّج أحاديثهم السيِّد أحمد بن الصِّدِّيق في «المداوي» (١/ ٤٠).
وقوله: «لا آكلُ مُتَّكئًا» أخرجه البخاريُّ (٥٣٩٨)، وغيره من حديث أبي جحيفة.

وقالَ ﷺ: (أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ولا فَخْرَ)[1]. سَمِعْتُ شَيْخَنا أبا العَبَّاس -رَحِمَه الله تَعَالى- يقُولُ: «وَلا فَخْرَ»، أيْ: لا أَفْتَخِرُ بالسِّيَادَةِ إنَّما الفَخْرُ لي بالعُبودِيَّةِ لله تَعَالى، ولأجْلِهَا كَانَ الإيجادُ.

وقَالَ تَعَالى: ﴿ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والعِبَادَةُ ظَاهِرُ العُبُودِيَّةِ، والعُبُودِيَّةُ رُوحُهَا. وإذْ قَدْ فَهِمْتَ هَذا فَرُوحُ العُبودِيَّةِ وسِرُّهَا إنَّما هُوَ تَرْكُ الاخْتِيارِ، وعَدَمُ مُنازعةِ الأقْدَارِ، فتَبَيَّنَ مِنْ هَذا أنَّ العُبُودِيَّةَ تَرْكُ التَّدْبيرِ وَالاخْتِيارِ مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ، فإذَا كَانَ لا يتِمُّ مقَامُ العبُوديَّة الَّذي هُوَ أشْرَفُ المقَامَاتِ إلا بتَرْكِ التَّدْبيرِ، فحَقيقٌ علَى العَبْدِ أنْ يكُونَ لهُ تاركًا، وللتَّسْليم لله تَعَالى وللتَّفْويضِ له سَالِكًا، لِيَصِلَ إلى المَقَامِ الأكْمَلِ، والمَنْهَجِ الأفْضَلِ.

وسَمِعَ رسُولُ الله ﷺ أبا بكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقْرَأُ، ويَخْفِضُ صَوْتَه، وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقْرَأُ ويرْفَعُ صَوتَه، فقَال لأبي بَكْرٍ: لِمَ خَفَضْتَ صَوْتَكَ؟ فقَال: قَدْ أسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ، وقالَ لِعُمَرَ: لِمَ رَفَعْتَ صَوْتَكَ؟ فقَالَ: أُوقِظُ الوَسْنَانَ، وأطْرُدُ الشَّيْطَانَ. فقَالَ لأبي بَكْرٍ: (ارْفَعْ قَليلًا)، وقَالَ لعُمَرَ: (اخْفِضْ قَلِيلًا)[2].

فكانَ شَيخُنا أبو العَبَّاسِ -رَحِمَهُ الله تَعَالى- يقُولُ: هَهُنا أرادَ النَّبيُّ ﷺ أنْ يخْرُجَ كُلَّ واحِدٍ منْهُما عَنْ مُرادِه لنَفْسِه، لمرادِه ﷺ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (٢٢٧٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دون قوله: (ولا فخر)، ولفظ البخاري: (أنا سيِّد النَّاس يومَ القيامَة).

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢٩)، والترمذيُّ (٤٥٠)، وابن خزيمة (١١٦١)، و ابن حبَّان (٧٣٣)، وغيرهم من حديث أبي قتادة. وفي الباب عن عليٍّ، وعائشة، وأمِّ هانئ، وأنس، وأمِّ سلمة، وابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُم.

تَنبيهٌ: تَفطَّنْ رَحمَكَ الله لهَذا الحَديثِ، تعْلَمْ منه أنَّ الخرُوجَ عن الإرَادة، هِيَ أفضَلُ العِبادَة؛ لأنَّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَالِلهُعَنهُمَا، كُلُّ واحِدٍ منْهُما قدْ أبانَ لمَّا سَأله رسُولُ الله ﷺ عنْ صِحَّةِ قَصْدِهِما، وبَعدَ ذلكَ أخرَجَهُما رسُولُ الله ﷺ عمَّا أرادَا لأنفُسِهِما -مَعَ صحَّةِ قَصْدِهِ- إلى اختيارِ رَسُولِ الله ﷺ.

***

بيان وبال التدبير من خلال قصة بني إسرائيل

فائدةٌ: اعْلَمْ أنَّ بَني إسْرائِيلَ لمَّا دخَلُوا التِّيهَ، ورُزِقُوا المنَّ والسَّلْوَى واختارَ الله تَعَالى لهُمْ ذلكَ رزْقًا رزقَهُم إيَّاهُ، يَبْرُزُ مِنْ عَينِ المنَّة مِنْ غَيرِ تَعَبٍ منْهُمْ ولا نَصَبٍ، فرَجَعَتْ نفُوسُهُم الكَثيفةُ لوجُودِ إلْفِ العَادَة، والغَيْبَة عَنْ شُهُودِ تَدبيرِ الله تَعَالى إلى طَلبِ مَا كَانُوا يَعْتَادُونَه، فقَالُوا: ﴿ادْعُ لَنَا ربَّكَ يُخْرِجْ لنَا ممَّا تُنبتُ الأرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وقِثَّائِهَا وفُومِهَا وعَدَسِهَا وبَصَلِها، قَالَ أتَسْتَبدِلُونَ الَّذي هُو أدْنَى بالَّذِي هُوَ خيرٌ، اهْبِطُوا مِصْرًا فإنَّ لَكُمْ ما سَألتُمْ، وضُرِبَتْ عَليهُمُ الذِّلَّةُ والمسْكَنَةُ، وباءُوا بِغَضَبٍ مِنَ الله﴾ [البقرة: ٦١].

وَذلكَ لأنَّهم تَركُوا مَا اختارَ الله لهم ممَّا يَليقُ، لما اختَارُوهُ لأنفُسِهِمْ، فقيلَ لهُم على طَريقِ التَّوبيخِ لهم: ﴿أتستَبدلُونَ الذي هُوَ أدْنى بالَّذي هُوَ خَيرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا﴾، فظَاهِرُ التَّفْسِيرِ: أتَسْتَبدِلُونَ الفُومَ والبَصَلَ والعَدَسَ، بالمنِّ والسَّلْوَى وليسَ النَّوعَانِ سَواءً في اللَّذَّة، ولا في سُقُوطِ المشَقَّة؟!

وسِرُّ الاعْتبارِ: أتَسْتَبدِلُونَ مُرادَكُم لأنفُسِكم بمُرادِ الله لكُم؟! أتَسْتَبدِلُونَ الذي هُوَ أدْنَى، وهُوَ ما أرَدْتُموهُ بالَّذِي هُوَ خَيرٌ، وهُوَ مَا أرادَ الله لكُمْ؟!..

اهبِطُوا مِصْرًا فإنَّ مَا أنتُمُ اشْتَهَيتُمُوهُ لا يَليقُ أنْ يكُونَ إلَّا في الأمْصَارِ.

وفي سِرِّ الاعْتِبارِ: اهْبِطُوا عَنْ سَماءِ التَّفويضِ، وحُسْنِ الاخْتِيارِ والتَّدبيرِ منَّا لكُم إلى أرْضِ التَّدْبيرِ والاخْتِيارِ منكُم لأنفُسِكُم، مَوصُوفِينَ بالذِّلَّةِ والمسْكَنةِ، لاخْتِيارِكُمْ مَعَ الله، وتَدْبيرِكُم لأنفسِكُمْ معَ تدْبيرِ الله.

ولوْ أنَّ هَذه الأُمَّةَ هيَ الكَائِنةُ في التِّيهِ لما قَالتْ مَقَالَ بَنِي إسْرَائيلَ؛ لشُفُوفِ أنْوارِهِمْ، ونَفُوذِ أسْرَارِهِمْ.

ألَا تَرَى أنَّ بَني إسْرائِيلَ في ابْتِداءِ الأمْرِ قَالُوا لموسَى عليه السلام، وهُوَ كَانَ سَببَ التِّيهِ لَهُم: ﴿اذْهَبْ أنتَ ورَبُّكَ فقَاتِلَا إنَّا هَهُنا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]. وقالُوا في آخرِهِ: ﴿ادْعُ لَنا ربَّكَ﴾، فأبَوْا في الأوَّل عَنِ امْتِثالِ أمْرِ الله، وفي الآخِرِ اخْتَارُوا لأنْفُسِهِمْ غيرَ مَا اخْتَارَ الله بِهِمْ.

وكثِيرًا مَّا تكرَّرَ مِنهُم ما يدلُّ على بُعدِهِمْ عنْ مَصْدَرِ الحقِيقَةِ وسَواءِ الطَّرِيقَةِ؛ في قَوْلهم: ﴿أرِنَا الله جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وفي قَولِهِمْ لموسَى عليه السلام بَعدُ، ولم ينْشَفْ بَلَلُ البَحْرِ مِنْ أقَدامِهِمْ حِينَ فُرِقَ لَهُم، لمَّا عَبَرُوا على قَومٍ يَعْكُفُونَ عَلى أصْنامٍ لهُم، فقَالُوا: ﴿اجْعَلْ لَنَا إلهًا كَما لَهُمْ آلهةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فكَانُوا كَما قَالَ مُوسَى عليه السلام: ﴿قالَ إنَّكُم قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وكَذلِكَ قَولُه تَعالَى: ﴿وإذْ نَتَقْنَا الجبَلَ فَوقَهُمْ كَأنَّهُ ظُلَّةٌ وظَنُّوا أنَّه واقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيناكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٧١].

وهذه الأُمَّةُ نُتقَ فَوْقَ قُلوبِها جبالُ الهَيْبَة والعَظَمَة، فأخذوا الكتَابَ بقُوَّة الإيمان، فثَبَتُوا لذَلك وأُيِّدُوا لما هُنالك، وحُفظُوا منْ عبادَة العجْل وغير ذلك؛ لأنَّ الله تَعالى اخْتارَ هَذه الأمَّةَ واختَارَ لها وأثنى عَليها بقَوله: ﴿كُنتُمْ خَيرَ أُمَّة أُخرِجَتْ للنَّاس﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذلكَ جَعلْناكُمْ أُمَّةً وسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أيْ: عُدولًا خيارًا.

***

إسقاط التدبير هو مطلب العابدين

فقَدْ تَبيَّنَ لَكَ منْ هَذا أنَّ التَّدْبيرَ والاخْتيارَ، منْ أشَدِّ الذُّنوب والأوْزَار. فإذَا أرَدْتَ أنْ يكُونَ لَكَ منَ الله اخْتيارٌ فأسْقطْ مَعَهُ الاخْتيارَ؛ وإنْ أردْتَ أنْ يكُونَ لكَ حُسْنُ التَّدْبير، فَلا تَدَّع معَه وجُودَ التَّدبير، وإنْ أردتَ الوُصُولَ إلى المُرَاد، فذَلكَ بأنْ لا يَكُونَ مَعَهُ مُرادٌ.

ولذَلكَ لَمَّا قيلَ لأبي يَزيدَ[1]: «ما تُريدُ؟» قال: «أُريدُ أنْ لَا أُريدَ». فلَمْ تَكُنْ أُمْنيَّتُه منَ الله، ولَا طلْبتُه منه إلا سُقُوطَ الإرَادة مَعَه؛ لعلْمه أنَّها أفضَلُ الكَرَامَات، وأجَلُّ القُرُبَات.

---

(١) سطان العارفين، أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، نسبته إلى بسطام (بلدة بين خراسان والعراق) أصله منها، ووفاته فيها، كان جدُّه مجوسيًّا وأسلم، وهم ثلاثة إخوة آدم وطيفور وعلي وكلهم كانوا زهَّادًا عبَّادًا أرباب أحوال، يقال: إنه روى عن إسماعيل السدي، وجعفر الصادق، وله مقالاتٌ كثيرةٌ ومجاهداتٌ مشهورةٌ وكراماتٌ ظاهرةٌ، قال المناوي: «وقد أفردت ترجمته بتصانيف حافلة»، ولشمس الدين الأطعاني «روضة الحبور ومعدن السرور في مناقب الجنيد البغدادي والعارف أبو يزيد طيفور»، وللشيخ عبد الحليم محمد «سلطان العارفين أبو يزيد البسطامي» تُوفي سنة ٢٦١ وقيل ٢٦٤. انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٣)، و«طبقات الصوفية» (ص ٦٧ - ٦٨)، و«وفيات الأعيان» (٢/ ٥٣١).

وقَدْ يتَّفِقُ لِلْمُخَصَّص الكَرَامَاتُ الظَّاهِرةُ، وبقَايَا التَّدْبيرِ كَامنةٌ فيه؛ فالكَرامَةُ الكَامِلةُ الحقِيقيَّةُ، إنَّما هِيَ تَرْكُ التَّدبيرِ مَعَ الله، والتَّفويضُ لحُكْمِ الله،

ولِذَلِكَ قَالَ الشَّيخُ أبو الحَسَنِ -رَحِمَهُ الله تَعَالى-: «إنَّما هُمَا كَرامَتَانِ جَامِعَتانِ مُحِيطَتانِ: كَرامَةُ الإيمانِ لمزيدِ الإيقَانِ وشُهُودِ العِيانِ، وكَرامةُ العَمَلِ على الاقْتِدَاءِ والمتَابعَةِ، ومُجانَبةِ الدَّعَاوَى والمخَادَعَةِ.

فمَنْ أُعْطِيَهُما ثُمَّ جَعَلَ يَشْتَاقُ إلى غَيرِهما فهُوَ عَبْدٌ مُفْترٍ كَذَّابٌ، أو ذو خَطإٍ بالعِلْمِ والعَمَلِ بالصَّوَابِ، كمن أُكْرِمَ بِشُهودِ الَملِكِ على نعْتِ الرِّضا، فجَعَلَ يشتاقُ إلى سياسةِ الدَّوابِ وخِلَعِ الرِّضا.

وكُلُّ كَرامَةٍ لا يَصْحَبُهَا الرِّضَا مِنَ الله تَعَالى، وعَنِ الله، فصَاحِبُها مُسْتَدْرَجٌ مَغْرورٌ، أوْ نَاقِصٌ، أوْ هالكٌ مَثْبُورٌ[1]».

فاعْلَمْ أنَّ الكَرَامَةَ لا تَكُونُ كَرَامةً حَتَّى يَصْحَبَها الرِّضَا عَنِ الله، ومِنْ لازِمِ الرِّضَا عَنِ الله، تَرْكُ التَّدْبيرِ مَعَهُ، وإسْقَاطُ الاخْتِيارِ بَيْنَ يدَيهِ.

واعْلَمْ أنَّه قدْ قَالَ بعْضُهُم: «إنَّ أبَا يَزِيدَ -رَحِمَه الله- لَمَّا أرادَ أنْ لا يُريدَ، فقَدْ أرَادَ»!! وهَذَا قَوْلُ مَنْ لا مَعْرِفةَ عِنْدَه؛ وذَلكَ: لأنَّ أبَا يَزِيدَ إنَّما أرادَ أنْ لا يُريدَ؛ لأنَّ الله تَعَالى اختارَ لَهُ ولِلْعِبَادِ أجْمعَ، عَدَمَ الإرَادَةِ مَعَهُ، فهُو في إرَادَتِه أنْ لا يُريدَ، مُوافِقٌ لإرَادَةِ الله تَعَالى لَهُ.

---

(١) المثبور: الملعون المطرود المعذب، من «الثَّبْر» وهو التخييب واللعن والطرد. [تاج العروس]

ولِذَلِكَ قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ -رحمه الله تَعَالى-: «وكُلُّ مختَارَاتِ الشَّرْعِ، وتَرتِيبَاته، ليسَ لَكَ منْهَا شَيءٌ، واسْمَعْ وأطِعْ، وهذَا مَوضِعُ الفقْه الرَّبَّانيِّ، والعِلْم اللَّدُنِّيِّ، وهُوَ أرْضٌ لِتَنَزُّلِ علْم الحقِيقةِ المأخُوذِ عَنِ الله، لمنْ اسْتَوَى[1]».

فأفَادَ الشَّيخُ بِهذَا الكَلَام: أنَّ كُلَّ مختارٍ للشَّرْعِ لا يُناقِضُ اخْتيارُهُ مَقَامَ العُبودِيَّة المبنيَّ على تَركِ الاخْتيار؛ لِئَلَّا ينْخَدعَ عقْلٌ قاصرٌ عنْ دَرْكِ الحقِيقَة بذَلِكَ، فيظُنَّ أنَّ الوَظَائفَ والأَوْرَادَ ورَوَاتِبَ السُّنَنِ، وإرَادَتَها، يَخْرُجُ بها العَبْدُ عَنْ صَريحِ العُبُودِيَّةِ، لأَنَّهُ قَدِ اخْتَارَ.

فبَيَّنَ الشَّيْخُ -رَحمه الله تَعَالى- أنَّ كُلَّ مختَارَاتِ الشَّرْعِ، وتَرْتِيبَاتِهِ، ليسَ لَكَ منْهَا شَيءٌ، وإنَّما أنْتَ مُخاطَبٌ أنْ تَخْرُجَ عَنْ تدْبيركَ لنَفسكَ، واخْتيارِكَ لَها، لا عَنْ تَدْبيرِ الله وَرَسُوله لَكَ، فَافْهَمْ! فَقَدْ عَلِمْتَ إذًا أنَّ أبا يَزِيدَ مَا أرَادَ أنْ لا يُريدَ إلَّا لأنَّ الله تَعَالى أرادَ منْه ذَلِكَ، فلَمْ تُخرِجْهُ هَذه الإرادةُ عَنِ العُبودِيَّة المقْتَضَاة منْه.

***

فقَدْ عَلِمْتَ أنَّ الطَّريقَ الموصِّلةَ إلى الله تعالى هِيَ مَحْوُ الإرَادةِ، ورَفْضُ المشيئَةِ، حتَّى قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ -رحمه الله تعالى-: «لنْ يَصِلَ الوَليُّ إلى الله، ومَعَه تَدْبيرٌ مِنَ تَدْبيرَاته، واخْتِيارٌ مِنَ اخْتِيارَاتِه» اهـ.

---

(١) من معاني الاستواء: الاستقرار والاستقامة والهيمنة والاستيلاء، فهو مستوٍ: مستقر ثابت على صراط الله المستقيم، ومستقيم على شرعه القويم، ومهيمن ومستولٍ على قلبه طوال حياته حتى يلقى ربه بقلب سليم.

وسَمِعْتُ شَيْخَنا أبا العَبَّاسِ -رَحمه الله تَعَالى- يَقُولُ: «ولنْ يصِلَ العَبْدُ إلى الله تَعَالى حتَّى تَنْقَطِعَ عَنهُ شَهْوَةُ الوصُولِ إلى الله تعالى» اهـ.

يُرِيدُ -والله أعْلَمُ-: أنْ تَنْقَطِعَ عنْهُ انْقِطَاعَ أدَبٍ، لَا انْقِطَاعَ مَلَلٍ، أوْ لأنَّه يشْهَدُ إذَا قَرُبَ إبَّانُ وصُولِه، عَدَمَ اسْتِحْقَاقِه لذَلِكَ، واسْتِحْقَارَه لنَفسه أنْ يكونَ أهْلًا لما هُنالِكَ، فتَنْقَطِعُ عنْه شَهْوةُ الوُصُولِ لِذَلِكَ، لا مَلَلًا، ولا سُلُوًّا، ولَا اشْتِغَالًا عَنِ الله تَعَالى بشَيْءٍ دُونَهُ.

فإذَا أرَدْتَ الإشْرَاقَ والتَّنْوِيرَ، فعَلَيْكَ بإسْقَاطِ التَّدْبِيرِ، واسْلُكْ إلى الله كَما سَلَكُوا، تُدْرِكْ مَا أدْرَكُوا..

اسْلُكْ مَسَالِكَهُم، وانْهجْ مناهِجَهُم.. وألْقِ عَصَاكَ فَهَذا جَانِبُ الوَادِي.

ولنَا في هَذا المعْنى في ابتِدَاء العُمْرِ، مَا كَتَبْتُ به لبَعْضِ إخْوَانِي:

أيَا صَاحِ هَذا الرَّكْبُ قَدْ سَارَ مُسْرِعًا * ونَحْنُ قُعُودٌ مَا الَّذِي أنْتَ صَانِعُ
أتَرْضَى بِأَنْ تَبْقَى المخَلَّفَ بَعْدَهُمْ * صَرِيعَ الأمَانِي والغَرامُ ينَازِعُ
وهذَا لِسَانُ الكَوْنِ ينْطِقُ جَهْرةً * بأنَّ جَمِيعَ الكَائِنَاتِ قَوَاطِعُ
وَأنْ لَا يرَى وَجْهَ السَّبِيلِ سِوى امْرِئٍ * رَمَى بِالسِّوى لم تَخْتَدِعْهُ المطَامِعُ
ومَنْ أبْصَرَ الأشْيَاءَ والحقَّ قَبْلَهَا * فغَيَّبَ مَصْنُوعًا بِمَنْ هُوَ صَانِعُ
بَوادِهُ أنْوارٍ لمنْ كَانَ ذَاهِبًا * وتَحقِيقُ أسْرَارٍ لمنْ هُوَ رَاجِعُ

فَقُمْ وانْظُرِ الأَكْوَانَ والنُّورَ عَمَّهَا * فَفَجْرُ التَّدَانِي نَحْوَكَ اليَومَ طَالِعُ
وكُنْ عَبْدَهُ والْقِ القِيَادَ لِحُكْمِه * وإيَّاكَ تَدْبِيرًا فَمَا هُوَ نَافِعُ
أَتُحْكِمُ تَدْبِيرًا وغَيرُكَ حَاكِمٌ * أأَنْتَ لأَحْكَامِ الإلَهِ تُنَازِعُ؟
فَمَحْوُ إِرَادَةٍ وكُلِّ مَشِيئَةٍ * هُوَ الغَرَضُ الأَقْصَى فهَلْ أَنْتَ سَامِعُ؟
كَذلِكَ سَارَ الأَوَّلُونَ فأَدْرَكُوا * عَلَى إِثْرِهِمْ فَلْيَسْرِ مَنْ هُوَ تَابِعُ
عَلَى نَفْسِهِ فَلْيَبْكِ مَنْ كَانَ طَالِبًا * وَمَا لمعَتْ ممَّنْ يُحِبُّ لَوَامِعُ
عَلَى نَفْسِهِ فلْيَبْكِ مَنْ كانَ بَاكِيًا * أَيذْهَبُ وقْتٌ وَهْوَ باللَّهْوِ ضَائِعُ

***

اعْلَمْ -وَفَّقَكَ الله- أنَّ لله عِبادًا خَرجُوا عَنِ التَّدبيرِ مَعَ الله بتَأْديبِه الذي أَدَّبَهُم، وبِتَعْليمِه الَّذِي عَلَّمَهُم، ففَسَخَتِ الأنوارُ عَزَائِمَ تَدْبيرِهِمْ، ودَكَّتِ المعارِفُ والأَسْرارُ جبالَ اخْتيارِهِمْ، فنزَلُوا مَنْزِلَ الرِّضَا، فوَجَدُوا نَعِيمَ المُقَامِ، فاسْتَغَاثُوا بالله، واسْتَصْرخُوا به، خَشْيةَ أنْ يشغَلَهُم حَلاوَةُ الرِّضَا فيمِيلُوا إِلَيهَا بمُسَاكَنَةٍ، أوْ يَجْنَحُوا لهَا بمُرَاكَنَةٍ.

قالَ الشَّيخُ أَبُو الحسَنِ -رَحِمَه الله تَعَالى-: كُنْتُ في ابْتَداءِ أمْرِي، أدَبِّرُ مَا أَصْنَعُ مِنَ الطَّاعاتِ وأنواعِ الموافَقَاتِ فتَارةً أقُولُ: أَلزَمُ البرَارِيَ والقِفَارَ، وتَارَةً أقُولُ: أرْجِعُ إلى المدَائنِ والدِّيَارِ، لصُحْبَةِ العُلَماءِ والأَخْيارِ.

فَوُصِفَ لي وليٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله بأَرْضِ المغْرِبِ بِجَبَلِ هُنالك، فَطَلَعْتُ إليه، فوَصَلْتُ إليه ليْلًا، فَكَرِهْتُ أَنْ أَدْخُلَ عليه حِينئذٍ، فسَمِعْتُهُ يقُولُ: «اللَّهُمَّ إنَّ قَومًا سَأَلُوكَ أَنْ تُسَخِّرَ لهُمْ خَلْقَكَ فَأَعْطَيتَهُم ذلِكَ، فرَضُوا منْكَ بذَلِكَ. اللَّهُمَّ وإنِّي أَسْأَلُكَ اعْوِجَاجَ الخلْقِ عَليَّ حَتَّى لا يَكُونَ ملْجَئِي إلَّا إليكَ». فقُلْتُ: يا نفْسُ انْظُرِي مِنْ أيِّ بَحْرٍ يَغْتَرِفُ هَذا الشَّيخُ؟!

فأقَمْتُ حَتَّى إذا كانَ الصَّباحُ دَخَلْتُ عَلَيه، فسَلَّمْتُ عليه، ثُمَّ قُلتُ: يا سَيِّدِي، كَيفَ حَالُكَ؟ فقَالَ: «أَشْكُو إلى الله مِنْ بَرْدِ الرِّضَا والتَّسْلِيمِ كَمَا تَشْكُو أَنْتَ مِنْ حَرِّ التَّدبيرِ والاخْتِيارِ».

فقُلْتُ: يا سَيِّدي! أمَّا شَكْوايَ مِنْ حَرِّ التَّدْبيرِ والاخْتِيارِ، فقَدْ ذُقْتُه وأنا الآنَ فِيه، أمَّا شَكَواكَ مِنْ بَرْدِ الرِّضَا والتَّسْلِيمِ، فلَمْ أَفْهَمْه؟ فقَال: «أَخَافُ أَنْ تَشْغَلَني حَلاوتُهما عَنِ الله».

فقُلْتُ: يا سَيِّدِي، سَمِعْتُكَ البارحَةَ تقُولُ: «اللَّهُمَّ إنَّ قَومًا سَأَلُوكَ أَنْ تُسَخِّرَ لهُم خَلْقَكَ فأَعْطَيتَهُم ذَلِكَ فَرضُوا مِنْكَ بِذلِكَ، اللَّهُمَّ وإنِّي أسأَلُكَ اعْوِجَاجَ الخلْقِ حتَّى لا يكُونَ مَلْجَئِي إلَّا إلَيكَ»!!

فتبَسَّم ثُمَّ قَال: «يا بُنَيَّ: عِوَضَ مَا تقُولُ: سَخِّرْ لي خَلْقَكَ، قُلْ: يا ربِّ كُنْ لي. أَتُرَى إذَا كَانُوا لَكَ، أَيُغْنُوكَ بِشَيءٍ؟! فَما هَذا الجُبنُ؟!».

***

بيان وبال التدبير من خلال قصة نوح عليه السلام

فائدةٌ: اعْلَمْ أنَّ هَلاكَ ابنِ نُوحٍ عليه السلام إنَّما كانَ لأجْلِ رُجُوعِه إلى تَدْبيرِ نَفْسِه، وعَدَمِ رِضَاهُ بتَدْبيرِ الله، الَّذي اخْتارَه لنُوحٍ عليه السلام ومَنْ كانَ مَعَهُ في السَّفِينَة، فقَالَ له نُوحٌ عليه السلام: ﴿يا بُنَيَّ ارْكَبْ معَنَا ولَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرينَ * قَالَ: سَآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الماءِ قَالَ لا عَاصِمَ اليَومَ مِنْ أمْرِ الله، إلَّا مَنْ رَحِم﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

فأوى في المعْنَى إلى جَبَلِ عَقْلِه، ثُمَّ كانَ الجبلُ الَّذي اعْتَصَمَ به صُورَةَ ذَلك في المعْنَى القَائمِ به، فكَانَ كما قَالَ الله: ﴿وحَالَ بَينَهُما الموْجُ فكَانَ مِنَ المغْرَقِين﴾ [هود: ٤٣] في الظَّاهِرِ بالطُّوفَانِ، وفي البَاطِنِ بالحرْمَانِ.

فاعْتَبِرْ أيُّها العَبْدُ بذَلِكَ، فإذَا تَلاطَمَتْ عَلَيكَ أمْوَاجُ الأقْدارِ، فَلا تَرْجِعْ إلى جَبَلِ عَقْلِكَ البَاطِلِ، لئَلَّا تكُونَ مِنَ المغْرَقِينَ في بَحْرِ القَطِيعَةِ، ولكِنِ ارْجِعْ إلى سَفِينَةِ الاعْتِصَامِ باللهِ، والتَّوكُّلِ عَلَيه ﴿ومَنْ يَعْتَصِمْ بالله فَقَدْ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾ [آل عمران: ١٠١]، ﴿ومَنْ يتَوَكَّلْ عَلى الله فهُوَ حَسْبُه﴾ [الطلاق: ٣].

فإنَّك إذَا فعَلْتَ ذَلِكَ اسْتَوَتْ بِكَ سَفِينةُ النَّجاةِ على جُودِيِّ الأمْنِ، ثُمَّ تَهْبِطُ بسَلامَةِ القُرْبَةِ وبَرَكاتِ الوَصْلَةِ عَلَيْك وعلَى أمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ، وهُوَ عَوَالِمُ وُجُودِكَ، فَافْهَمْ ذَلِكَ وَلا تَكُنْ مِنَ الغَافِلِينَ، واعْبُدْ رَبَّكَ وَلا تَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ، فقَدْ عَلِمْتَ أنَّ إسْقَاطَ التَّدْبيرِ والاخْتِيارِ، أهَمُّ مَا يَلْتَزِمُه الموقِنُونَ ويطْلُبُه العَابِدُونَ، وأشْرَفُ مَا يتَحَلَّى به العَارِفُونَ.

***

سَأَلْتُ بَعْضَ العَارِفِينَ، ونَحْنُ تُجَاهَ الكَعْبَة فقُلْتُ لَه: مِنْ أَيِّ النَّاحِيَتَيْنِ يَكُونُ رُجُوعُكَ؟ فقَالَ: «لِي مَعَ الله عَادةٌ أَنْ لَا تُجاوزَ إرادَتِي قَدَمِي»[1].

وقَالَ بَعْضُ المَشَايخ: «لَوْ أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّة الجَنَّةَ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، وبَقِيتُ أنَا لَم يَقَعْ عِنْدِي تَمييزٌ في أَيِّ الدَّارَيْنِ يكُونُ قَرَارِي». فهَذَا حَالُ عَبْدٍ مُحيتْ اخْتِيارَاتُه وإرَادتُه، فلمْ يبقَ لهُ مَعَ الله مُرادٌ إلَّا مَا أرادَ؛ كَما قَالَ بعْضُ السَّلَفِ: «أَصْبَحْتُ وهَوَايَ في مَواقعِ قَدَرِ الله».

قالَ أبو حَفْص الحدَّادُ[2] -رَحِمه الله تَعالى-: «لِي مُنْذُ أرْبَعِينَ سَنةً مَا أَقَامَني الله في حَالٍ فَكَرِهْتُهُ، وَلَا نَقَلَنِي إلى غَيرِهِ فَسَخِطْتُه». وقالَ بعْضُهُم: «لِي مُنْذُ أرْبَعِينَ سنَةً أَشْتَهِي أَنْ لَا أَشْتَهِيَ، لأَتْرُكَ مَا أَشْتَهِي فَلَا أجِدُ مَا أَشْتَهِي».

فهَذِهِ قُلُوبٌ تولَّى الله رِعَايَتَهَا، وأَوْجَبَ حِمايتَهَا، أَلَمْ تَسْمَعْ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ لأَنَّ تَحقُّقَهُمْ بمَقَامِ العُبوديَّة أَبى لَهُمُ الاخْتِيارَ مَعَ الرُّبُوبِيَّةِ، وأَنْ يُقَارِفُوا ذَنْبًا، وأَنْ يُلَابِسُوا عَيْبًا.

---

(١) بمعنى أنه لا يدبر مكان خروجه، بل يترك الحق سبحانه يفعل به مايريد.

(٢) الإمام القدوة الرباني شيخ خراسان أبو حفص، عمرو بن سلم النيسابوري الزاهد، من أهل قرية يقال لها كورداباذ على باب مدينة نيسابور، كان حدَّادًا وهو أول من أظهر طريقة التصوف بنيسابور، صحب عبيد الله بن مهدي الأبيوردي، وعليا النصراباذي، ورافق أحمد خضرويه البلخي، وكان أحد الأئمة والسادة، أخذ عنه: أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الحيري، وأبو جعفر أحمد بن حمدان الحافظ، وحمدون القصار، وطائفة، وله كلام رائق في مع المعاملة والأدب مع الله، تُوفي سنة ٢٦٤. انظر: «حلية الأولياء» (١٠/ ٢٦٩)، و«طبقات الصوفية» للسلمي (ص ١٠٣) و«السير» للذهبي (١٠/ ١٤٤).

وَقَالَ -سُبْحَانه وتَعَالى-: ﴿ إنَّه ليسَ لهُ سُلْطَانٌ عَلى الَّذينَ آمَنُوا وَعَلى ربِّهم يَتَوكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]. فقُلُوبٌ ليسَ للشَّيطَانِ عَلَيهَا سُلْطَانٌ، مِنْ أيْنَ يَطْرُقُهَا وَسَاوِسُ التَّدْبيرِ أوْ يَرِدُ عَلَيْهَا وُجُودُ التَّكْدِيرِ؟!

وفي الآيَةِ بَيانُ أنَّ مَنْ صَحَّحَ الإيمانَ باللهِ، والتَّوكُّلَ على الله فَلَا سُلْطَانَ للشَّيطَانِ علَيهِ؛ لأنَّ الشَّيطَانَ إنَّما يأتيكَ مِنْ أحَدِ وَجْهَيْن: إمَّا بتَشْكِيكٍ في الاعْتِقَادِ، وإمَّا برُكُونٍ إلى الخَلْقِ والاعْتِمادِ، فأمَّا التَّشْكِيكُ في الاعْتِقَادِ فالإيمانُ يَنْفِيهِ، وأمَّا السُّكُونُ إلى الخَلْقِ والاعْتِمادِ عَلَيهِمْ فالتَّوكُّلُ عَلَيه يَنْفِيه.

***

[خواطرُ التدبير]

تَنْبيهٌ: اعْلَمْ أنَّ المؤْمِنَ قَدْ تَرِدُ علَيه خَوَاطِرُ التَّدْبِيرِ، ولكِنَّ الله تَعَالَى لَا يَدَعُه لِذَلِكَ، وَلَا يتْرُكه لما هُنَالِكَ؛ أَلَمْ تَسْمَعْ قولَهُ تعالى: ﴿الله وليُّ الذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فالحقُّ سُبْحَانَه وتَعَالى يُخْرِجُ المؤْمِنِينَ مِنْ ظُلُماتِ التَّدْبِيرِ إلى إشْرَاقِ نُورِ التَّفْويضِ، ويَقْذِفُ بحقِّ تثْبيتِه على بَاطِلِ اضْطِرابِهِمْ، فيُزَلْزِلُ أرْكَانَه، ويَهْدِمُ بُنْيانَه، كَمَا قَالَ الله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُه، فإذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

والمؤمِنُ وإنْ وردَتْ عَليهِ خَواطِرُ الاضطِّرابِ والتَّدبيرِ فَهِيَ عابرةٌ لا تَثَبُّتَ لها، ومُضْمَحِلَّةٌ لا وجُودَ لها؛ لأنَّ نُورَ الإيمانِ قَدِ اسْتقَرَّ في قُلوبِ المؤمِنِينَ، وأَخْمَدَتْ أنْوارُهُ نفُوسَهُم، ومَلأَ إشراقُهُ قلوبَهُم، وشَرَحَ ضِياؤُه صُدُورَهُمْ، فأَبى الإيمانُ المسْتَقِرُّ في قُلُوبِهم أنْ يَسْكُنَ معَهُ غيرُهُ، وإنَّما هي سِنةٌ ورَدَتْ عَلى القُلوبِ أمْكَنَ فِيهَا وُرُودُ طَيفِ التَّدْبِيرِ، ثُمَّ تتَيَقَّظُ القُلوبُ فيزُولُ الطَّيفُ الذي لا يكُونُ إلَّا مَنامًا. قَال الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ[1] منَ الشَّيطانِ تذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) «طَيْفٌ» بياء ساكنة بعد الطاء: قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي ويعقو

وفي هَذهِ الآيةِ فوائدُ:

الفَائدَةُ الأُولَى: قَوْلُه -سُبْحَانه وتَعَالى-: ﴿إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذكَّرُوا فإذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، دَلَّ ذلكَ عَلى أنَّ أصْلَ أمْرِهِمْ عَلى وجُودِ السَّلامَةِ مِنْهُ، وإنْ عَرَضَ ذلكَ الطَّيفُ، فَفِي بَعْضِ الأحْيانِ تَعْرِيفًا بما أُودِعَ فيهِمْ مِنْ وَدَائعِ الإيمانِ.

الفائدة الثانية: قَوْلُه تعالى: ﴿إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ﴾ ولَمْ يَقُلْ: إذَا أمْسَكَهُمْ، أوْ أخَذَهُمْ؛ لأنَّ المسَّ مُلامَسَةٌ مِنْ غَيْرِ تَمَكُّنٍ.

فأفَادَتْ هَذهِ العِبارَةُ أنَّ طَيفَ الهوَى لَا يتَمَكَّنُ مِنْ قُلوبِهم، بَلْ يُماسُّهَا مُماسَّةً، ولا يتَمَكَّنُ مِنهَا إمْسَاكًا ولا أخْذًا كَما يَصْنَعُ بالكَافِرِينَ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَسْتَحْوذُ عَلى الكَافرِينَ، ويَخْتَلِسُ اخْتِلاسًا مِنْ قُلُوبِ المؤْمِنِينَ، حتَّى تنَامَ العُقُولُ الحارِسَةُ للقُلُوبِ.

فإذَا اسْتَيقَظُوا انْبَعَثَتْ مِنْ قُلوبِهِمْ جُيُوشُ الاسْتِغْفارِ والذِّلَّةِ والافْتِقارِ إلى الله تَعالى، فاسْتَرجَعُوا مِنَ الشَّيطَانِ ما اخْتَلَسَهُ؛ وأخَذُوا مِنْه مَا افْتَرَسَهُ.

الفَائدَةُ الثَّالثَةُ: قَولُه تَعالى: ﴿إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيطَانِ﴾: فالإشَارَةُ هَهُنا بالطَّيفِ إلى أنَّ الشَّيطانَ لا يُمْكِنُه أنْ يأتِيَ إلى القُلُوبِ الدَّائمَةِ اليَقظَةِ؛ لأنَّهُ إنَّما يُوردُ طَيْفَ الغَفْلةِ والهوَى عَلى القُلُوبِ في حِينِ مَنَامِها بوُجُودِ غَفْلَتِهَا، ومَنْ لا نَوْمَ لَه فَلَا طَيفَ يَرِدُ عَليهِ.

الفَائدَةُ الرَّابعَةُ: قَوْلُه تَعَالى: ﴿إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ﴾ ولَمْ يقُلْ إذَا مَسَّهُمْ «وارِدٌ» مِنَ الشَّيطانِ، أوْ نَحْوُه؛ لأنَّ الطَّيفَ لا ثبتَ لَه، ولا وُجُودَ له، إنَّما هُوَ صُورةٌ مثاليَّةٌ ليسَ لها حقِيقَةٌ وجُودِيَّةٌ، فأخْبَرَ سُبْحَانه وتَعَالى بذلِكَ أنَّ ذَلِكَ غيرُ ضَارٌّ بالمتَّقِينَ؛ لأنَّ مَا يُورِدُهُ الشَّيطَانُ عَلى قُلُوبِهِمْ بِمَثابَةِ الطَّيفِ الذِي تَرَاهُ في مَنامِكَ، فإذَا اسْتَيْقَظْتَ فَلا وُجُودَ لَه.

الفَائدَةُ الخَامسَةُ: قَوْلُه تَعَالى: ﴿إذا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تذَكَّرُوا﴾، ولم يَقُلْ: «ذَكَرُوا» إشَارةٌ إلى أنَّ الغَفْلَةَ لا يَطْرُدُهَا الذِّكْرُ مَعَ غَفْلَةِ القَلْبِ، إنَّما يَطْرُدُهَا التَّذَكُّرُ والاعْتَبارُ، وإنْ لَمْ تكُنِ الأذْكَارُ؛ لأنَّ الذِّكْرَ مَيدَانُه اللِّسَانُ، والتَّذَكُّرُ مَيْدانُه القَلْبُ.

وَطَيفُ الهَوَى لَمَّا ورَدَ، إنَّما ورَدَ عَلَى القُلُوبِ لا عَلى الألْسِنَةِ، فالَّذِي ينْفِيه، إنَّما هُوَ التَّذَكُّرُ الَّذي يَحِلُّ مَحلَّه، ويَمْحَقُ فِعْلَهُ.

الفائدَةُ السَّادسَةُ: قَولُه تَعالى: ﴿تذَكَّرُوا﴾ حُذِفَ مُتَعَلَّقُه، ولم يَقُلْ تذَكَّرُوا الجنَّةَ أوِ النَّارَ أوِ العُقُوبَةَ، أوْ غَيرَ ذَلِكَ. وإنَّما حُذِفَ مُتَعَلَّقُ «تَذَكَّرُوا»، لفَائِدَةٍ جَلِيلَةٍ، وذَلِكَ: أنَّ التَّذَكُّرَ الماحِيَ لِطَيْفِ الهوَى مِنْ قُلوبِ المتَّقِينَ على حَسْبِ مَرَاتِبِ اليَقِينِ، ومَرْتَبةُ التَّقْوَى يدْخُلُ فِيهَا الأنْبِيَاءُ والرُّسُلُ وَالأَوْلِيَاءُ والصِّدِّيقُونَ والصَّالِحُونَ والمسْلِمُونَ. فَتقْوَى كُلِّ أحَدٍ على حَسَبِ حَالِه ومَقَامِه، وكذَلِكَ أيضًا تذَكُّرُ كُلِّ أحَدٍ عَلى حَسَبِ مَقَامِه؛ فلَوْ ذَكَرَ قِسْمًا مِنْ أقْسَامِ التَّذَكُّرِ، لمْ يَدْخُلْ فيهِ إلَّا أهْلُ ذلِكَ القِسْمِ.

فلَوْ قَالَ تعالى: «إنَّ الذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَائفٌ مِنَ الشَّيطَانِ تَذَكَّرُوا العُقُوبَةَ فإذَا هُمْ مُبْصِرُونَ» خَرَجَ عنه الَّذينَ تذكَّرُوا المثُوبةَ. ولَوْ قَالَ: «تذكَّرُوا سَابِقَ الإحْسَانِ» لخَرَجَ مِنْهُ الَّذينَ تذَكَّرُوا لَوَاحِقَ الامْتِنانِ، إلى غيرِ ذلِكَ.. فأرَادَ الحقُّ سُبْحانَه وتَعَالى أنْ لا يذْكُر مُتَعَلَّقَ التَّذَكُّرِ ليشْمَلَ المراتِبَ كُلَّهَا، فَافْهَمْ.

الفَائدةُ السَّابعَةُ: أنَّه قَالَ -سُبْحَانه-: ﴿فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «تذَكَّرُوا فَأبْصَرُوا»، أوْ «تَذَكَّرُوا ثُمَّ أبْصَرُوا»، أوْ «تذَكَّرُوا وأبْصَرُوا»!

فأمَّا تركُ التَّعْبيرِ بالوَاوِ؛ فلأنَّه كَانَ لا يُفِيدُ أنَّ البُصْرَى كانت عَنِ التَّذَكُّرِ، والمرادُ أنَّها كَانَتْ مُسَبَّبَةً عنْهُ، تَرْغِيبًا للعِبَادِ فيها.

وأمَّا عُدُولُه عَنْ ثُمَّ؛ لأنَّ فيهَا مَا في الوَاوِ مِنْ عَدَمِ الدَّلالَةِ على السَّبَبِيَّةِ، وفِيهَا أنَّها كانَتْ تَقْتَضِي عكْسَ المضيِّ لما فِيهَا مِنَ المُهْلَةِ ومُرادُ الحقِّ -سُبْحَانَه- أنَّ هؤلاءِ العِبادَ، لا تتَأخَّرُ أبصَارُهُمْ عَنْ تذَكُّرِهم. ولم يُعَبِّرْ بالفَاءِ لاقْتضَائهَا التَّعْقِيبَ، بَلْ عَبَّرَ الحقُّ سُبْحَانَهُ بقَوْلِه: ﴿تذَكَّرُوا فَإذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ كأنَّهم لم يَزالُوا عَلى تِلكَ البُصْرى، ثَناءً منهُ سُبْحَانَه عَليهم، وإظْهَارًا لوفُورِ المنَّةِ لدَيهم، كَما نقُولُ: تذَكَّرَ زيدٌ المسْألةَ، فإذَا هِيَ صَحِيحَةٌ؛ أيْ: أنَّها لم تَزَلْ صَحِيحَةً، وأنَّها الآنَ صَحِيحَةٌ، كَما وَقَعَ العِلْمُ بها.

كذلِكَ المتَّقُونَ: مَا زالُوا مُبْصرِينَ، ولكِنْ حِينَ وَرَدَ طَيفُ الهوَى علَيهِمْ، غطَّى علَى بَصِيرتِهِمْ الثَّابتِ نورُهَا فيهِمْ، فلمَّا اسْتَيقَظُوا ذَهبَتْ سَحَابةُ الغَفْلَةِ، فأشْرَقَتْ شَمْسُ البَصِيرَةِ.

الفَائدةُ الثَّامنةُ: في هَذه الآيةِ ونظائرِهَا توسعةٌ على المتَّقينَ؛ ولُطْفٌ بالمؤْمنينَ، لأنَّه لوْ قَالَ: «إنَّ الذينَ اتَّقَوْا لا يمَسُّهُم طَيْفٌ مِنَ الشَّيطانِ»، لخرجَ مِنْ ذلكَ كُلُّ أحَدٍ إلَّا أهْلَ العِصْمَةِ، فأرَادَ -سُبحَانَه وتَعَالى- أنْ يُوسِّعَ دَوَائِرَ رَحْمته فقَال: ﴿إنَّ الذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ﴾؛ ليُعْلِمَكَ أنَّ ورُودَ الطَّيفِ علَيهِم، لا يخرجُهُم عنْ ثبوتِ حكْمِ التَّقْوى لهُم وجَرَيانِ اسمِه عليهِم، إذَا كانُوا كَما وصَفَهُم مُسْرِعِينَ بالتَّذَكُّرِ راجِعِينَ إلى الله بالتَّبَصُّرِ.

ومِثلُ هذِه الآيةِ في بَسْطِ رجَاءِ العِبادِ والتَّوسِعَةِ عليهِمْ، قولُه تَعَالى: ﴿إنَّ الله يحبُّ التَّوابِينَ ويحبُّ المتطَهِّرينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ولم يقُلْ: «يحبُّ الذِينَ لا يُذْنِبُونَ» لأنَّه لو قَال ذلِكَ لم يدْخُلْ فيه إلَّا قليلٌ، فعَلِمَ الحقُّ سُبْحانه مَا العِبادُ مُركَّبونَ علَيه مِنْ وجُودِ الغَفْلةِ، ومَا تقْتضِيهِ النَّشْأةُ الأُولى الإنْسَانيَّةُ لكَونِها رُكِّبَتْ مِنْ أمْشَاجٍ منْ نَوعِ المخَالفَةِ.

وقدْ قَالَ -سُبْحانَه وتَعَالى-: ﴿يريدُ الله أنْ يُخَفِّفَ عنكُمْ وخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. قالَ بعضُ أهْلِ العِلْم: يَعْني لَا يتَمالَكُ عِنْدَ قِيامِ الشَّهْوَةِ به، وقد قالَ تعالى: ﴿هُوَ أعْلَمُ بكُمْ إذْ أنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ، وإذْ أنتُمْ أجِنَّةٌ﴾ [النجم: ٣٢].

فَلأَجْلِ ما عَلِمَ مِنَ أنَّ الخَطأ غالِبٌ على الإنْسَانِ، فَتَحَ له بابَ التَّوبةِ ودَلَّهُ علَيهَا، ودَعَاهُ إليهَا، ووعَدَهُ القَبُولَ إذا تَابَ، والإقْبالَ عليهِ، إذَا رَجَعَ إليهِ وَآبَ.

وقَالَ ﷺ: (كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاؤن، وخَيرُ الخطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)(١)، فأعْلَمَكَ ﷺ أنَّ الخطأَ لازِمُ وجُودِكَ، بلْ عَينُ وجُودِكَ. وقالَ تعالى: ﴿والذينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشةً أو ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبِهِمْ ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلَّا الله ولم يُصرُّوا علَى ما فَعَلُوا وهُمْ يعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ولم يقُلْ: «والذِينَ لَا يَعْمَلُونَ الفَاحِشَةَ».

وقَالَ -سُبحَانه وتَعَالى-: ﴿وإذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، ولم يقُلْ: «والذِينَ لا يَغْضَبُونَ». وقالَ -سُبْحَانَه وتَعَالى-: ﴿والكَاظِمِينَ الغَيظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ولم يقُلْ: «والذِينَ لا غَيظَ لهُمْ»، فافْهَمْ ذلِكَ رَحِمَكَ الله، فهَذِه أسْرارٌ بيِّنةٌ، وأمورٌ مُتَعَيِّنَةٌ.

الفائدةُ التَّاسعةُ: تَبيينُ مراتِبِ المتذَكِّرينَ مِنَ المتَّقِينَ:

اعلَمْ أنَّ أهْلَ التَّقْوَى، إذَا مَسَّهُمْ طَيفٌ مِنَ الشَّيطَانِ، لا تَدَعُهُمْ تَقْوَاهُمْ للإِصْرَارِ علَى مَعْصِيةِ مَوْلاهُمْ، بلْ يُرْجِعُهُم إليهِ تذَكُّرُهُم، وتذكُّرُهُم على أقْسَام:

مُتَذَكِّرٌ: يتَذَكَّرُ الثَّوابَ.

ومُتَذَكِّرٌ: يتذَكَّرُ العِقَابَ.

ومُتَذَكِّرٌ: يتَذَكَّرُ الوُقُوفَ للْحِسَابِ.

ومُتذَكِّرٌ:يتذَكَّرُ مَا في تَرْكِ المَعْصِيةِ منْ جَزِيلِ الثَّوابِ.

ومُتَذَكِّرٌ:يتذَكَّرُ سَابِقَ الإحْسَانِ فَيَسْتَحي منْ وجُودِ العِصْيانِ.

---

(١) أخرجه أحمد (١٣٠٤٩)، والدارميُّ (٢٩٣٣)، والترمذيُّ (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، والحاكم (٤/ ٢٤٤)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

ومُتذَكِّرٌ: يتذَكَّرُ لَوَاحِقَ الامْتِنانِ فَيَسْتَحْيِي أنْ يُقَابِلَ ذلكَ بالكُفْرَانِ.

ومُتذَكِّرٌ: يَتَذَكَّرُ قُرْبَ الله تَعَالى مِنْه.

ومُتَذَكِّرٌ: يتَذَكَّرُ إحَاطَةَ الحقِّ سُبْحَانَه.

ومُتذَكِّرٌ: يتَذَكَّرُ نَظَرَ الحقِّ إليهِ.

ومُتذَكِّرٌ: يتَذَكَّرُ مُعَاهَدَةَ الله لَه.

ومُتَذَكِّرٌ: يتذَكَّرُ فَناءَ لذَّته وبقَاءَ مُطَالَبَته.

ومُتَذَكِّرٌ: يتذَكَّرُ وَبَالَ المخَالَفَةِ وذُلَّها، فيكُونُ لها تاركًا.

ومُتَذَكِّرٌ: يتذَكَّرُ فَوائِدَ الموافقَةِ وعِزَّهَا، فيكُونُ لها سَالِكًا.

ومُتَذَكِّرٌ: يتذَكَّرُ قَيُّومَيَّةَ الحقِّ به.

ومُتَذَكِّرٌ: يَتَذَكَّرُ عَظَمَةَ الحقِّ وسُلْطانَه.

إلى غَيرِ ذلكَ مِنْ تَعلُّقَاتِ التَّذكُّرِ، وَهِيَ: لا حَصْرَ لها؛ وإنَّما ذَكَرْنا مَا ذَكَرْنا مِنْها تأنيسًا لَكَ بِأحْوالِ المتَّقِينَ، وتَنْبيهًا على بعْضِ مَقَامَاتِ المتَبصِّرِينَ، فَافْهَمْ.

الفَائدةُ العَاشرةُ: يُمكِنُ أنْ يكُونَ قولُه -سُبْحَانه وتَعَالى-: ﴿إنَّ الذِينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ﴾ أنْ يكونَ المرادُ بالطَّيفِ هَهُنا طائفَ الهاجِسِ أو الخاطِرِ الوارِدِ مِنْ وجُودِ النَّفْسِ بإلْقَاءِ الشَّيطانِ. وسُمِّيَ طَيْفًا لأنَّه يَطِيفُ بالقَلبِ؛ وتُفَسِّرُهُ القَراءَةُ الأخْرَى: ﴿إذَا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيطَانِ﴾، فتكُونُ إحْدَى القَراءَتَينِ مُفَسِّرةً للأخْرَى؛ والهاجِسُ يَطِيفُ بالقَلْبِ، فإنْ وَجَدَ له مَسْلكًا بثُلْمَةٍ يجِدُهَا في سُورِ مَقَامِ اليقِينِ دخَلَ وإلَّا ذَهَبَ.

***

ومَثَلُ مقَامَاتِ اليقِينِ ونورِ اليقِينِ الجامع لها كَالأسْوارِ المحيطَةِ بالبَلْدَةِ وقِلاعِهَا، فالأسْوارُ هِيَ الأنوارُ، وقِلاعُهَا هيَ مقَامَاتُ اليقِينِ الَّتي هيَ دائِرةٌ بِمَدِينَةِ القَلبِ. فمَنْ أحاطَ بقَلبه سُورُ يقِينِه، وصحَّحَ مقَاماتِه التِي هيَ أسْوارُ الأنْوارِ كالقِلاعِ فلَيسَ للشَّيطَانِ إليه سَبيلٌ، ولا لَه في دَارِه مَقِيلٌ.

ألَمْ تَسْمَعْ قولَه تَعَالى: ﴿إنَّ عِبادِي لَيسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. أيْ: لأَنَّهمْ قدْ صَحَّحُوا العُبودِيَّةَ لِي، فلا هُمْ لحكْمِي منازِعُونَ ولا في تدْبيرِي متَعَرِّضُونَ، بلْ عليَّ مُتَوَكِّلُونَ، وإليَّ مُسْتَسْلِمُونَ؛ فلِذلكَ قَامَ لَهُم الحقُّ سُبْحَانه بالرِّعَايةِ، والنَّصْرِ والحِمايةِ، ووجَّهُوا هِمَمَهُم إليه، فكفَاهُم مَنْ دُونَه.

قيلَ لبعْضِ العَارِفينَ: كيفَ مُجاهَدَتُك للشَّيطَانِ؟ قالَ: ومَا الشَّيطَانُ؟! نحنُ قَومٌ صَرفْنا هِمَمَنا إلى الله تَعَالى فكَفَانا مَنْ دُونَه.

وسَمِعْتُ شَيخَنا أبَا العَبَّاس -رَحمَه الله تَعَالى- يَقُولُ: «لمَّا قَال الحقُّ تعالى: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، فقَوْمٌ فهِمُوا مِنْ هَذا الخِطَابِ: أنَّ الله طَالبَهُم بعَداوَةِ الشَّيطَانِ، فصَرفُوا هِمَمَهُم إلى عَدَاوَتِه، فشَغَلَهُم ذلكَ عنْ مَحبَّة الحبِيبِ. وقوْمٌ فهِمُوا مِنْ ذلكَ: ﴿إنَّ الشَّيطانَ لكُمْ عَدُوٌّ﴾، أيْ: وأنا لكُمْ حَبِيبٌ، فاشْتَغَلُوا بِمَحَبَّة الله فكَفَاهُم مَنْ دُونَه». ثُمَّ ذَكَرَ الحكَايةَ المتَقَدِّمَة.

فإنِ اسْتَعَاذُوا مِنَ الشَّيطَانِ، فلأجْلِ أنَّ الله تَعَالى أمَرَهُمْ بذَلكَ، لا أنَّهم يَشْهدُونَ أنَّ لغَيرِ الله مِنَ الحكْمِ شَيئًا معَهُ، وكيفَ يشْهَدُون لغَيره حُكْمًا مَعَه،

وهُمْ يسْمَعُونه يقُولُ: ﴿إنِ الحُكْمُ إلَّا لله أمَرَ ألَّا تَعْبدُوا إلَّا إيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وَقَالَ -سُبحَانه وتَعالى-: ﴿إنَّ كَيدَ الشَّيطان كانَ ضَعيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، وَقالَ -عَزَّ وجَلَّ-: ﴿إنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وَقالَ -سبحانه وتعالى-: ﴿إنَّه لَيْسَ لهُ سُلْطَانٌ على الذين آمنُوا وعَلى ربِّهم يتوكَّلُون﴾ [النحل: ٩٩]، وَقَال تعالى: ﴿ومَنْ يتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وَقالَ الله تعالى: ﴿الله وَلِيُّ الذينَ آمنُوا يُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّور﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وَقَالَ تعالى: ﴿وكانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤْمِنينَ﴾ [الروم: ٤٧].

فهذِهِ الآياتُ ونظَائرُهَا قُوتُ قُلوبِ المؤمنِينَ، ونُصْرَتُهم النَّصْرَ المبينَ، فإنِ استَعَاذُوا مِنَ الشَّيطَانِ فبأمْرِه، وإنِ استَولَوْا بنُورِ الإيمانِ عَليهِ فبِوُجُودِ نَصْرِه، وإنْ سَلِمُوا مِنْ كَيْدِه لَهُم فبتَأْيِيدِه وبرِّه.

***

قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ -رحمه الله تَعَالى-: اجْتَمَعْتُ بِرَجُلٍ في سِياحَتِي فأوْصَاني، فقَال لي: ليسَ شَيءٌ في الأقْوال أعْوَنَ عَلى الأفْعَال مِنْ «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله»، وليسَ في الأفْعَال أعْوَنَ مِنَ الفِرارِ إلى الله وَالاعْتِصَام بالله ﴿ومَنْ يَعْتَصِمْ بِالله فقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ [آل عمران: ١٠١].

ثُمَّ قَال: بِسْمِ الله، فرَرْتُ إلى الله، واعْتَصَمْتُ بالله، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بِالله، ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا الله.

«بِسْم الله» قَولٌ باللِّسَانِ صَدَرَ عَنِ القَلْبِ، «فَفِرُّوا إلى الله» وَصْفُ الرُّوح والسِّرِّ، «واعْتَصَمْتُ بالله» وَصْفُ العَقْلِ والنَّفْس، «ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا بالله» وصْفُ المُلْكِ والأمْرِ، ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا الله، ربِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ عَمَلِ الشَّيطَانِ، إنَّه عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ. ثُمَّ يقُولُ للشَّيطَانِ: هَذا عِلْمُ الله فيكَ، وبالله آمَنْتُ، وعَلَيه تَوَكَّلْتُ، وأعُوذُ بالله مِنْكَ، ولَوْلَا مَا أمَرَني مَا اسْتَعَذْتُ مِنْكَ، ومَنْ أنتَ حَتَّى أَسْتَعِيذُ بالله مِنْكَ؟. اهـ.

فقَدْ فَهِمْتَ -رَحِمَكَ الله- أنَّ الشَّيطَّانَ أحْقَرُ في قُلوبِهم أنْ يُضِيفُوا إليه قُدْرةً، أوْ يَنْسِبُوا له إرادةً، وسِرُّ الحِكْمَةِ في إيجادِ الشَّيطانِ: أنْ يكُونَ مَظْهَرًا يُنْسَبُ إليه أسْبابُ العِصْيانِ، ووُجُودُ الكُفْرانِ والغَفْلةِ والنِّسْيانِ، ألم تَسْمَعْ قولَه: ﴿ومَا أنْسَانِيه إلَّا الشَّيطانُ﴾ [الكهف: ٦٣]، ﴿هَذا مِنْ عَمَلِ الشَّيطَانِ﴾ [القصص: ١٥]، فَكَانَ سِرُّ إيجَادِهِ لِيُمْسَحَ فيه أوْسَاخُ النَّسَبِ، ولِذَلِكَ قالَ بعْضُ العَارِفينَ: «الشَّيطَانُ مِنْدِيلُ هَذه الدَّارِ، يُمْسَحُ به وَسَخُ المعَاصِي، وكُلُّ قَبِيحٍ وخَبِيثٍ، إنَّ الله تَعَالى، لَوْ شَاء أنْ لا يُعْصَى، لما خَلَقَ إبْلِيسَ».

وقالَ الشَّيخُ أبو الحَسَنِ -رحمه الله تعالى-: «الشَّيطانُ كالذَّكَرِ، والنَّفْسُ كالأُنثَى، وحُدُوثُ الذَّنبِ بيْنَهُما كَحُدُوثِ الوَلَدِ بَيْنَ الأبِ والأمِّ؛ لا أنَّهما أوْجَدَاهُ، ولكِنْ عَنْهُما كانَ ظُهُورُه».

ومَعْنَى كَلامِ الشَّيخِ هَذا: أنَّه كَما لا يَشُكُّ عَاقِلٌ أنَّ الوَلَدَ ليسَ خَلْقَ الأبِ والأمِّ، ولا مِنْ إيجَادِهِمَا ونُسِبَ إليْهِما لظُهُورِه عَنْهُما، كذلِكَ لا يَشُكُّ مُؤمِنٌ أنَّ

المَعْصيةَ ليَسَتْ مِنْ خَلْقِ الشَّيطانِ والنَّفْس، بَلْ كَانَتْ عَنْهُما لا مِنْهُما، فلظُهُورِهَا عَنْهُما نُسِبَتْ إليْهِما. فنِسْبَةُ المَعْصيةِ إلى الشَّيطانِ والنَّفْس، نِسْبَةُ إضَافَةٍ وإسْنَادٍ، ونِسْبَتُها إلى الله نِسْبَةُ خَلْقٍ وإيجادٍ، كما أنَّه خَالِقُ الطَّاعَةِ بفَضْلِه، كَذلِكَ هُوَ خَالِقُ المَعْصيةِ بِعَدْلِه، ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله، فَما هٰؤُلاءِ القَوْمِ لا يَكادُونَ يفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

وقالَ سُبْحانَه وتَعَالى: ﴿الله خَالِقُ كُلِّ شيءٍ﴾ [الرعد: ١٦] وقالَ سُبْحانه وتَعَالى: ﴿هلْ مِنْ خَالِقٍ غيرُ الله﴾ [فاطر: ٣]، وقالَ سُبحَانه وتَعَالى: ﴿أفَمَنْ يخْلُقُ، كَمَنْ لا يخْلُقُ، أفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. والآيَةُ القَاصِمَةُ للمُبتَدعَةِ المدَّعِينَ، أنَّ الله يخْلُقُ الطَّاعَةَ، ولا يخْلُقُ المَعْصيةَ، قولُه تَعالى: ﴿والله خَلَقَكُمْ ومَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. فإنْ قَالُوا: قَدْ قالَ الله تَعَالى: ﴿إنَّ الله لا يَأمُرُ بالفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؟! فالأمْرُ غيرُ القَضَاءِ.

فإنْ قالُوا: قَدْ قال الله تَعَالى: ﴿ومَا أصَابَكَ مِنْ حَسَنةٍ فمِنَ الله ومَا أصَابَكَ مِنْ سَيِّئةٍ فَمِنْ نفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]؟! فهُوَ على هَذا التَّفصِيلِ تَعْليمٌ للْعِبادِ التَّأدُّبَ مَعَه، فأمَرَنا أنْ نُضِيفَ المحاسِنَ إليه؛ لأنَّها اللَّائقةُ بوجُودِه، والمساوئَ إلينا؛ لأنَّها اللَّائقةُ بوجُودِنا، قيامًا بحُسْنِ الأدَب، كَما قَالَ الخضرُ عليه السلام: ﴿فأرَدْتُ أنْ أعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقالَ: ﴿فَأرَادَ رَبُّكَ أنْ يَبْلُغَا أشُدَّهُما﴾ [الكهف: ٨٢]، وقالَ إبراهيمُ عليه السلام: ﴿وإذَا مَرِضْتُ فهُوَ يشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]. ولَم يقُلِ الخضرُ: «فأرَادَ رَبُّكَ أنْ يَعِيبَها»، كما قالَ: ﴿فأرادَ رَبُّكَ أنْ يَبْلُغَا أشُدَّهُما﴾، فأضَافَ العَيْبَ إلى نفْسِه، والمحَاسِنَ إلى سَيِّدِه.

وكَذلكَ إبرَاهيمُ عليه السلام لم يقلْ: «فإذَا أمْرضَني فهُو يَشْفيني»، بلْ قال: ﴿وإذا مَرضْتُ فهُوَ يَشْفين﴾، فأضَافَ المرَضَ إلى نفسه، والشِّفاءَ إلى ربِّه، معَ أنَّ الله تَعالى هُوَ فاعلُ ذلكَ حَقيقَة وخَالقُه. فقولُه تَعالى: ﴿مَا أصَابَكَ منْ حَسَنة فمنَ الله﴾ أيْ: خَلقًا وإيجادًا، ﴿ومَا أصَابَكَ منْ سَيِّئة فمنْ نفسكَ﴾ أيْ: إضافةً وإسْنادًا.

كما قالَ ﷺ: (الخيرُ بيدَيْكَ، والشَّرُّ ليسَ إليْكَ)[1]، فَقَدْ علمَ ﷺ، أنَّ الله خَالقُ الخيرِ والشَّرِّ، والنَّفْع والضُّرِّ، ولكنِ التَزَمَ أدبَ التَّعْبيرِ فَقَال: «الخيرُ بيدَيْكَ والشَّرُّ ليسَ إليكَ»، على مَا بيَّنَاهُ فَافْهَمْ.

فإنْ قَالُوا: إنَّ الحقَّ سُبْحانه مُنزَّهٌ عنْ أنْ يخْلُقَ المعْصيَةَ؛ لأنَّها قَبيحةٌ، والحقُّ سُبْحَانَه مُنزَّهٌ أنْ يَخلُقَ القَبائحَ؟ قُلْنا: المعْصيةُ فعْلٌ قَبيحٌ منَ العَبْدِ؛ لأنَّها مخالفَةٌ للأَمْر، إذِ القُبحُ لا يَرْجعُ إلى ذَاتِ المنْهيِّ عنه ؛ولكنْ لأجْلِ تَعلُّقِ النَّهْيِ به، كَما أنَّ الحُسْنَ لا يتعَلَّقُ بذَاتِ المأمورِ به، ولكنْ بمَعْنى تَعلُّقِ الأمْرِ به فافْهَمْ.

ثُمَّ إنَّ الحقَّ تَعَالى يجبُ تنْزيهَهُ عنْ هَذا التَّنزيه، وذَلكَ أنَّهمْ إذَا قَالُوا: تَعالى الله أنْ يَخْلُقَ المعْصيَةَ؟ قُلْنَا: تَعالى الله أنْ يكُونَ في مُلْكه مَا لا يُريدُ. فافْهَمْ هَدانا الله وَإيَّاكَ إلى الصِّراطِ المستَقيم، وأقَامَنا عَلى الدِّينِ القَويم بفَضْله.

***

(١) أخرجه مطوَّلًا مسلمٌ (٧٧١)، وغيره من حديث الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعًا.

تقرير وبيان
لذكر قواعد التدبير ومنازعة المقادير

قالَ الله تعالى: ﴿ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ولقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيا وإنَّه فِي الآخِرَةِ لمِنَ الصَّالحِينَ * إذْ قَالَ لَهُ ربُّه أسْلِمْ قَالَ أسْلَمْتُ لرَبِّ العَالمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٩-١٣٠]. وقالَ: ﴿إنَّ الدِّينَ عِنْدَ الله الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وقالَ تَعَالى: ﴿مِلَّةَ أبِيكُمْ إبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. وقالَ تَعَالى: ﴿فَلَهُ أسْلِمُوا﴾ [الحج: ٣٤]. وقالَ تَعَالى: ﴿فإنْ حَاجُّوكَ فقُلْ أسْلَمْتُ وجْهِيَ لله ومَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقالَ تَعَالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيرَ الإسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وقالَ: ﴿ومَنْ يُسْلِمْ وَجْهَه إلى الله وَهُوَ مُحْسِنٌ فقَدِ اسْتَمْسَكَ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

وقالَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وألْحِقْنِي بالصَّالحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وقالَ: ﴿وأنَا أوَّلُ المسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٣]، إلى غَيْرِ ذَلِكَ..

فاعلم أنَّ هَذا التَّكْرارَ لذِكْرِ الإسْلامِ تَنْوِيهٌ لقَدْرِهِ، وتَفْخِيمٌ لأمْرِهِ.

والإسْلامُ لَهُ ظَاهِرٌ وبَاطِنٌ: فظَاهِرُهُ الموافَقةُ لله تَعَالى، وباطِنُه عَدَمُ المُنَازَعَةِ لَهُ. فالإسْلامُ حَظُّ الهيَاكِلِ، وعَدَمُ المُنَازَعةِ والاسْتِسْلامُ حظُّ القُلوبِ، فالإسْلامُ كالصُّورَةِ، والإسْتِسْلامُ هُو رُوحُ تِلْكَ الصُّورَةِ. فالإسْلامُ ظَاهِرٌ، والاسْتِسْلامُ باطِنُ ذلكَ الظَّاهِرِ.

فالمسْلِمُ مَنْ أسْلَمَ نفْسَه إلى الله، فكَانَ ظَاهِرًا بامْتِثال أمْرِه، وبَاطِنًا بالاسْتِسْلام إلى قَهْرِه.

وتَحقِيقُ مَقَام الاسْتِسْلام بُعْدُ المنازَعَة لله في أحْكَامه، والتَّفويضُ لهُ في نَقْضه وإبْرَامه، فمَنِ ادَّعَى الإسْلَامَ طُولِبَ بالاسْتِسْلامِ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١، النمل: ٦٤].

خروج إبراهيم عليه السلام عن التدبير لنفسه

ألَا تَرَى أنَّ إبْراهِيمَ عليه السلام، لما قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ، قَالَ: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالمينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، فَلَمَّا زُجَّ به في المنْجَنِيقِ اسْتَغَاثَتِ الملائكَةُ قائلةً: يا ربَّنا! هَذا خَلِيلُكَ قدْ نَزَل به ما أنتَ به أعْلَمُ» فقَالَ الحقُّ سُبْحَانه وتَعَالى: «اذْهَبْ إليه يا جِبْرِيلُ، فإنِ اسْتَغَاثَ بكَ فأغِثْه، وإلَّا فَاتْرُكْني وخَلِيلِي» فلمَّا جَاءَهُ جَبْرائِيلُ عليه السلام في أفُقِ الهوَاءِ قال: ألَكَ حَاجَةٌ؟ قالَ: أمَّا إلَيْكَ فَلَا، وأمَّا إلى الله، فَبَلى. قَالَ: فاسْألْه. قَالَ: «حَسْبي مِنْ سُؤَالي عِلْمُهُ بِحَالي»(١).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الرِّقة والبكاء» (١٦٥)، وأبو نعيم في الحلية (١٦٥)، وغيرهما، عن مقاتل وسعيد من قولهما، وروي عن غيرهما، ولا أصل له مرفوعًا. وذكره البغويُّ في «التفسير» (٣/ ٢٩٤) بصيغة التمريض عن كعب رضي الله عنه.

فلَمْ يَسْتَنْصِرْ بغَيرِ الله، ولا جَنَحَتْ هِمَّتُه بغَيرِ الله، بَل اسْتَسْلَم لحُكْم الله مُكْتَفِيًا بتَدْبيرِ الله لَه عَنْ تَدْبيره لنَفْسه، وبرِعَايةِ الحقِّ لَه عنْ رِعَايَته لها، وبعِلْم الحقِّ سُبْحانَه، عنْ سُؤالِه؛ عِلْمًا مِنه أنَّ الحقَّ به لَطِيفٌ في جَميعِ أحْوَالِه.

فأثْنَى الله تَعَالى عَلَيه بقَولِه: ﴿وإبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، ونجَّاهُ مِنَ النَّارِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وسَلَامًا عَلى إبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

قَالَ أَهْلُ العِلْم: «لوْ لَمْ يقُلِ الحقُّ سُبْحَانه: ﴿وسَلامًا﴾ لأهلَكَهُ بَرْدُها، فخَمَدتْ تِلْكَ النَّارُ». وقالَ أَهْلُ العِلْمِ بأخْبارِ الأنْبيَاءِ -عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ-: «لم يَبْقَ ذَلكَ الوقْتَ نَارٌ بمَشَارِقِ الأرْضِ ولا بمَغَارِبها إلا خَمَدَتْ ظَانَّةً أنَّها المعْنِيَّةُ بالخِطَابِ» فقِيلَ: إنَّه لَمْ تُحْرِقِ النَّارُ مِنْهُ إلَّا قَيْدَهُ[1].

***

فائدةٌ جَلِيلَةٌ: انْظُرْ إلى قَوْلِ إبرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لما قَالَ له جَبرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ألَكَ حَاجةٌ؟» قالَ: «أمَّا إليكَ فلَا»، ولم يقُلْ «ليسَ لي حَاجةٌ»؛ لأنَّ مقَامَ الرِّسَالَةِ والخُلَّةِ يَقْتَضِي القِيامَ بصَرِيحِ العُبودِيَّةِ، ومِنْ لازِمِ مَقَامِ العُبُودِيَّةِ إظْهارُ الحاجَةِ إلى الله تَعَالى، والقِيامُ بينَ يديْه بوَصْفِ الفَاقَةِ، إليه، ورَفْعُ الهِمَّةِ عَمَّا سِوَاهُ، فنَاسَبَ ذَلكَ أنْ يَقُولَ: «أمَّا إليْكَ فَلَا».

(١) لقولِه تعالى: ﴿على إبْراهيم﴾ أي وحدَه دُونَ قَيْدِه، فانظر كيف عملَتْ بالإحراقِ في القيدِ، وبالبرد والسلام في إبراهيم في آنٍ واحد.

فَجَمَعَ في كَلامه هَذَا إظْهَارَ الفَاقَةِ إلى الله، ورَفعَ الهِمَّةِ عمَّا سِوَاهُ. لا كَما قَالَ بعْضُهُمْ: «لا يَكُونُ الصُّوفِيُّ صُوفِيًّا، حتَّى لا يَكُونَ لَهُ إلى الله حَاجَةٌ»، وهَذَا كَلامٌ لا يَليقُ بأهْلِ الاقْتِدَاءِ المكَمَّلِينَ[1]، مَعَ أنَّه مُؤَوَّلٌ لقَائله بأنَّ مُرَادَهُ: أنَّ الصُّوفِيَّ قَدْ تحقَّقَ بأنَّ الله قَدْ قَضَى حَوائِجَه مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَه، فَلَيسَ لَه إلى الله حَاجَةٌ إلا وَهِيَ مَقْضِيَّةٌ في الأزَلِ، ولا يلزَمُ مِنْ نَفْيِ الحَاجَةِ نَفْيُ الاحْتياجِ. والتَّأويلُ الثَّاني: إنَّما قَالَ «لا يكُونُ لَه إلى الله حَاجَةٌ»، أيْ: إنَّه إنَّما يطْلُبُه وليسَ همَّتُه الطَّلَبَ منْهُ.. وشَتَّانَ بينَ طَالِبِ الله، وطَالِبٍ منَ الله.

وقدْ يكُونُ مُرادُه بقَوْلِه: «حتَّى لا يَكُونَ له إلى الله حاجَةٌ» أنَّه مُفَوِّضٌ إلى الله، مُسْتَسْلِمٌ لَه، فَليسَ لهُ مَعَ الله مُرادٌ إلا مَا أرَادَ.

***

فائدَةٌ جَليلةٌ أيضًا: وذلِكَ أنَّ جَبْرائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا قَالَ لإبراهِيمَ: «أَلَكَ حاجةٌ؟» قَالَ: «أمَّا إليْكَ فَلا، وأمَّا إلى الله فبَلى». قِيلَ: عَلِمَ جبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّه لا يَسْتَغِيثُ بِه، وأنَّ قلْبَه لا يَشْهَدُ إلَّا الله عزَّ وجَلَّ وحْدَه، فقالَ لَه حِينَئذٍ: «سَلْهُ».

أيْ: إنْ [لَمْ] تَسْتَغِثْ بي التِزَامًا مِنْكَ عدَمَ التَّمَسُّكِ بالوَسَائِطِ، فَسَلْ ربَّكَ، فإنَّه أقرَبُ إليكَ مِنِّي، فقَالَ إبرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُجِيبًا لَهُ: «حَسْبِي مِنْ سُؤَالي عِلْمُه بِحَالي».

(١) لأن الحاجة إلى الله تعالى باقية ودائمة لا تزول، تحققا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

أيْ: إنِّي نظَرْتُ فرَأيتُه أقْربَ إليَّ مِنْ سُؤالي، ورَأيتُ سُؤالي مِنَ الوسَائط، وأنَا لا أريدُ أنْ أتَمسَّكَ بِشَيءٍ دُونَه؛ ولأنِّي عَلِمْتُ أنَّ الحقَّ سُبحانَه وتَعالى عَالمٌ فلا يَحتاجُ أنْ يُذَكَّرَ بِسُؤالٍ، ولا يجُوزُ عليه الإهْمَالُ، فاكْتَفَيْتُ بعِلْم الله عَنِ السُّؤال، وعَلِمْتُ أنَّه لا يَدَعُني مِنْ لطفه في كُلِّ حَالٍ، وهَذا هُوَ الاكْتِفاءُ بالله تَعالى والقِيامُ بحُقُوقِ حَسْبِيَ الله.

وكانَ شَيخُنَا أبو العَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقُولُ في قَوْلِه تعالى: ﴿وإبراهِيمَ الَّذي وفَّى﴾، قَال: وفَّى بِمُقْتَضَى قولِهِ: «حَسْبِي الله».

وقال بَعْضُهُم: سَلَّم طَعَامه لِلضِّيفَانِ، وولَدَهُ للقُرْبانِ، وجسَدَه للنِّيرَانِ؛ فأثْنَى الحقُّ عليهِ بقوله ﴿وإبْرَاهِيمَ الَّذي وَفَّى﴾.

***

فائدةٌ جَليلةٌ: اعلمْ أنَّ الملائكَةَ لما قالَ لهمُ الحقُّ سبْحَانه وتعالى: ﴿إنِّي جَاعلٌ في الأرْضِ خَليفةً﴾، يَعني آدَمَ وذُرِّيَّتَه، قالُوا: ﴿أتجعلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ، ونَحْنُ نُسبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ؟ قالَ إنِّي أعْلمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فكانَ عدمُ اسْتِغَاثَةِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بجِبْرائيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذلكَ الموْطِنِ احْتِجَاجًا منَ الله عَلَيهم، كأنَّه يقُولُ: كيفَ رأيتُمْ عَبْدِي هَذا يا مَنْ قال ﴿أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟! فظهَرَ بِذَلِكَ قولُه -سُبحَانَه وتَعَالى-: ﴿إنِّي أعْلَمُ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

جَاءَ في الحَديثِ عنهُ ﷺ قَالَ: (يتَعَاقَبونَ فيكُمْ مَلائكَةٌ باللَّيل ومَلائكَةٌ بالنَّهار، فَيَصْعدُ الذينَ باتُوا فيكُمْ فيسْأَلُهم وهُوَ أَعْلَمُ: كَيفَ تَركْتُمْ عِبادي؟ فيقُولُونَ: أتَيْناهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ، وتَرَكْنَاهُمْ وهُمْ يُصَلُّونَ)[1]. قَالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «كأنَّ الحقَّ سُبْحَانَه وتَعَالى يقُولُ لهُم: يا مَنْ قَال: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيهَا ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾، كيفَ تَركْتُمْ عِبَادي؟».

فكَان مرادُ الحقِّ سبحانه وتَعَالى بإرْسَال جَبْرائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إظْهارَ رُتْبةِ الخليلِ عند مَلائِكته، وتَبْيينًا لشَرَفِ قَدْرِهِ، وفَخَامَةِ أمْرِه، وكَيفَ يُمْكِنُ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يَسْتَغِيثَ بِشَيءٍ دُونَه وهُو لا يَرى إلا إيَّاه، ولا يَشْهَدُ سِوَاه.

وإنَّما سُمِّيَ الخليلُ خَليلًا، لأنَّه تَخَلَّلَ سِرُّه بِمَحَبَّةِ الله وعَظَمَته وأحَدِيَّته، فلَمْ يبقَ فيهِ مُتَّسَعٌ لغَيرِهِ، كَما قِيلَ[2]:

قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ منِّي * وبِذَا سُمِّيَ الخَليلُ خَليلَا
فإذَا مَا نَطَقْتُ كُنْتَ كَلامِي * وإذَا مَا صَمَتُّ كُنْتَ الدَّلِيلَا

***

تنْبيهٌ وإعْلامٌ: اعْلَمْ أنَّ الحقَّ سُبْحَانَه وتَعَالى بَسَطَ سِر إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بنُورِ الرِّضَا وأعْطَاه رُوحَ الاسْتِسْلامِ، وصَانَ قَلْبَه عَنِ النَّظرِ إلى الأنَامِ، فما كانتِ النَّارُ

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٥٥)، ومسلمٌ (٦٣٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(٢) للبحتري، مع اختلاف في ألفاظ البيت الثاني عما هو وارد في ديوانه، فالثابت في ديوانه:
قَدْ تَخَلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوحِ مِنِّي * وَبِذَا سُمِّيَ الخَلِيلُ خَلِيلَا
وإذا مَا نطَقْتُ كُنتَ صَحِيحًا * وإذا ما سَكَتُّ كُنْتَ عَلِيلَا

عليه بَرْدًا وسَلامًا إلَّا لَمَّا كَانَ قَلْبُه مُفَوِّضًا إلى الله اسْتِسْلامًا؛ فعَنِ الاسْتِسْلام كانَ ﷺ، وعن تَصْحيحِ باطِنِ المقَامِ كانَ مَا ظَهَرَ عَلَيْهِ منَ الإجْلالِ والإعْظامِ.

فافْهَمْ منْ ذلكَ أيُّها المؤمِنُ أنَّ مَنِ اسْتَسْلَمَ إلى الله في وارِدَاتِ الامْتِحَانِ أعَادَ اللهُ عَليهِ شَوْكَهَا رَيحانًا، وخَوفَها أمَانًا.

فإذا قَذَفَكَ الشَّيطانُ في مَنْجَنيقِ الامْتحَانِ، فعَرَضَتْ لَكَ الأكْوانُ قَائلةً: «ألكَ حَاجةٌ؟» فقُلْ: «أمَّا إليكِ فلَا، وأمَّا إلى الله فبَلَى»، فإنْ قَالتْ لكَ: «سَلْهُ»، فقُلْ: «حَسْبي مِنْ سُؤالي، عِلْمُه بِحَالي».

فإنَّ الله يُعيدُ عَلَيكَ نارَ الدُّنيا بردًا وسَلامًا، ويُعْطِيكَ مِنَّةً وإكْرامًا؛ لأنَّ الله سُبحَانه وتَعالى فتَحَ بالأنْبياءِ والرُّسُلِ سَبيلَ الهدَى، فسَلَكَ وراءَهُم المؤمنون، والتزَمَ اتِّباعَهُم الموقِنون، كما قالَ سُبحَانه وتَعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُواْ إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقالَ في شَأْنِ يُونُسَ ﷺ: ﴿فاسْتَجَبْنا لَهُ ونَجَّيْناهُ مِنَ الغَمِّ وكَذَلكَ نُنْجي المؤْمِنينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، أيْ: كَذلكَ نُنْجي المؤْمِنينَ المتَّبِعِينَ لآثَارِه، المتَشَوِّقِينَ لأنْوَارِه، الطَّالِبينَ مِنَ الله بالذِّلَّةِ والافْتِقارِ، واللَّابِسِينَ شِعَارَ المسْكَنَةِ والانكِسَارِ.

***

انْعِطَافٌ: في قصَّة إبرَاهيم عليه السلام هذه بيانٌ للمُعْتَبرِينَ، وهدايةٌ للمُتَبَصِّرِينَ، وهُوَ أنَّ مَنْ خَرَجَ عَنْ تدْبيره لنَفْسِه، كانَ الله سُبْحانه وَتَعالى هُوَ المتَوَلِّي بحُسْنِ التَّدْبيرِ له. ألا تَرى أنَّ إبراهِيمَ عليه السلام لمَّا لمْ يدبِّرْ لنَفْسِه، ولَا اهْتَمَّ بها بَلْ ألقَاهَا إلى الله تعالى وأسْلَمَهَا إلَيهِ، وتَوَكَّلَ في كُلِّ شَأْنِه عَليهِ، فلمَّا كَانَ كَذَلِكَ، كَانَ عَاقِبَةُ اسْتِسْلامِه وجُودَ السَّلامَةِ والإكرَام، وبَقَاءَ الثَّناءِ عليهِ على ممَرِّ الأيَّام.

وقدْ أمَرنا الله تَعَالى أنْ لا نَخْرُجَ عَنْ مِلَّتِه، وأنْ نَرْعَى حقَّ تَسْمِيَتِه بقَوْلِه تَعَالى: ﴿مِلَّةَ أبيكُمْ إبرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ المسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فحَقٌّ على كُلِّ مِنْ كانَ إبراهِيميًّا، أنْ يكُونَ عَنْ تَدبيرِه لنَفْسِه بريًّا، ومِنْ مُنازَعَةِ الله خَلِيًّا، ومِنَ اعْتِراضِهِ عَرِيًّا، ﴿ومَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبْراهِيمَ إلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَه﴾ [البقرة: ١٢٩]، ومِلَّتُه لازِمُهَا التَّفْوِيضُ إلى الله تعَالى، والاسْتِسْلامُ في وَارِدَاتِ الأحْكَام، واعْلَمْ أنَّ المرادَ هُوَ أنْ لا يكُونَ لكَ معَ الله مُرادٌ.

ولنَا في هَذا المعْنَى شِعْرٌ:

مُرادِي مِنْكَ نِسْيانُ المرادِ * إذَا رُمْتَ السَّبِيلَ إلى الرَّشَادِ
وأنْ تَدَعَ الوجُودَ فَلا تَرَاهُ * وتُصْبِحَ ماسِكًا حَبْلَ اعْتِمادِ
إلى كَمْ غَفْلةٌ عَنِّي وإنِّي * عَلى حِفْظِ الرِّعَايةِ والودادِ
إلى كَمْ أنتَ تَنْظُرُ مُبدَعَاتِي * وتُصْبِحُ هائِمًا في كُلِّ وَادِي

وتَرْكُ أنْ تميلَ إلى جَنابي * لعَمرُكَ قَدْ عَدَلْتَ عَنِ السَّدَاد
ووُدِّي فيكَ لَوْ تَدْري قَديمٌ * ويومَ ألسْتُ يَشْهَدُ بانفِرادي
فهَلْ ربٌّ سِوايَ فتَرتَجيه * غدًا يُنْجيكَ مِنْ كُرَبٍ شِدَاد
فوصْفُ العَجْزِ عَمَّ الكونَ طُرًّا * فمُفْتَقِرٌ بمُفْتَقِرٍ يُنادي
فَبي قَدْ قَامَتِ الأكْوانُ طُرًّا * وأظْهَرْتُ المظَاهِرَ مِنْ مُرادي
أفي دَاري وفي مُلْكِي ومِلْكِي * تُوَجِّهُ للسِّوَى وجْهَ اعْتِمادِ
فحَدِّقْ أعْيُنَ الإيمانِ وانْظُر * تَرَى الأكْوَانَ تُؤذِنُ بالنَّفاد
فمِنْ عَدَمٍ إلى عَدمٍ مَصيرٌ * وأنتَ إلى الفَنَا لا شَكَّ غَادي
وهاخُلَعي عليكَ فَلا تُزِلْها * وصُنْ وجْهَ الرَّجَاءِ عَنِ العبادِ
ببَابي أوْقِفِ الآمَالَ طُرًّا * ولَا تَأْتِ لحَضْرَتِنَا بزَادِ
ووصْفُكَ فالْزَمَنْهُ وكُنْ ذَليلًا * تَرى مِنِّي المنَى طَوْعَ القِيادِ
وكُنْ عبدًا لنَا والعَبْدُ يرضَى * بما تقْضِي الموَالي مِنْ مُرادِ
أأسْتُرُ وَصْفَكَ الأدْنَى بوَصْفِي * فتَجْزِي ذاكَ جَهْلًا بالعِنَادِ
وهَلْ شَارَكْتَنِي في الملْكِ حَتَّى * غَدَوْتَ مُنازِعِي والرُّشْدُ بادِ
فإنْ رُمْتَ الوُصُولَ إلى جَنابِي * فهَذِي النَّفْسُ فاحْذَرْهَا وعَادِ
وخُضْ بَحْرَ الفَناءِ عَسَى تَرانا * وأعْدِدْنا إلى يَوْمِ المعَادِ
وكُنْ مُسْتَمْطِرًا مِنَّا لِتَلقَى * جَميلَ الصُّنْعِ مِنْ مَوْلًى جَوادِ
وَلا تَسْتَهْدِ يومًا مِنْ سِوانا * فَما أحَدٌ سِوانا اليَومَ هَادِ

***

تنبيهٌ وإعلامٌ: اعْلَمْ أنَّ التَّدْبيرَ عَلى نَوْعَين: تَدْبيرٌ محْمُودٌ، وتَدبيرٌ مذْمُومٌ.

التدبير المحمود والتدبير المذموم

فالتَّدْبيرُ المذْمُومُ: هُوَ كُلُّ تدبيرٍ ينعَطِفُ على نفسك بوجُود حظِّها، لا لله قيامًا بحقِّه، كالتَّدبيرِ في تحصيل مَعْصيةٍ، أوْ في حَظٍّ بوجُود غفْلةٍ، أو طاعةٍ بوجُود رياءٍ وسُمْعةٍ، ونَحْو ذلكَ، وهذا كُلُّه مذْمُومٌ؛ لأنه إمَّا أنْ يوجِبَ عقابًا أوْ يُوجِبَ حِجابًا. ومَنْ عَرَفَ نِعْمةَ العَقْلِ اسْتَحْى مِنَ الله أنْ يَصْرِفَ عقْلَه إلى تَدبيرِ مَا لا يُوصِلُه إلى قُرْبِه، ولا يكونُ سَبَبًا لوجُودِ حُبِّه.

والعَقْلُ أفضَلُ ما مَنَّ الله به على عِبادِه؛ لأنه سُبْحَانه وتعَالى خلَقَ الموجُوداتِ وتفضَّلَ عليهَا بالإيجادِ، وبدَوام الإمْدادِ. فهُما نِعمتَانِ ما خَرجَ موجُودٌ عنهُما، ولا بُدَّ لكُلِّ مكوَّنٍ منْهُما: نِعْمَةُ الإيجادِ، ونِعْمَةُ الإمْدادِ، وربَّما يُفْهَمُ منْ هَهُنا قولَه تعالى: ﴿ورحْمتِي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ﴾[1] [الأعراف: ١٥٦].

لكنْ لَمَّا اشتركَتْ الموجُوداتُ في إيجَاده وإمْداده، أرادَ الحقُّ تعالى أنْ يُميِّزَ بعضَها على بَعْضٍ، ليُظهِرَ سَعةَ تعلُّقاتِ إرادته، واتِّساعَ مَشيئتِه، فمَيَّزَ بعْضَ الموجُودات بالنُّمُوِّ كالنَّباتِ والحيوانِ البَهيمِيِّ والآدميِّ، فظهرَتِ القُدْرةُ فيه ظُهورًا أجْلى منْ ظُهُورِها في الموجُوداتِ الغيرِ نَامِيةٍ.

فلمَّا اشْتَرَكَتْ هذه الثَّلاثةُ في النُّمُوِّ أفردَ الحيَوانَ الآدَميَّ، وغيرَ الآدَميِّ بوجُودِ الحياةِ، فشَارَكَ الآدَميَّ في ذلك الحيوانُ البَهيميُّ، فظَهَر بقُدرَتِه فيه

(١) أي: وسعت الأكوان كلها، بروزا من العدم، وبقاء بالكرم.

ظُهورًا أجْلى مِنْ ظُهوره في النَّاميات، فأرادَ أنْ يُمَيِّزَ الآدميَّ عنه فأعْطَاهُ العقْلَ وفضَّلَه لذَلِكَ على الحيوانِ، وكمَّلَ به نِعْمتَه على الإنْسانِ.

وبالعَقْلِ ووفُوره وإشْراقِه ونورِه، تتِمُّ مَصَالحُ الدُّنيا والآخرَة، فصَرْفُ نِعْمَةَ العقْلِ إلى تَدْبيرِ الدُّنيا الَّتي لا قَدْرَ لها عنْدَ الله، كفْرٌ لِنعْمةِ العَقْلِ، وتَوجُّهُه إلى الاهْتِمام بإصْلاحِ شَأنِه في مَعَادِه، قيامًا بوجُود شُكْرِ المُحْسِنِ إليه، والمفيض مِنْ نُورِه علَيه، أحقُّ بِهِ وأحْرى لهُ وأفْضَلُ لهُ وَأوْلى.

فلَا تَصْرِفْ عقلَكَ الذي مَنَّ به عليكَ في تدْبيرِ الدُّنيا، الَّتي هِيَ كَما أخْبرَ عنْهَا النَّبيُّ ﷺ بقَوْلِه: (الدُّنيا جِيفَةٌ قَذِرَةٌ)[1].

وكَما قَال ﷺ للضَّحَّاكِ: (ما طَعامُكَ؟) قالَ: اللَّحْمُ واللَّبنُ يا رسُولَ الله قال: (ثُمَّ يعُودُ إلى مَاذَا؟) قالَ: ما عَلِمتَ يا رسُولَ الله، قالَ: (فإنَّ الله جَعَلَ ما يَخْرُجُ مِنِ ابنِ آدَمَ مَثلًا لِلدُّنْيا)[2].

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وأورده أبو الشيخ في «التفسير» كما في «الدر المنثور» للسيوطيِّ (٤/ ٣٤٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٣٨)، وغيره من حديث عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ موقوفًا بلفظ: «الدُّنيا جيفةٌ فمن أرادها فلْيَصْبِرْ على مُخالَطَة الكلاب»، وقال السيوطيُّ في «الدرر المنتثرة» (ص ١١٩، رقم ٢٣٠): «وأخرج الديلميُّ عن عليٍّ مرفوعًا: «أوحى الله تعالى إلى داودَ: يا داودُ مَثَلُ الدُّنيا كمَثَلِ جيفةٍ اجْتَمَعَتْ عليها الكلابُ يَجُرُّونَهَا...» الحديث. وقد نظم الإمام الشافعي هذا المعنى فقال:

ومَن يَذُق الدُّنيا فإنِّي طَعِمْتُها * وسِيقَ إلينا عَذْبُها وعذابُهـــا
فلم أرهـــا إلَّا غُرورًا وباطلًا * كما لاحَ في ظهرِ الفلاةِ سَرابُها
وما هي إلَّا جيفةٌ مُستحيلةٌ * عليها كلابٌ هَمُّهنَّ اجتذابُها
فإن تَجْتَنِبْها كنتَ سِلْمًا لأهلها * وإن تَجْتَذِبها نازعَتْك كلابُهـــا

(٢) أخرجه أحمد (١٥٧٤٧)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٨/ ٢٩٩)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٥٢٦٦)،=

وقال ﷺ: (لَوْ كَانَتِ الدُّنْيا تزنُ عنْدَ الله جَناحَ بعُوضَةٍ، ما سَقى كَافرًا منْهَا شَرْبةَ مَاءٍ)(1).

ومَثَلُ مَنْ صَرفَ عقْلَه في تَدْبيرِ الدُّنْيا الَّتي هذه الصِّفَاتُ صِفاتُها، كَمَثَلِ مَنْ أعْطَاهُ الملِكُ سَيْفًا عَظِيمًا قدْرُه، مُفَخَّما أمْرُه، لمْ يَسْمَحْ لكَثيرٍ مِنْ رعَاياهُ بمِثْله، ليقْتُلَ به أعْدَاءَه، ويَتَزَيَّنَ بحَمْله، فعَمَدَ آخذُ هذا السَّيفِ إلى الجِيَفِ، فجَعَل يضْرِبُها حتَّى تَفَلَّل ضِياهُ، وكَلَّ شَبَاهُ، وتَغَيَّرَ حُسْنُه وسَنَاهُ، فجديرٌ إذا اطَّلعَ الملِكُ على هَذهِ الحالةِ منه أنْ يأخُذَ السَّيفَ مِنْه، ويُعْظِمَ عُقُوبتَه، على سُوءِ فِعَالِه، وأنْ يمنَعَه مِنْ وجُودِ إقبالِه.

فقدْ تَبيَّنَ مِنْ هَذا أنَّ التَّدبيرَ على قِسمين: تَدْبيرٌ مَحْمُودٌ، وتَدْبيرٌ مَذْمُومٌ. فالتَّدبيرُ المحمُودُ: هُو مَا كَانَ تدْبيرًا بما يقَرِّبُكَ مِنَ الله، كَالتَّدْبيرِ في بَراءَةِ الذِّمَمِ مِنْ حُقُوقِ المخْلُوقينَ: إمَّا وفَاءً وإمَّا اسْتِحْلالًا، وتَصْحِيحِ التَّوبةِ إلى ربِّ العَالمينَ، والفِكْرةِ فِيما يؤَدِّي إلى قَمْعِ الهوَى المُرْدي والشَّيطانِ المُغْوي، وكُلُّ ذلِكَ مَحْمُودٌ لا شَكَّ فيه، ولأجْلِ ذلِكَ قَالَ رسُول الله ﷺ: (فِكْرةُ سَاعةٍ خَيرٌ مِنْ عبَادَةِ سَبعينَ سنةً)(2).

=وغيرهم من حديث الضَّحَّاك بن سفيان الكلابيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وقال الهيثميُّ في «المجمع» (10/ 288): «ورجال الطبرانيِّ رجال الصحيح غير علي بن زيد بن جدعان، وقد وُثِّق». وله شاهدٌ من حديث سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإسناد صحيح.

(1) أخرجه الترمذيُّ (2320)، والطبرانيُّ في «الكبير» (6/ 157)، وأبو نعيم (3/ 253)، والحاكم (4/ 306)، وغيرهم من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا، وصحَّحه الترمذيُّ والحاكم.

(2) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (43) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «ستِّينَ سَنَةً». وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (3/ 144)، واقتصر الحافظ العراقيُّ على تضعيفه كما=

والتَّدْبيرُ للدُّنيا على قِسْمَين: تَدْبيرُ الدُّنيا للدُّنيا، وتَدْبيرُ الدُّنيا لِلْآخِرَةِ.

التدبير للدنيا والتدبير للآخرة

فتَدْبيرُ الدُّنْيَا للدُّنْيا: هُوَ أنْ يدبِّرَ في أسْبابِ جَمعِها افْتِخَارًا بها واسْتِكْثارًا، وكُلَّما زِيدَ فِيهَا شَيئًا ازْدَادَ غَفْلَةً وَاغْترارًا، وأمَارةُ ذلِكَ أنْ يَشْغَلَه عَنِ الموافقَةِ، ويُؤدِّيه إلى المخَالَفةِ.

وتَدْبيرُ الدُّنْيا لِلْآخِرَةِ: كَمَنْ يُدَبِّرُ المُتاجَرةَ والمَكاسِبَ والغِرَاسَةَ لِيأْكُلَ مِنهَا حَلالًا، ولِيُنْعِمَ بِهَا على ذَوِي الفَاقَةِ إفْضالًا، وليصُونَ بها وَجْهَهُ عَنِ النَّاسِ إجْمالًا. وأمَارَةُ مَنْ طَلَبَ الدُّنيا لله تَعالى عَدَمُ الاسْتِكْثارِ وَالادِّخارِ والإسْعافِ مِنْهَا، والإيثارُ.

وللزَّاهِدِ في الدُّنيا عَلامَتَانِ: عَلامَةٌ في فَقْدِها، وعَلامَةٌ في وَجْدِها. فالعَلامَةُ التي في وَجْدِها الإيثارُ مِنْها؛ والعَلامةُ التي في فَقْدِها وجُودُ الرَّاحَةِ مِنْها.

فالإيثارُ شُكْرٌ لنِعْمةِ الوِجْدانِ، ووُجودُ الرَّاحةِ منها شُكْرٌ لِنِعْمَةِ الفُقْدَانِ، وذَلِكَ ثَمَرةُ الفَهْمِ عَنِ الله والعِرْفانِ؛ لأنَّ الحقَّ تعَالى كما قَدْ يُنْعِمُ عليكَ بوُجُودِها كَذَلِكَ قَدْ يُنْعِمُ بصَرْفِهَا، بَلْ نِعْمَتُه في صَرْفِهَا أتَمُّ.

=في تخريج «الإحياء» (٤/ ٤٢٣)، وبهذا تعقَّب السيوطيُّ ابنَ الجوزيِّ في اللآلئ (٢/ ٢٧٦)، وقال: «وله شاهد»، ولكن في الشاهد أيضًا وضَّاع، وذكره السيِّد أحمد بن الصِّدِّيق في «المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير» (ص١٠١)، وقال: «هو موضوعٌ كما قال الحفَّاظ، وقال ابن العربي المالكي في «السراج»: ليس في التفكر حديثٌ صحيحٌ عن النبيِّ ﷺ، ولا عن العشرة الأبرار، فجميع ما أورده المصنِّفون باطل»، والله أعلم.

قالَ سُفْيانُ الثَّوريُّ[1] -رحمه الله تَعَالى-: «لَنِعْمَةُ الله عليَّ فيما زَوَى عَنِّي مِنَ الدُّنْيا، أَتَمُّ مِنْ نِعْمَتِه عَلَيَّ فيما أعْطَانِي مِنْهَا».

وقال الشَّيخُ أبو الحسَنِ الشَّاذليُّ -رَحِمَهُ الله تعالى-: «رأيتُ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في المنام فقَالَ لي: أتَدرِي مَا عَلامةُ خُرُوجِ حُبِّ الدُّنْيا مِنَ القَلْبِ؟ قُلْتُ: لَا أدْرِي. قَالَ: عَلامةُ خُرُوجِ حُبِّ الدُّنيا مِنَ القَلْبِ، بَذْلُها عنْدَ الوجُودِ، ووجُودُ الرَّاحَةِ مِنْهَا عِنْدَ الفَقْدِ».

فَقَدْ تَبيَّنَ مِنْ هَذَا أنْ ليْسَ كُلُّ طالبٍ للدُّنيا مَذْمُومًا، بَلْ المذْمُومُ مَنْ طَلَبَهَا لنَفْسِه لَا لرَبِّه، ولدُنْيَاه لَا لآخِرَته. فالنَّاسُ إذَنْ على قِسْمَينِ: عَبْدٌ طَلَبَ الدُّنْيا للدُّنْيا، وعَبدٌ طَلبَ الدُّنْيا للآخِرَةِ.

وسَمِعْتُ شَيْخَنا أبا العَباسِ -رَحمه الله تَعَالى- يقُولُ: «العَارِفُ لا دُنْيا لَهُ، لأنَّ دُنْياهُ لآخِرَتِه، وآخِرتَه لربِّه». وعلى ذلِكَ تُحْمَلُ أحْوالُ الصَّحابَةِ، والسَّلفِ الصَّالحِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فكُلُّ مَا دَخَلُوا فِيه مِنْ أسْبابِ الدُّنيا، فَهُمْ بذَلِكَ إلى الله مُتَقَرِّبُونَ، وإلى رِضَاه مُسَبِّبُونَ، لا قاصِدُونَ بذَلِكَ الدُّنْيا وزِينَتَها ووجُودَ

(١) إمام الحفَّاظ أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ولد سنة ٩٧ في خلافة سليمان بن عبد الملك، وكان ثقةً مأمونًا ثبتًا كثير الحديث حُجَّةً، روى عن أبيه وزياد بن علاقة وحبيب بن أبي ثابت وأيوب وجعفر الصادق وخلق، وعنه ابن المبارك ويحيى القطان وخلق، قال شعبة وغير واحد: سفيان أمير المؤمنين في الحديث. له من الكتب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» كلاهما في الحديث، وكتاب في الفرائض، وكان آية في الحفظ، من كلامه: «ما حفظت شيئًا فنسيته»، ولابن الجوزي كتابٌ في مناقبه، واختصره الحافظ الذهبي، تُوفي بالبصرة في خلافة المهدي في شعبان سنة ١٦١. انظر: «التاريخ الكبير» للبخاريِّ (٤/ ٩٢)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعدٍ (٦/ ٣٧١)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣٥٦)، و«تاريخ بغداد» (٩/ ١٥٤).

لذَّتها، وبذلكَ وَصَفَهُم الحقُّ سُبْحانه وتَعالى بقولِه: ﴿محمَّدٌ رسُولُ الله والَّذينَ مَعَه أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَماءُ بينَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبتغُونَ فضْلًا منَ الله ورِضْوانًا، سِيمَاهُمْ في وجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقالَ في الآيَة الأُخرَى: ﴿في بُيوتٍ أذِنَ الله أنْ تُرفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ يُسبِّحُ لَه فِيهَا بالغُدُوِّ والآصَالِ رجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ الله وإقَامِ الصَّلاةِ وإيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخافُونَ يَوْمًا تَتقلَّبُ فيهِ القُلُوبُ والأبْصارُ﴾ [النور: ٣٧]. وبقَوْله تَعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيهِ فمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُمْ مَنْ يَنْتظِرُ ومَا بدَّلُوا تَبْدِيلا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ونَظَائرِ هذِه الآياتِ.

ومَا ظَنُّكَ بقَومٍ اخْتارَهُمُ الله لصُحْبةِ رسُولِه ﷺ ولمواجَهَةِ خطَابه في تَنْزيله، فما أحَدٌ مِنَ المؤْمنينَ إلى يَومِ القِيامةِ إلَّا وللصَّحَابَةِ في عُنُقه مِنَنٌ لا تُحْصَى، وأيادٍ لا تُنْسَى؛ لأنَّهم الذِينَ حَمَلُوا إلَيْنا عَنْ رسُولِ الله ﷺ الحِكْمَةَ والأحْكَامَ، وبيَّنُوا الحلالَ والحرَامَ، وفَهِمُوا الخَاصَّ والعَامَّ، وفتَحُوا الأقَاليمَ والبِلادَ، وقَهَرُوا أهْلَ الشِّرْكِ والعِنَادِ. ويحقُّ مَا قالَ رسُولُ الله ﷺ فيهم: (أصْحَابِي كَالنُّجُوم بأيِّهم اقْتَدَيتُمُ اهْتَدَيتُمْ)[1].

---

(١) رواه عبد بن حميد في «مسنده» (٧٨٣) عن ابن عمر. ورواه القضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٤٦) من حديث أبي هريرة. وأسانيده مُتكلَّمٌ فيها لا تقوم بها الحُجَّة كما قال ابن عبدالبر في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٩٢٥) بل قال غير واحدٍ من الحُفَّاظ ببطلانه، نعم قال البيهقيُّ: «ورد ما يؤدِّي بعض معنى الحديث» يعني تشبيههم بالنجوم فقط، وهو في «صحيح مسلم» (٢٥٣١) من حديث أبي موسى مرفوعًا بلفظ: «النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمَّتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمَّتي ما يوعدون». وانظر الكلام عليه بالتفصيل في كتاب «تخريج أحاديث المنهاج» (حديث رقم ٧٣) للسيِّد عبدالله بن الصِّدِّيق الغماريِّ.

وقَدْ وصَفَهُم في الآيَةِ الأولَى بأوْصَافٍ إلى أنْ قَالَ: ﴿يَبْتغُونَ فَضْلًا منْ الله ورِضْوانًا﴾، فقَدْ أخْبرَ سُبْحَانَه وهو المطَّلعُ على أسْرَارِهمْ العالمُ بهم في سرِّهمْ وإجْهَارِهم أنَّهم مَا ابتَغَوا بما حَاوَلُوهُ الدُّنيا، ولم يقْصدُوا بذلكَ إلَّا وجْهَ الله الكَرِيمَ، وفَضْلَه العَمِيمَ.

وقَدْ قَالَ سُبْحَانه وتَعَالى فيهم: ﴿واصْبرْ نَفْسَكَ معَ الذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بالغَدَاةِ والعَشيِّ يرِيدُونَ وجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، فقَدْ أخْبرَ سُبْحانَه: أنَّهم لا يُرِيدُونَ سِواهُ، ولا يقْصدُونَ إلَّا إيَّاهُ.

وقَالَ في الآيَةِ الأخْرَى: ﴿يُسَبِّحُ لَه فيهَا بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تجارَةٌ ولا بَيعٌ عَنْ ذِكْرِ الله﴾، إشارةً إلى أنَّه قَد طَهَّر أسْرارَهُم، وكمَّلَ أنْوارَهُمْ، فلِذَلِكَ لا تأْخُذُ الدُّنْيا قُلوبَهُمْ، ولا تَخدِشُ وَجْهَ إيمانِهِم، وكيفَ تأخُذُ الدُّنيا منْ قُلوبٍ ملأَهَا بِحُبِّه، وأشْرَقَ فيهَا أنوارَ قُرْبه.

وقَدْ قَالَ سُبْحَانه وتَعَالى: ﴿إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فلَو كَانَ للدُّنيا عَلى قُلوبِهِم سُلْطانٌ لكَانَ للشَّيطَانِ على قلُوبِهم أيضًا؛ إذْ لا يُمْكِنُ الشَّيطَانَ أنْ يصِلَ إلى قلُوبٍ أشْرَقَتْ فيها أنْوارُ الزُّهْدِ، وكَنَسَتْ مِنْ أوسَاخِ الرَّغْبةِ.

فقَوْلُه سُبْحَانَه وتَعَالى: ﴿إنَّ عِبادِي ليسَ لَكَ عَلَيهِمْ سُلْطانٌ﴾، أيْ: ليسَ لَكَ وَلا لشَيْءٍ منَ الأكوانِ على قُلوبِهِمْ سُلْطانٌ؛ لأنَّ سُلْطانَ عَظَمَتِي في قُلوبِهِمْ يَمْنَعُهُم أنْ يَكُونَ عَلى قُلوبِهِمْ سُلْطَانٌ لشَيْءٍ دُوني.

فأثبَتَ الحقُّ سُبْحَانه وتَعَالى لهُم في هَذِه الآيةِ: أَنَّهم لا تُلْهيهِمْ تجارَةٌ ولا بَيعٌ عَنْ ذِكْرِ الله، ولم يَنْفِ عَنْهُمْ أنَّهم لا يتَّجِرُونَ ولا يَبيعُونَ، بلْ في الآيةِ ما يدلُّ عَلى جَوازِ البَيعِ والتِّجَارةِ، مِنْ فَحْوَى الخطَابِ إذَا تَدبَّرْتَه تَدَبُّرَ أُولي الألباب.

ألم تَسْمَعْ قَولَه تَعَالى: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاةِ وإيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، فلوْ نَهاهُم عَنِ الغِنَى لنَهاهُمْ عنِ التَّسَبُّبِ المؤدِّي إليهِ وهُوَ التِّجارَةُ والبَيْعُ؛ ألا تَرَى أنَّه قالَ: ﴿وإيتَاءِ الزَّكاةِ﴾، فإيجَابُه الزَّكاةَ علَيهِمْ دليلٌ عَلى أنَّ هَؤُلاءِ الرِّجَالَ الَّتي هذه الأوصَافُ أوصَافُهُم قدْ يكُونُ منْهُمْ أغْنِياءُ ولا يُخْرِجُهُمْ عَنِ المُدْحَةِ غِناهُمْ، إذَا قامُوا فيه بِحُقُوقِ مَولَاهُمْ.

قالَ عبدُ الله بنُ عُتْبَةَ[1]: كانَ لِعُثمانَ بن عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَوْمَ قُتِلَ عندَ خازِنِه مائةُ ألفٍ وخَمسُونَ ألفَ دِينارٍ وألْفُ ألْفِ دِرْهَم، وخَلَّفَ ضِيَاعًا بَيْنَ أَرِيسَ وخَيْبَرَ، ووادِي القُرَى، قِيمَتُه مِائَتَا ألفِ دِينَارٍ[2].

وبلغَ ثَمَنُ مال الزُّبيرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ خَمسِينَ ألفَ دِينارٍ، وتَرَكَ ألفَ فرسٍ وألفَ مملُوكٍ.

---

(١) العلامة الفقيه عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، ابن أخي عبد الله بن مسعود، اختلف في إدراكه النبي ﷺ، ورجَّحه ابن حجر، وقال: «فأقلّ ما يكون عبد الله أدرك من حياة النبيّ ﷺ ستّ سنين» وذكره العقيلي في الصّحابة، وقد اتفقوا على ثقته، روى عن عمِّه وعمر وعمار وغيرهم، وروى عنه ابناه: عبيد الله -وهو الفقيه المشهور- وعون، والشّعبي، وحميد بن عبد الرحمن بن عوف، وابن سيرين، وآخرون، كان رفيع القدر، كثير الحديث والفتيا فقيهًا، وكان يؤمُّ الناس بالكوفة، ومات في ولاية بشر بن مروان على العراق سنة ٧٤ وقيل: ٧٣. انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٥/ ١٥٧)، و«الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ١٢٠)، و«الإصابة» لابن حجر (٤/ ١٤٢).

(٢) أخرجه ابن سعدٍ في «الطبقات» (٣/ ٧٦)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٩/ ٢٤٢).

وخلَّفَ عَمْرو بنُ العَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ثلاثَمائَةِ ألفِ دِينارٍ[1]، وغِنى عبدِ الرَّحمنِ ابنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أشْهَرُ مِنْ أنْ يُذْكَر.

وكانَتِ الدُّنْيا في أكفِّهِمْ لا في قُلوبِهِمْ، صَبَرُوا عنْهَا حينَ فُقِدَتْ، وشَكَرُوا الله حِينَ وُجِدَتْ.

وإنَّما ابتَلاهُمُ الحقُّ سُبْحَانَه وتَعَالى بالفَاقَةِ في أوَّل أمْرِهِمْ حتَّى تكمَّلَتْ أنوارُهُمْ، وتَطهَّرتْ أسْرارُهُم، فبَذَلهَا لهُم؛ لأنَّهُمْ لَو أُعْطَوْهَا قبلَ ذلِكَ، فَلَعَلَّها كانتْ آخِذَةً منْهُمْ، فلمَّا أُعْطوهَا بَعْدَ التَّمكِينِ والرُّسُوخِ في اليقِينِ تصَرَّفُوا فيهَا تَصرُّفَ الخازِنِ الأمِينِ، وامْتَثلُوا قولَه تَعَالى: ﴿وأنْفِقُوا ممَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ومِنْ هَهُنا يُفْهَمُ مَنْعُهُم عَنِ الجِهادِ في أوَّلِ الأمْرِ بقَولِه تعالى لَهُم: ﴿فاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأتِيَ الله بأمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]؛ لأنَّه لوْ أُبِيحَ لهمُ الجِهَادُ في أوَّلِ الإسْلام، فَلَعَلَّ الَّذِي هُو حَدِيثُ عهْدٍ بالإسْلام لَوْ أُطْلِقَ لهم الجِهادُ أنْ يَكُونَ انْتِصَارُهُ لنَفْسِهِ مِنْ حَيثُ لا يَشْعُرُ، حَتَّى كَانَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذَا ضُرِبَ أمْهَلَ حتَّى تَبْرُدَ تلْكَ الضَّرْبَةُ ثُمَّ يضْرِبُ بعد ذلك، خشْيَةَ أنْ يَضْرِبَ عقِبَها، فَيكُونَ في ذلِكَ مُشَارَكةٌ منْ حَظِّهِ، وذلِكَ لمعْرِفَتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بدَسَائِسِ النُّفُوسِ وكمائِنِها وعَظِيمِ حراسَتِهِمْ لقُلوبِهِم، وتَخْلِيصِ أعْمالِهِم وإشْفَاقِهِمْ أنْ يكُونَ في عَمَلِهِمْ شَيءٌ لم يُرَدْ به وجْهُ الله تَعَالى.

(١) ذكره المقدسي في «البدء والتاريخ» (٦/ ٣).

فكَانتِ الدُّنْيا في أيدِي الصَّحابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لا في قُلُوبِهم، ويَدلُّ على ذلِكَ خُروجُهِم عنْهَا، وإيثَارُهِمْ بها، وهُمُ الذِينَ قَالَ الحقُّ فِيهم: ﴿ويُؤْثِرُونَ عَلَى أنْفُسِهِمْ ولوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، حتَّى إنَّهم أُهْدي لإنْسانٍ مِنْهُم رأسَ شَاةٍ فقَال: «فلانٌ أحقُّ بها مِنِّي» ثُمَّ قالَ الآخذُ لها كَذلِكَ، فما زالُوا يتَهادُونَها إلى أنْ عَادَتْ إلى الذِي أهْداهَا أوَّلًا بعدَ أنْ طَافَتْ على سَبْعَةٍ أوْ نَحْوِهِم[1].

ويَكْفِيكَ في ذلِكَ: خُروجُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ نِصْفِ مَالِه، وخُرُوجُ أبي بكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنْ ماله كُلِّه[2]، وخُروجُ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ سَبْعِمائَةِ بَعِيرٍ مُوقَرَةِ الأحْمال[3]، وتَجْهيزُ عُثمانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جَيشَ العُسْرةِ[4] إلى غيرِ ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ أفعَالِهِمْ، وسَنيِّ أحْوالِهِمْ.

وتَضمَّنتِ الآيةُ الأخْرَى وهِيَ قولُه سُبحانَه وتَعَالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٤٨٣)، ومن طريقه البيهقيُّ في «الشعب» (٣٢٠٤) من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وصحَّحه الحاكم وتعقَّبه الذهبي بأن في إسناده ضعفًا.

(٢) أخرجه الدارمي (١٨٠٧)، وأبو داود (١٦٧٨)، والترمذيُّ (٣٦٧٥)، والبزَّار (١٥٩)، والحاكم (١/ ٤١٤)، وغيرهم من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٨٤٢) والبزَّار(٦٨٩٩)، والطبراني في «الكبير» (١/ ١٢٩) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٩٨)، وغيرهم من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وفي الحديث قصة. وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢/ ١٣)، وقال: «قال أحمدُ بنُ حنبلٍ: هذا الحديث كذبٌ مُنكرٌ». وتعقَّبه الحافظ في «اللآلئ» (١/ ٣٧٧)، ونقل كلام الحافظ ابن حجر في «القول المسدد» (ص ٢٤، ٢٥) بذكر متابعة وشاهد للحديث. والمنكر من الحديث قوله: «قد رأيتُ عبد الرحمن بن عوفٍ يدخلُ الجنَّة حَبْوًا»، ولذا عقَّب الهيثميُّ عليه في «المجمع» (٩/ ١٥٥) بقوله: «وقد شَهِدَ عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدرًا والحديبية وشَهِدَ له رسولُ الله ﷺ بالجنَّة وصَلَّى خلفه».

(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٧٧٨)، وغيره من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَاهَدُوا الله عَلَيهِ فَمِنْهُمْ منْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنتَظِرُ ومَا بَدَّلُوا تَبدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] الإخْبَارَ عنْهُم بسرِّ الصِّدْقِ الذي لا يَطَّلعُ عليهِ أحَدٌ إلا الحقُّ سُبْحانَه وتَعَالى، وذلِكَ ثناءٌ عَظِيمٌ، وفَخْرٌ جَسِيمٌ؛ لأنَّ ظَواهِرَ الأفْعَال قَدْ تَلْتَبِسُ فيها الأحْوالُ فيما يرْجِعُ إلى عِلْم العِبَادِ، فتَضَمَّنتِ الآياتُ التَّزكيةَ لظَواهِرِهِمْ وسَرائِرِهِمْ، وإثْباتَ محامِدِهِمْ ومَفَاخِرِهِم.

فقَد تَبيَّنَ مِنْ هَذا أنَّ تَدْبيرَ الدُّنيا على قِسْمَيْن: تَدْبيرُ الدُّنْيا للدُّنيا، كَما هُوَ حَالُ أهْلِ القَطِيعَةِ الغَافلِينَ، وتَدْبيرُ الدُّنْيا للآخرَةِ، كحَالِ الصَّحَابَةِ المكْرَمِينَ، والسَّلَفِ الصَّالحِينَ. ويدلُّكَ على ذلِكَ قولُ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إنِّي لأجَهِّزُ الجيشَ وأنَا في صَلَاتي»[1]، لأنَّ تَدْبيرَ عُمرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علَى المعَايَنةِ والموَاجَهَةِ، فهُو إذًا تَدبيرٌ للهِ، فلِذلِكَ لم يكنْ قاطعًا صَلاتَه ولا مُنْقِصًا مِنْ كَمالِهَا.

فإنْ قُلتَ: قدْ زَعَمْتَ أنْ ليسَ مِنْهُمْ مَنْ يريدُ الدُّنيا، وأنزَل الحقُّ سُبحانَه وتَعَالى في شأنهِمْ يَومَ أُحُدٍ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ومِنْكُمْ مَنْ يُريدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، حَتَّى قالَ بَعْضُ الصَّحَابةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ: «مَا كُنَّا نَظُنُّ أنَّ أحدًا مِنَّا يُريدُ الدُّنْيا حَتَّى نَزَل قَولُه تعالى: ﴿مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيا ومِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾»[2]!!

---

(١) ذكره البخاريُّ معلَّقًا (٢/ ٦٧) [كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة - باب يفكر الرجل الشيء في الصلاة]، ووصله ابن أبي شيبه في «المصنف» (٧٩٥١) بإسنادٍ صحيحٍ كما قال الحافظ في «الفتح» (٣/ ٩٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٧٨٣)، وأحمد (٤٤١٤)، والطبرانيُّ في «الأوسط» (١٣٩٩) من حديث عبدالله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

فاعْلَمْ وفَّقَكَ الله للفَهْم عنهُ، وجَعَلَكَ مِنْ أَهْلِ الاسْتِماع مِنْهُ، أنَّه يجبُ عَلى كُلِّ مُؤْمنٍ أنْ يَظُنَّ بالصَّحابةِ الظَّنَّ الجميلِ، وأنْ يعتَقدَ فِيهِمُ الاعْتِقادَ الفَضيلَ، وأنْ يَلْتَمِسَ لهُمُ أحْسَنَ المخَارِجِ في أقْوالِهِمْ وأفعَالِهِمْ، وفي جميع أحْوالهم في حياة رسُولِ الله ﷺ وبعدَ وفَاته؛ لأنَّ الحقَّ سُبْحانَه وتَعَالى لما زَكَّاهُمْ تزكيةً مُطْلَقَةً لم يُقَيِّدْهَا بزَمَنٍ دونَ زَمَنٍ، وكذلِكَ تزْكِيةُ رسُول الله ﷺ لهُمْ بقولِه: (أصْحَابي كالنُّجُوم بأيِّهم اقْتَدَيتُمُ اهْتَدَيتُم)[1].

وعنْ هذه الآيةِ جوابانِ: أحَدُهُما: منكُمْ مَنْ يُريدُ الدُّنيا للآخِرَة، كَالَّذينَ أرادُوا الغَنِيمَةَ ليُعَامِلُوا الله بما يَأخُذُونَه مِنْهَا، بَذْلًا وإيثَارًا، ومنكُم مَنْ لم يكُنْ ذلكَ مُرادَه؛ إنَّما كَانَ مُرادُه تَحصيلَ فَضْلِ الجِهَادِ لا غيرَ، فلمْ يَلْوِ عَلى الغَنَائم، ولم يَلْتَفِتْ إلَيْهَا. فمِنْهُمُ الفاضِلُ، ومِنْهُمُ الأفْضَلُ، ومِنْهُم الكَاملُ، ومِنْهُم الأكْمَلُ.

الجوابُ الثَّاني: أنَّ السَّيِّدَ يقُولُ لعَبْدِه ما شَاءَ وعلَينَا أنْ نتَأدَّبَ معَ عَبدِه لثُبوتِ نِسبتِه منْهُ، فليسَ كُلَّما خَاطَبَ السَّيِّدُ به عبْدَه يَنْبغِي أنْ نَنْسِبَه للعَبدِ، ولا أنْ نُخاطِبَه بِه، إذِ للسَّيِّدِ أنْ يقُولَ لعَبدِهِ ما شَاءَ تحريضًا لعبْدِه، وتنْشيطًا لهِمَّتِه وقَصْدِه، وعلينَا أنْ نَلْزَمَ حُدودَ الأدَبِ معَه. وإنْ تَصَفَّحْتَ الكتابَ العَزيزَ وجدْتَ فيه كثيرًا، منْها: سُورةُ عَبَسَ، حتَّى قالَتِ السَّيِّدةُ عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «لوْ كَانَ رسُولُ الله ﷺ كاتمًا شيئًا مِنَ الوَحْيِ، لكَتَمَ هذه السُّورَةَ»[2].

---

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص١٠١.

(٢) أخرجه ابن جرير (٢٤/ ١٠٥)، وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٨/ ٤١٧) عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم -وهو ضعيف- قال: كان يقال... فذكره. وأخرجه البخاريُّ (٧٤٢٠)، وغيره من حديث أنس في قصة زواجه من السيدة زينب بنت جحش.

فقدْ تقَرَّرَ مِنْ هَذا أنّه ليسَ إسقاطُ التَّدبيرِ المَمْدُوحُ تركَ الدُّخُول في أسْبَاب الدُّنْيا، والفِكْرَةَ في مصَالحِها ليَسْتَعِينَ بذلِكَ على طاعةِ مَولاهُ، والعَمَلِ لأُخراهُ، وإنَّما التَّدبيرُ المنهِيُّ عنه، هُوَ التَّدبيرُ فيهَا لها، وعلامةُ ذلكَ: أنْ يَعْصيَ الله تَعَالى مِنْ أجْلِهَا، وأنْ يأخُذَها كيفَ كانَ مِنْ حِلِّهَا، أو غَيرِ حِلِّهَا.

***

ذمُّ الأشياء ومدحُها

فائدةٌ: اعْلَمْ أنَّ الأشْياءَ إنَّما تُذَمُّ وتُمدَحُ بما تُؤدِّي إليه. فالتَّدْبيرُ المذْمُومُ: ما شَغَلَكَ عنِ الله، وعَطَّلَكَ عَنِ القيامِ بخِدْمَةِ الله، وصَدَّكَ عنْ مُعَاملةِ الله. والتَّدْبيرُ المحْمُودُ: هو مَا ليسَ كذلِكَ، ممَّا يؤَدِّيكَ إلى القُرْبِ مِنَ الله تعالى ويُوصِّلُكَ إلى مَرْضَاةِ الله.

وكذلكَ الدُّنيا: ليسَ تُذَمُّ بلسَانِ الإطْلاقِ، ولا تُمدَحُ كذلِكَ، وإنَّما المذْمُومُ منْها مَا شَغَلَكَ عَنْ مَوْلاكَ، ومَنَعَكَ الاسْتعدادَ لأُخْرَاكَ كَما قَالَ بعضُ العَارفينَ: «كُلُّ ما شَغَلَكَ عنِ الله مِنْ أهْلٍ، ومَالٍ، ووَلَدٍ، فهُو عليكَ مشْئُومٌ، والممدُوحُ ما أعانَكَ على طاعتِه، وأنهضَكَ إلى خِدْمتِه». وبالجمْلَةِ: ما وقَعَ المدحُ به فهُوَ ممْدُوحٌ في نَفْسِه، وما وقَعَ الذَّمُّ به فهُوَ مذْمُومٌ في نَفْسِه. وقدْ جَاءَ عنْ رسُول الله ﷺ: (الدُّنْيا جيفةٌ قَذِرَةٌ مَذِرَةٌ)[1]. وقالَ ﷺ: (الدُّنْيا مَلْعُونةٌ، مَلْعُونٌ ما فِيهَا، إلَّا ذِكْرُ الله، ومَا وَالاهُ، وعَالمٌ أوْ مُتعَلِّمٌ)[2].

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص٩٧.

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٧٤)، وابن ماجه (٤١١٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وحسَّنه الترمذيُّ، وفي الباب عن جماعةٍ.

وقالَ ﷺ: (إنَّ الله جَعَلَ ما يخرُجُ مِن ابنِ آدمَ مثَلًا للدُّنيا)(١)، فهذه الأحَادِيثُ تقْتَضِي ذَمَّهَا، وَتَنْفِيرَ العِبادِ عَنْهَا. وجَاءَ عنهُ ﷺ: (لا تَسُبُّوا الدُّنيا فنِعْمَتْ مَطِيَّةُ المؤمِنِ، عليهَا يبْلُغُ الخيرَ، وبِها ينْجَرُ منَ الشَّرِّ)(٢).

فالدُّنيَا التِي لَعَنَها رسُولُ الله ﷺ: هيَ الدُّنيا الشَّاغلةُ عنِ الله تَعالى، ولذلكَ اسْتَثْنى فِي الحَدِيثِ فَقال: (إلَّا ذكْرُ الله، ومَا وَالاَهُ، وعالمٌ، أوْ مُتَعلِّمٌ)، فبيَّنَ ﷺ أنَّ هذا ليسَ مِنَ الدُّنيا، وقولُه ﷺ: (لا تَسُبُّوا الدُّنْيا)، أيْ: التِي تُوصِّلُكُم إلى طَاعةِ الله، ولذَلِكَ قالَ ﷺ: (فنِعْمَتْ مَطِيَّةُ المؤْمِنِ) فمدَحَهَا مِنْ حَيثُ كَونُها مَطِيَّةً، لا مِنْ حيثُ إنَّها دارُ اغترارٍ ووجُودِ أوْزارٍ.

وإذْ قدْ عَلِمتَ هَذا فقَدْ فَهِمْتَ أنَّ إسْقَاطَ التَّدبِيرِ ليسَ هُوَ الخرُوجَ عنِ الأسْبابِ حتَّى يعُودَ الإنْسَانُ ضيعَةً فيكُونَ كَلًّا على النَّاسِ، فيجْهَلَ حِكْمَةَ الله في إثْبَاتِ الأسْبَابِ، وارْتِبَاطِ الوَسَائطِ.

وقدْ جاءَ عَنْ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: أنَّه مَرَّ بمُتَعَبِّدٍ فقالَ لَه: «مِنْ أينَ تأكُلُ؟» فقَالَ: أخِي يُطْعِمُني. فقالَ: «أخُوكَ أعْبدُ منْكَ»(٣)، أيْ: أخُوكَ وإنْ كَانَ في سُوقِه، أعْبدُ منكَ؛ لأنَّه هُوَ الَّذي أعانكَ عَلى الطَّاعَةِ، وفرَّغَكَ لها.

---

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص٩٧.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الشاشي في «مسنده» (٣٨٣)، والطبرانيُّ في «الدعاء» (٢٠٥٢)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي إسناده السري بن إسماعيل الهمداني وهو متروك. انظر: «تهذيب التهذيب» (٣/ ٤٦٠)، و«التقريب» (٢٢٢١) لابن حجر.

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (٧٥٣)، ومن طريقه ابن عساكر في «التاريخ» (٤٧/ ٤٦٨) عن إبراهيم التيميِّ مقطوعًا.

وكيفَ يُمكنُ أنْ يُنكرَ الدُّخولُ في الأسْباب بعدَ أنْ جاءَ قولُه تَعالى: ﴿وأحَلَّ الله البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقَولُه تَعالى: ﴿وأشْهدُوا إذا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقولُه ﷺ: (أحَلُّ ما أكلَ المرءُ مِنْ كَسْب يَمينه، وإنَّ داودَ نَبيَّ الله كانَ يأكُلُ مِنْ كَسْبِ يَمينِه)(١)، وقولُهُ ﷺ: (أفضَلُ الكَسْب عَمَلُ الصَّانع بيَدِه إذَا نَصَحَ)(٢)، وقالَ ﷺ: (التَّاجِرُ الأمِينُ الصَّدُوقُ المسْلِمُ، معَ الشُّهدَاءِ يومَ القِيامَةِ)(٣).

فكَيْفَ يُمْكِنُ أحدًا بعْدَ هَذَا أنْ يَذُمَّ الأسْبابَ؟!

لكِنَّ المذْمُومَ منْهَا مَا شَغَلَكَ عنِ الله، وصَدَّكَ عَنْ مُعَامَلَتِه، ولوْ تَرَكْتَ هذِه الأسْبابَ، وغَفَلْتَ عنِ الله بالتَّجْرِيدِ كُنْتَ مَذْمُومًا أيْضًا.

وليْسَتِ الآفاتُ داخِلةً على المتَسَبِّبِينَ فحَسْبُ، بَلْ قَدْ تَدْخُلُ على المتَجَرِّدينَ، كَما تَدْخُلُ على المتَسَبِّبِينَ، ﴿لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أمْرِ الله إلا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]، بَلْ قَدْ يَكُونُ دخُولُها عَلى المتَجَرِّدينَ أشَدَّ؛ إذِ الآفَاتُ الدَّاخِلةُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٠٧٢)، وغيره من حديث المقدام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «ما أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا من أن يأكلَ من عَمَل يده، وإنَّ نبيَّ الله داودَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يأكلُ من عَمل يده».

(٢) أخرجه أحمد (٨٤١٢)، و(٨٦٩١)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١/ ٤١٩)، والبيهقيُّ في «شعب الإيمان» (١٢٣٦)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ: ابن ماجه (٢١٣٩) وابن حبَّان في «المجروحين» (٢/ ٢٣٠)، والدارقطني (٢٨١٢)، والحاكم (٢/ ٦)، والبيهقيُّ في «السُّنن الكبرى» (١٠٤١٦)، وفي «الشعب» (١٢٣٠)، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وله شاهدٌ من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا عند الترمذي، وحسَّنه (١٢٠٩) بلفظ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصِّدِّيقين والشهداء».

على المتَسَبِّبِينَ دخولٌ في الدُّنيا مَعَ عدَمِ الدَّعْوَى مِنْهُم، ظاهرُهُم كباطِنِهِم، مَعَ اعْترافِهِم بالتَّقْصيرِ، ومعْرفتِهِم بِفَضْلِ المتفَرِّغين لطاعةِ الله علَيهِم.

وآفاتُ المتَجَرِّدِينَ رُبَّما كانتْ عُجْبًا، أوْ كِبْرًا، أوْ رِياءً، أوْ تصنُّعًا، أو تَزَيُّنًا للخَلقِ بطاعةِ الله استِجْلابًا لما في أيْدِيهم، وَقدْ تكُونُ الآفاتُ اعْتِمادًا واسْتنادًا إلى الخَلْقِ، وأمَارَةُ ذلِكَ: ذَمُّه للنَّاسِ إذا لم يكْرِمُوهُ، وَعَتْبُه عَلَيهِم إذا لم يخْدِمُوهُ.

فالمنْغَمِسُ في الأسْبابِ معَ الغَفْلةِ، أحْسَنُ حالًا مِنْ هذَا بِكَثيرٍ، أحْسَنَ الله منَّا النِّيَّاتِ، وطَهَّرَ نفُوسَنَا مِنَ الآفاتِ بفَضْلِه وكَرَمِه.

***

ما بين المتجرد و المتسبب

فصلٌ: لعَلَّكَ تفْهَمُ مِنْ هذا الكلامِ أنَّ المُتجَرِّدَ والمُتَسَبِّبَ في رُتْبةٍ واحِدةٍ، وليسَ الأمرُ كذلِكَ، ولنْ يجعلَ الله مَنْ تفَرَّغَ لِعبادَتِه، وشَغَلَ أوْقَاتِه به، كالدَّاخِلِ في الأسْبابِ، ولوْ كانَ فيهَا مُتْقنًا فالمتَسبِّبُ والمتَجَرِّدُ، إذَا اسْتَوَى مَقامُهُما مِنْ حَيثُ المعرفةُ بالله، فالمتَجرِّدُ أفْضلُ، ومَا هُوَ فيهِ أعْلى وأكمَلُ.

ولذلِكَ قالَ العارِفُونَ: «مَثَلُ المُتسَبِّبِ والمُتجَرِّدِ كعَبدَينِ لِلْمَلِكِ قالَ لأحَدِهِمَا: اعْمَلْ وكُلْ مِنْ كَسْبِ يدِكَ، وقالَ للآخَرِ: الْزَمْ أنتَ حَضْرَتي وخِدْمَتي وأنا أقُومُ لكَ بِما تُرِيدُ».

فهَذا قدْرُه عِنْدَ السَّيِّدِ أجَلُّ، وصُنْعُه به ذلِكَ على العِنايَةِ به أدَلُّ؛ ثُمَّ إنَّه قَلَّما تَسْلَمُ مِنَ المخَالَفَةِ، أو تَصْفُو لكَ الطَّاعاتُ معَ الدُّخُول في الأسْبابِ،

لاسْتِلْزامِهَا لمعَاشَرَةِ الأضْدَادِ ومخالَطَةِ أهْلِ الغَفْلَةِ والعنادِ؛ وأشَدُّ ما يُعِينُكَ على الطَّاعاتِ رُؤْيةُ المطيعِينَ، وأشَدُّ مَا يُدْخِلُ في الذَّنْبِ رُؤْيةُ المذْنبينَ، كما قالَ ﷺ: (المرءُ على دِينِ خَلِيلِه، فلْيَنْظُرْ أحَدُكُمْ مَنْ يُخالِلُ)[1].

قالَ الشَّاعرُ[2]:

عَنِ المرءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِه * فَكُلُّ قَرِينٍ بالمُقَارَنِ يَقْتَدِي

فإنْ كانَ ذا شَرٍّ فَجَانِبْه سُرعةً * وإنْ كانَ ذا خَيرٍ فقَارِنْهُ تَهْتَدِي

والنَّفسُ مِنْ شَأنِها التَّشَبُّهُ والمحَاكاةُ، والتَّزيُّنُ بصفاتِ مَنْ قارَنَها والمضَاهاةُ، فصُحْبتُكَ للغَافِلينَ مَعُونةٌ لهَا على وُجُودِ الغَفْلةِ، إذِ الغَفْلةُ ملائمةٌ لها منْ أصْلِ الوَضْعِ، فكيفَ إذا انْضَمَّ إلى ذلِكَ سَبَبُ مُخالَطَةِ الغَافِلينَ؟!

وقَدْ تجِدُ منْ نفْسِكَ أيُّها الأخُ -وفَّقَكَ الله- أنَّه لا يسْتَوِي حالةُ خُروجِكَ منْ منزِلِكَ، وعوْدِك إلَيه، وأنتَ في حينِ خُروجِكَ تَغْلِبُ عَليكَ الأنْوارُ، وشَرحُ الصَّدْرِ، والعَزْمُ على الطَّاعةِ والزُّهدُ في الدُّنْيا، فتَجِدُك إذَا رَجعْتَ لسْتَ كذلِكَ، ولا فِيما هُنالِكَ، وما ذَاكَ إلا لِدَنسِ المخَالَطَةِ وانْغِماسِ القُلوبِ في ظُلْمَةِ الأسْبابِ، ولوْ كَانَتِ الأسْبابُ والمعَاصِي إذا ذَهَبتْ ذهَبَ أثَرُهَا لم تُعَوِّقِ

---

(١) أخرجه الطيالسيُّ (٢٦٩٦)، و أحمد (٨٠٢٨)، وأبو داود (٤٨٣٣)، والترمذيُّ (٢٣٧٨)، والحاكم (٤/ ١٧١)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِوَاللَّهُعَنْهُ مرفوعًا. وحسَّنه الترمذيُّ وصحَّحه الحاكم.

(٢) نسبها أبو منصور الثعالبي في «التمثيل والمحاضرة» لعدي بن زيد العبادي، ونسبها غيره لطرفة ابن العبد.

القُلوبَ عنِ المسيرِ إلى الله تعَالى بَعدَ انفِصَالها ووجُودِ زَوَالها، وإنَّما ذلكَ كالنَّارِ، فربَّما انْقَضَى الإيقَادُ وبقِيَ السَّوادُ.

ويَحتَاجُ المتَسَبِّبُ إلى شَيْئَينِ: عِلْمٍ، وتقْوَى. فالعِلْمُ يَعْلَمُ به الحلالَ والحرَامَ، والتَّقْوى تصُدُّه عَنِ ارْتِكَابِ الآثَامِ؛ فأمَّا حاجَتُه إلى العِلْمِ فإنَّه يحتاجُ إلى الأحْكَامِ المتَعلِّقَةَ بالمعَامَلةِ، بيعًا وسَلَمًا وصَرْفًا وما يَتعلَّقُ بذَلِكَ، معَ ما يحتاجُ إليه مِنْ أحْكَامِ الواجِباتِ والفُروضِ المعينَاتِ.

***

أمورٌ يجب على المتسبب التزامُها

تَنْبيهٌ وإعْلامٌ: أمُورٌ يَنْبَغِي لِلْمُتَسَبِّبينَ أنْ يَلتَزمُوهَا:

الأوَّلُ: رَبْطُ العَزْمِ مَع الله تَعالى قبلَ الخرُوجِ منَ المنْزلِ عَلى العَفْوِ عنِ المسيئِينَ إلَيه، إذْ الأسْواقُ مَحَلُّ المخَاصَمةِ والمقَاوَلةِ. ولِذلِكَ قالَ رسُولُ الله ﷺ: (أيَعْجِزُ أحَدُكُمْ أنْ يكُونَ كأبي ضَمْضَمٍ، كانَ إذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِه قالَ: اللَّهُمَّ إنِّي تَصَدَّقْتُ بعِرْضِي عَلى المسْلِمينَ)[1].

الثَّانِي: يَنْبغِي لَهُ أنْ يتوضَّأَ ويُصَلِّيَ قَبْلَ خُرُوجِه، ويَسْألَ الله السَّلامَةَ في مَخْرَجِه ذلكَ؛ فإنَّه لَا يَدْرِي مَاذَا يُقضَى عَليه، فإنَّ الخارِجَ إلى السُّوقِ كالخارِجِ إلى المصَافِّ.

---

(١) أخرجه البزّار (٦٨٩٢)، والطبراني في «مكارم الأخلاق» (٥٣)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٦٥)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٧٧٢٧)، والضياء في «المختارة» (١٧٧٠) من طريقين عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيف كما قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٥٤)، وورد مقطوعًا ومرسلًا.

الخامسُ: الأمْرُ بالمعْرُوفِ والنَّهْيُ عن المنْكرِ، ولْيَجْعلْ ذلكَ شُكْرًا لنعْمَةِ القُوَّةِ والتَّقْوَى، اللذَيْنِ وَهَبَهُما المؤلَى لَهُ، ولْيَذْكُرْ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿الذينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأرْضِ أقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ وأَمَرُوا بالمعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ المنْكَرِ ولله عَاقبةُ الأمُورِ﴾ [الحج: ٤١]. فَمَنْ أمْكَنَهُ الأمْرُ بالمعْرُوفِ والنَّهْيُ عَنِ المنْكرِ، بحَيثُ لا يَصلُ إليه أذَى في نفْسهِ أوْ عِرْضهِ أوْ مالِه فَهُوَ مِمَّن مُكِّنَ في الأرْضِ، والوُجُوبُ مُتَعلِّقٌ به، وإنْ كانَ لا يَصلُ إلى الأمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكرِ إلا بالأذَى قَبلَ ذلِكَ أوْ يَغْلِبَ على ظَنِّه وقُوعُ ذلِكَ بعْدَهُ سَقَطَ عَنْهُ الوُجُوبُ، والإنْكَارُ حِينئذٍ جَائزٌ[1].

السَّادسُ: أنْ يَكُونَ مشْيُهُ بالسَّكِينةِ والوَقَارِ لقَوْله تَعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأرْضِ هَوْنًا، وإذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلُونَ قالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وليسَ ذلكَ خاصًّا بالمشْي بَلِ المطْلُوبُ منْكَ أنْ تكُونَ أفْعَالُكَ كلُّهَا تُقارنُها السَّكينةُ، ويُلازِمُهَا التَّثبتُ.

السَّابع: أنْ يَذْكُرَ الله تَعالى في سُوقِه، فإنَّه قدْ جاءَ عنْهُ ﷺ: (ذاكِرُ الله في الغَافِلينَ كَالمقَاتلِ بَيْنَ الفارِّينَ)[2]، (ذاكِرُ الله في السُّوقِ كالحيِّ بَيْنَ الموتَى)[3].

---

(١) ويكفيه حينئذ الإنكار بالقلب.

(٢) أخرجه البزّار (١٧٥٩)، والطبرانيُّ في «الكبير» (١٠/ ١٦)، و«الأوسط» (٢٧١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٦٧)، وغيرهم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا. وفي الباب عن ابن عمر.

(٣) أخرجه أبو نعيم (٢/ ٢٥٢) عن حميد بن هلال من كلامه بلفظ: «مَثَلُ ذاكر الله في السُّوق كمَثَل شَجَرَة خضراءَ وَسْطَ شَجَر مَيِّت»، وجاء في فضل الذكر في الأسواق من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا عند الترمذيِّ وغيره: «مَن دَخَلَ السُّوقَ، فقال: لا إله إلا الله... كتبَ الله له ألفَ ألفَ حسنةٍ، ومحا عنه ألفَ ألفَ سيِّئة، ورفعَ له ألفَ ألفَ درجة».

وكَانَ بعْضُ السَّلفِ يرْكَبُ بَغْلَتَهُ ويَأتِي إلى السُّوقِ فَيذْكُرُ الله، ثُمَّ يَرْجِعُ لا يُخرِجُه إلا ذلِكَ.

التَّامِنُ: أنْ لا يشغَلَهُ ما هوَ فيه منَ المبَايَعَة والمعاشِ عَنِ النُّهوضِ إلى الصَّلاةِ في أوقَاتِها جَماعةً؛ لأنَّه إذَا ضَيَّعَها اشْتغالًا بسَبَبه، اسْتوجَبَ المقْتَ مِنْ ربِّه، ورَفْعَ البَرَكَةِ مِنْ كَسْبه، ويَسْتَحْي أنْ يَرَاهُ الحقُّ مشْغُولًا بحُظُوظِ نفْسه عنْ حُقُوقِ رَبِّهِ. وقدْ كَانَ بَعْضُ السَّلفِ يكُونُ في صَنْعتِه، فَرُبَّما رَفَعَ المطْرَقَةَ فَسَمِعَ المؤَذِّنَ فرَمَاهَا مِنْ خَلْفِه لئَلَّا يَكُونَ ذلِكَ شُغْلًا بَعْدَ أنْ دُعِيَ إلى طاعَةِ ربِّه.

ولْيذْكُرْ إذا سَمِعَ المؤذِّنَ قولَه تَعَالى: ﴿يا قَوْمَنَا أجِيبُوا دَاعِيَ الله﴾ [الأحقاف: ٣١]، وقولَه تَعَالى: ﴿يا أيُّهَا الذينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وللرَّسُول إذَا دعَاكُمْ لما يُحْيِيكُم﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقولَه تعَالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لرَبِّكُم﴾ [الشورى: ٤٧]. وقالتْ [السيدة] عائشَةُ رَضِيَالله عَنها: «كانَ رسُولُ ﷺ يكُونُ في بَيْتِه يَخْصِفُ النَّعْلَ ويُعِينُ الخادِمَ فإذَا نُودِيَ للصَّلاةِ قامَ كأنَّه لا يَعْرِفُنا»(١).

التَّاسِعُ: تركُ الحَلِفِ والإطْرَاءِ لسِلْعَتِه، وقدْ جاءَ في ذلِكَ الوَعِيدُ الشَّديدُ وقدْ قالَ ش: «التُّجَّارُ هُمُ الفُجَّارُ إلَّا مَنْ برَّ وصَدَقَ»(٢).

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٧٦)، وغيره من حديث السيدة عائشة رَضِيَالله عَنها مرفوعًا بلفظ: «كان يكونُ في مِهْنةِ أهلِه -تعني خدمة أهلِه- فإذا حضرتِ الصَّلاةُ خرجَ إلى الصَّلاةِ»، وقد فسَّرت هذه الخدمة في حديث آخر كما عند أحمد في «المسند» (٢٤٧٤٩)، وغيره قيل لعائشة: ما كان النبيُّ ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «كما يصنع أحدكم: يخصف نعله، ويرفع ثوبه».

(٢) أخرجه بنحوه الترمذيُّ (١٢١٠)، وابن ماجه (٢١٤٦)، وابن حِبَّان (٤٩١٥) وغيرهم من حديث رفاعة رَضِيَالله عَنه مرفوعًا بلفظ: «إنَّ التجَّارَ يُبعثون يومَ القيامةِ فُجَّا...

العَاشِرُ: كَفُّ لِسَانه عن الغِيبَة والنَّميمَة، ولْيذْكُرْ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿ولَا يغْتَبْ بَعْضُكُمْ بعْضًا، أيحبُّ أحَدُكُمْ أنْ يأكُلَ لحْمَ أخِيه مَيتًا فكَرهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]. ولْيَعْلَمْ أنَّ السَّامعَ لِلْغيبةِ أحدُ المغْتَابَيْنِ فإنِ اغْتِيبَ أحدٌ بحضْرَته فلْيُنْكِرْ عَلَيْهِ فإنْ لم يَسْمَعْ منْهُ فلْيَقُمْ، ولا يَمْنَعْه الحياءُ مِنَ الخلْق منَ القيام بحقِّ الملك الحقِّ، فالله أوْلى أنْ يَسْتَحْي منه، وأنْ يُرْضيَ الله ورسُولَه أحقُّ منْ أنْ يُرْضيَ النَّاسَ ﴿والله ورسُولُه أحَقُّ أنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقدْ جاءَ عنهُ ﷺ: (إنَّ الغِيبَةَ أشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وثلاثِينَ زَنْيةً في الإسْلام)[1].

***

وقالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحِمَه الله: «أرْبَعَةُ آداب إذَا خَلَا الفقِيرُ المتَسَبِّبُ منْها فلَا تَعْبأَنَّ به وإنْ كَانَ أعلَمَ البرِيَّة: مجانبةُ الظَّلَمة، وإيثَارُ أهْلِ الآخِرَة، ومُواسَاةُ ذوي الفَاقةِ، ومُلازَمَةُ الخمْسِ الصَّلواتِ في الجَمَاعَة».

وصدقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: فإنَّه بمُجانَبةِ الظَّلَمة تقعُ السَّلامةُ في الدِّينِ؛ لأنَّ صُحْبَةَ الظَّلَمَة تكسِفُ نورَ الإيمانِ، ومجَانَبَتُهُم أيضًا تكونُ سَببًا للنَّجاةِ مِنْ عقُوبةِ الله تَعَالى، لقَولِه تَعَالى: ﴿ولا تَرْكَنُوا إلى الذِينَ ظَلمُوا فتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣].

=وبرَّ، وصَدَقَ». وصحَّحه الترمذيُّ.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» (١٧٥)، وفي «ذم الغيبة» (٣٧) من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، مرفوعًا بلفظ: «إنَّ الدرهمَ يُصيبه الرجل مِن الرِّبا، أعظم عند الله في الخطيئة من ستٍّ وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الرِّبا عِرضُ الرجلِ المسلم»، وأخرجه ابن عديٍّ في «الكامل» (٤/ ١٥٤٨) ومن طريقه ابن الجوزيُّ في «الموضوعات» (٢/ ٢٤٥). وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥١٣٥)، وقال: «تفرد به أبو مجاهد عبد الله بن كيسان المروزي عن ثابت، وهو منكر الحديث».

وقولُه: «وإيثارُ أهْلِ الآخِرَة» أنْ يكُونَ الفَقِيرُ المتَسَبِّبُ الغَالِبُ عليه التَّرَدُّدُ إلى أولِياءِ الله، والاقْتِباسُ منهُم، ليتَقَوَّى بذلِكَ عَلى كُدْرةِ الأسْباب فتَنْفحُ عليه نَفَحاتُهم، وتَظْهرُ عليهِ برَكاتُهُمْ، ورُبَّما وَصَلَتْ إليه في سَبَبه أمْدادُهُمْ، وحَفِظَهُ مِنَ المعْصِيةِ ودُّهُم واعْتِقَادُهُم.

وقولُه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «ومواسَاةُ ذَوِي الفَاقَة» وذلكَ لأنَّه يجبُ على العَبدِ أنْ يشْكُرَ نِعْمَةَ الله عندَهُ، فإذا فُتِحَ لَكَ في الأسْبابِ فاذْكُرْ مَنْ أُغْلقَتْ عليه أبْوابُها.

واعْلَمْ أنَّ الله سُبْحانه وتَعالى اخْتَبَرَ الأغْنياءَ بوُجْدانِ أهْلِ الفاقةِ كما اخْتَبَرَ أهْلَ الفَاقَةِ بوجودِ الأغْنِياءِ: ﴿وَجَعَلْنا بَعْضَكُم لبعْضٍ فِتنةً، أتَصْبِرُونَ وكانَ ربُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

ووُجُودُ أهْلِ الفَاقَة مِنْ نِعْمَةِ الله على ذَوِي الغِنَى إذْ وَجَدُوا مَنْ يحمِلُ عَنهُم أزْوادَهُم إلى الدَّارِ الآخِرَة، وإذْ وَجَدُوا مَنْ إذا أخَذَ مِنهُمْ، أخَذَ الله مِنهُمْ، ﴿والله هُوَ الغَنيُّ الحميدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فَلَوْ لم يُخلَقِ الفَقِيرُ فكيفَ كانَ تُتقبَّلُ مِنْهُم صَدقَاتُهم؟ وأينَ كانُوا يجدُونَ مَنْ يأخُذُهَا مِنهُم؟

ولذلِكَ قالَ ﷺ: (مَنْ تَصدَّقَ بصَدقةٍ مِنْ كَسْبِ طَيِّب، ولا يقْبَلُ الله تَعالى إلَّا طَيِّبًا، كانَ كأنَّما يضَعُهَا في كَفِّ الرَّحمنِ يُرَبِّيهَا لَه، كما يُربِّي أحدُكُمْ فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه، حتَّى إنَّ اللُّقْمَةَ لَتَعُودُ مِثلَ جَبَلِ أُحُدٍ)[1]. ولذلِكَ كانَ مِنْ أشْراطِ

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٤١٠)، و(٧٤٣٠)، ومسلمٌ (١٠١٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

السَّاعة: أنْ لا يَجِدَ الرَّجُلُ مَنْ يَقْبلُ صَدَقتَه.

وقَولُهُ: «ومُلازَمتُه الخمْسَ في جَماعةٍ»، وذلكَ: أنَّ الفَقيرَ المتَسبِّبَ لَّما فاتَه التَّخَلِّي والتَّجَرُّدُ لعِبادةِ الله تَعَالى، فيدْخُلُ مُدْخَلَ الخصُوصِ بدَوامِ الخِدْمةِ، ومُلازمةِ الموافقَةِ.

فَيَنْبغِي أنْ لا تفُوتَه مُلازَمةُ الخمْسِ في الجمَاعَةِ، لِتكُونَ ملازمَتُه لها سبَبًا لتَجْديدِ الأنوارِ، ومُوجبًا لوجُودِ الاسْتِبْصَارِ، وقدْ قَالَ ﷺ: (تَفْضُلُ صَلاةُ الجماعَةِ على صَلاةِ الفَذِّ بِخَمْسٍ وعِشْرينَ دَرَجةً)[1]، وفي الحَديثِ الآخَرِ: (بسَبْعٍ وعِشْرِين جُزْءًا)[2].

ولوْ شُرِعَ للعِبادِ أنْ يُصَلِّيَ كُلُّ إنسانٍ في حَانُوتِه ودارِه، لتَعَطَّلتِ المساجِدُ التي قالَ فِيها الحقُّ سبحانَه وتَعالى: ﴿في بُيُوتٍ أَذِنَ الله أنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيهَا اسْمُه، يُسَبِّحُ له فيها بالغُدُوِّ والآصَالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارةٌ، ولا بَيعٌ عنْ ذِكْرِ الله﴾ [النور: ٣٧].

ولأنَّ في مُلازَمَةِ الصَّلاةِ جماعةً اجْتِماعَ القُلوبِ وتناصُرَها والتِئامَها، ورُؤْيَةَ المؤمِنينَ واجتماعَهُم. وقالَ ﷺ: (يدُ الله مَعَ الجماعَةِ)[3].

---

(١) متفقٌ عليه؛ مخرَّج في الصحيحين في عدة مواضع مطوَّلًا ومختصرًا، منها ما أخرجه البخاريُّ (٤٧٧)، ومسلمٌ (٦٤٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٥)، ومسلمٌ (٦٥٠)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢١٦٦)، والحاكم (١/ ١١٦)، والقضاعيُّ (٢٣٩)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وفي الباب عن ابن عمر وغيره. وعند بعضهم بلفظ: «يد الله على الجماعة».

ولأنَّ الجماعَةَ إذا اجْتَمَعَتْ انْبَسَطَتْ بَركَاتُ قُلوبِهم على مَنْ حضرهُم وامْتدَّتْ أنوارُهُم لمن شَهِدَهُم، وكانَ اجتماعُهُم وتضامُّهُم كالجيش إذا اجْتَمَعَ وتضَامَّ كانَ ذلكَ سببًا في وجُودِ نُصْرَتِه، وهُوَ أحدُ التَّأويلينَ في قَوْله تعالى: ﴿إنَّ الله يُحِبُّ الَّذينَ يُقاتِلُونَ في سَبيلِه صَفًّا كأنَّهم بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

***

استِلحاقٌ: وعَلَيكَ أيُّها المؤمِنُ بغَضِّ طَرْفِكَ مِنْ حينِ خُروجِكَ إلى سَبيلِكَ، إلى حِينِ تَرجِعُ، ولْتَذْكُرْ قولَ الله تَعَالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤمِنينَ يَغُضُّوا مِنْ أبْصَارِهِم ويَحْفَظُوا فُرُوجَهُم ذلِكَ أزْكَى لَهُم﴾ [النور: ٣٠]، ولْيَعْلَمْ أنَّ بَصَرَهُ نِعمةٌ مِنَ الله عَليه فلا يَكُنْ لِنعَمِ الله كفُورًا، وأَمَانةٌ مِنَ الله عنْدَه، فلا يكُنْ لها خَائنًا، ولْيذْكُرْ قولَه تعالى: ﴿يعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقَولَه تَعَالى: ﴿ألَمْ يَعْلَمْ بأنَّ الله يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

وإذَا أردْتَ أنْ تَرى فاعلَمْ أنَّه يَرى، ولْيعلَمْ أنَّه إذا غَضَّ بَصَرَهُ فتحَ الله بَصِيرَتَه جَزاءً وِفَاقًا، فمَنْ ضَيَّقَ على نفسِه في دائرةِ الشَّهادَة، وسَّعَ الله عَليه في دَائرةِ الغَيْب.

وقالَ بَعْضُهُم: «مَا غَضَّ أحدٌ بَصرَه عَنْ محارِمِ الله إلَّا ووجدَهُ نُورًا في قَلْبِه، يجِدُ حَلاوَةَ ذلِكَ».

***

في التدبير مُنازعة للربوبية

انْعطافٌ: اعْلَمْ أنَّ التَّدْبيرَ معَ الله عزَّ وجَلَّ عنْدَ أُولي البصَائرِ إنَّما هُوَ مخاصَمةٌ للرُّبُوبيَّةِ؛ وذلِكَ لأنَّه إذا نَزَلَ بكَ أمرٌ تريدُ رفْعَهُ، أوْ رُفعَ عنكَ أمْرٌ تُريدُ وضْعَه، أوْ تَهَمَّمْتَ بأمرٍ أنتَ عالمٌ أنَّه مُتكفِّلٌ بذلِكَ، وقائمٌ به إلَيكَ، كانَ ذلِكَ منازعةً للرُّبُوبيَّة، وخُرُوجًا عَنْ حقيقَةِ العُبوديَّةِ، واذكُرْ هَهُنا قولَه سبْحَانَه وتَعَالى: ﴿أوَ لم يرَ الإنْسَانُ أنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفةٍ فإذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، فَفِي هذِه الآيةِ توْبيخٌ للإنْسَانِ لمَّا غفَلَ عنْ أصْلِ نشْأتِه وخَاصَمَ مُنْشِئَهُ، وغَفَلَ عنْ سرِّ بدايتِه، ونازَعَ مُبْدِأَهُ، وكيفَ يَصْلُحُ لمنْ خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ، أنْ يُنازِعَ اللهَ في أحْكامِه، وأنْ يُضادِدَهُ في نَقْضِه وإبْرَامِه.

فاحْذَرْ رَحِمكَ اللهُ التَّدْبيرَ مَعَ اللهِ، واعْلَمْ أنَّ التَّدبيرَ مِنْ أشَدِّ حُجُبِ القُلوبِ عنْ مُطالَعةِ الغُيوبِ، وإنَّما التَّدبيرُ للنَّفْسِ يَنبُعُ مِنْ وجُودِ الموادَدَةِ لها، ولو غِبْتَ عنْهَا فَناءً، وكُنتَ باللهِ بقاءً لغَيَّبَكَ ذلك عن التَّدبيرُ لنَفْسِكَ أو بِنفْسِكَ، ومَا أقْبحَ عَبدًا جَاهِلًا بأفْعَال اللهِ، غَافِلًا عَنْ حُسْنِ نَظَرِ اللهِ.

ألمْ تَسْمَعْ قولَه تَعالى: ﴿قُلْ كَفَى باللهِ﴾ [الرعد: ٤٣]؟! فأينَ الاكْتِفاءُ باللهِ لعَبدٍ مُدبِّرٍ معَ اللهِ؟! ولوِ اكْتَفَى بتَدْبيرِ اللهِ لَه لاقْتَطَعهُ ذلِكَ عَنِ التَّدبيرِ مَعَ اللهِ.

***

تَنْبيهٌ وإعْلامٌ: اعلَمْ أنَّ التَّدبيرَ أكثرُ طَريانه على العِبادِ المتوجِّهِينَ، وأهْلِ السُّلوكِ مِنَ المريدِينَ قبلَ الرُّسُوخِ في اليقِينِ ووجُودِ القُوَّةِ والتَّمْكِينِ؛ وذلِكَ

لأنَّ أَهْلَ الغَفْلَةِ والإسَاءَةِ قَدْ أَجَابُوا الشَّيطانَ في الكَبائرِ والمخَالفَاتِ واتِّباعِ الشَّهَواتِ، فليسَ للشَّيطانِ حاجةٌ أنْ يدْعُوَهُم إلى التَّدْبيرِ، ولوْ دَعاهُم إليه لأجَابُوهُ بسُرْعةٍ فليسَ هوَ أقْوَى أسْبابه فيهم، إنَّما يدخُلُ بذلِكَ على أهْلِ الطَّاعَةِ والمتَوجِّهينَ لعجْزِه عنْ أنْ يدْخُلَ مِنْ غَيرِ ذلكَ عَليهِمْ.

فرُبَّ صَاحِبِ وِرْدٍ عَطَّلَه عنْ وِرْدِه، أوْ عنِ الحضُورِ مَعَ الله تَعَالى فيه، هَمُّ التَّدبيرِ والفِكْرَةُ في مَصَالحِ نفْسِه. ورُبَّ ذي وِرْدٍ اسْتَضْعَفَه الشَّيطانُ فألْقَى إليهِ دَسَائِسَ التَّدبيرِ ليُعكِّرَ عليهِ صَفَاءَ وقْتِه؛ لأنَّه حاسِدٌ، والحاسِدُ أشَدُّ ما يكُونُ لكَ حَسَدًا إذا صَفَتْ لَكَ الأوْقاتُ، وحَسُنَتْ منكَ الحالاتُ.

***

وساوس التدبير

ثُمَّ إنَّ وسَاوِسَ التَّدبيرِ تَرِدُ على كلِّ أحَدٍ مِنْ حيثُ حالُه: فمَنْ كانَ تَدْبيرُهُ في تَحْصِيلِ كفَايةِ يومِه أوْ غَدِهِ فَعلاجُه أنْ يَعْلَمَ أنَّ الله تَعَالى قَدْ تَكَفَّلَ لهُ برزْقِه لِقَوْلِه تَعَالى: ﴿ومَا منْ دابَّةٍ في الأَرْضِ إلَّا عَلَى الله رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وسَيأتي بَسْطُ القولِ في أمْرِ الرِّزْقِ، بعدَ هَذا في بابٍ مُنْفرِدٍ إنْ شَاءَ الله تعالى.

ومَنْ كانَ تَدْبيرُهُ في دفعِ ضَرَرِ العَدُوِّ الذي لا طاقةَ لهُ به فَلْيعْلَمْ أنَّ الذي يَخَافُه ناصيتُه بيدِ الحقِّ تعَالى، وأنَّه لا يصْنَعُ إلَّا مَا صَنَعهُ الحقُّ فيه، وليَذْكُرْ قولَه تعَالى: ﴿ومَنْ يتوكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُه﴾ [الطلاق: ٣]، وقَوْلَه تَعَالى: ﴿أَلَيْسَ الله بكَافٍ عَبْدَه ويُخَوِّفُونَكَ بالَّذينَ منْ دُونه﴾ [الزمر: ٣٦]، وقولَه تَعالى: ﴿الذينَ قَالَ لهمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قدْ جَمعُوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إيمانًا وقَالُوا حَسْبُنا

الله ونِعْمَ الوَكيلُ * فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُم سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ الله، والله ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

وأَصْغِ بِسَمْعِ قَلْبِكَ إلى قَولِه تَعَالى: ﴿فإذَا خِفْتِ عَلَيْه فأَلْقِيه في اليَمِّ ولا تَخَافي ولَا تَحْزَني﴾ [القصص: ٧]، ولْتَعلَمْ أنَّ الحقَّ تَعَالى أوْلى مَن اسْتُجيرَ به فأَجارَ؛ لقَوْلِه تَعَالى: ﴿وهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، وأَوْلَى مَن اسْتُحْفِظَ فحَفِظَ؛ لقَولِه تَعَالى: ﴿فالله خيرٌ حَافِظًا وهُوَ أرْحَمُ الرَّاحِمينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وإنْ كانَ التَّدْبيرُ منْ أجْلِ دُيونٍ حلَّتْ لا وفاءَ لها ولا صَبْرَ لأَرْبابِها، فاعْلَمْ أنَّ الذي يَسَّرَ عليك بلُطْفِه مَنْ أعْطاكَ، هوَ الذي يُيَسِّرُ بلُطْفِه الوفاءَ عَنْكَ: ﴿هَلْ جَزاءُ الإحْسَانِ إلَّا الإحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، وأُفٍّ لِعَبدٍ يَسْكُنُ لما في يدِه، ولا يَسْكُنُ لما في يدِ الحقِّ تَعَالى له.

وإنْ كانَ التدبيرُ مِنْ أجْلِ عائلةٍ تَركْتَهُم وراءَ ظَهْرِكَ لا شيءَ يَقُومُ بهم فاعْلَمْ أنَّ الذي يقُومُ بهم بعدَ مماتكَ هُو الَّذي يقُومُ بهِمْ في حُضُورِكَ وغَيْبَتِكَ في حَياتكَ؛ واسْمَعْ ما قالَ رسُولُ الله ﷺ: (اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخليفةُ في الأهْلِ)(١)، فالَّذي تَرجُوهُ أمامَك هُوَ الَّذي يُرجَى لما وَرَاءَك، واسْمَعْ قولَ بعْضِهِم:

إنَّ الَّذي وجَّهْتُ وجْهي لهُ * هُوَ الَّذي خَلَّفْتُ في أهْلي
لم يَخْفَ عنه حالُهم سَاعَةً * وفضْلُه أوْسَعُ مِنْ فَضْلي

(١) تقدم تخريجه. انظر ص١١٤.

وإنَّ الله أرحَمُ بهِمْ منكَ، فلا تَهتَمَّ بمَنْ هُوَ في كَفالَةِ غيْرِكَ. وإنْ كَانَ تَدْبيرُكَ واهتِمامُكَ مِنْ أَجْلِ مَرَضٍ نزَلَ بكَ تخَافُ أنْ تَتطاوَلَ سَاعاتُه وتمَتَدَّ أوقَاتُه، فاعْلَمْ أنَّ للْبلايَا والأسْقَامِ أعْمارًا، فكَما لا يَموتُ حيوانٌ إلَّا عِنْدَ انْقضَاءِ عُمُرِه، كذلَكَ لا تنْقَضِي بَلِيَّةٌ حتَّى يَنْقَضِيَ ميقَاتُها، واذْكُرْ قولَه تعَالَى: ﴿فإذَا جَاءَ أجَلُهُمْ لا يَسْتأخِرُونَ سَاعةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وكَانَ ولَدٌ لبَعْضِ المشَايخِ، فتُوُفِّيَ أبُوهُ وبقِيَ الولدُ بعدَه، فامْتَسَكَتْ عليه أمْدادُ الوَقْتِ، وكانَ لأبيه أصْحَابٌ قد تفرَّقُوا بالعِرَاقِ، فتفكَّرَ: أيَّ أصْحابِ أبيه يقْصِدُ؟ ثُمَّ أجمعَ عَزْمَه على أنْ يَقْصِدَ أوْجهَهَمْ عندَ النَّاسِ، فلَمَّا قَدمَ عليه أكرَمَه وأجَلَّ مَحلَّه ثُمَّ قالَ: «يا سيِّدي، وابنَ سيِّدي: مَا الَّذي جاءَ بكَ؟»، قال: «تَوَقَّفَتْ عليَّ أسْبابُ الدُّنْيا، فأريدُ أنْ تَتَحَدَّثَ لي عنْدَ أميرِ البَلْدَة، لعلَّه أنْ يَجْعلَني عَلى جهَةٍ مِنْ جِهَاتِهِ فيكُونَ فيها تمشيةُ حَالي»، فأطْرَقَ الشَّيخُ مَلِيًّا ثُمَّ رفَعَ رأسَه إليهِ وقالَ: «ليسَ في قُدْرتِي أنْ أجْعلَ أوَّلَ اللَّيلِ سَحَرًا، أينَ أنا منْكَ إذا وَلِيتَ حُكْمَ العِرَاقَيْنِ[1]؟».

فخَرَجَ ولَدُ ذلكَ الشَّيخِ منْ عنده مُتَغَيِّظًا، ولم يفهَمْ ما قالَ له الرَّجُلُ الصَّالحُ. فاتُّفقَ أنْ طلبَ الخليفةُ مَنْ يُعلِّمُ ولَدَه، فدُلَّ عليه، وقيلَ له: وَلَدُ فُلان، فَأُحْضرَ لتَعْليمِ وَلَدِ الخليفةِ فمكثَ يُعلِّمُ ولَدَ الخليفةِ مدَّةَ التَّعليمِ، ويُجالسُه بعدَ ذلك حتَّى تكَمَّلَتْ أربعينَ عامًا، فتُوفِّيَ الخليفةُ واسْتُخْلفَ ولدُه الذي كانَ هَذا معلِّمًا لهُ فولَّاهُ حُكْمَ العِراقَيْنِ.

(١) أي الكوفة والبصرة.

وإنْ كانت الفكْرةُ لأجْلِ زَوْجةٍ أوْ أمَةٍ فقدْتَها، كانتْ تُوافقُكَ في أحْوالكَ، وتقُومُ بمُهمَّاتِ أشْغَالكَ، فاعْلَمْ أنَّ الَّذي يسَّرَهَا لكَ لم ينْفدْ فضلُه، وإحْسانُه لم ينْقطعْ، وهُوَ قديرٌ على أنْ يَهبَكَ مِنْ منَّته ما يزيدُ حُسْنًا ومَعْرفةً على ما فقدْتَ، فلا تكُنْ مِنَ الجاهلينَ.

ووجُوهُ التَّدبيرِ لا تَتعدَّدُ عاجلاتُها، فاسْتقْصاءُ وجُوهِهَا وعاجلاتها لا سَبيلَ إليه لانْتِشارِهَا وعَدَمِ انحِصارِهَا، ومَتَى أعْطَاكَ الله الفَهْمَ عرَّفَكَ كيف تَصْنعُ.

***

التدبير إنما يكون لوجود حجاب النفس

تَنْبيهٌ وإعْلَامٌ: اعْلَمْ أنَّ التَّدبيرَ إنَّما يكُونُ منَ الَّنفْسِ لوُجودِ الحجابِ فيها، ولوْ سَلِمَ القلْبُ مِنْ مُجاوَرَتِها، وَصِينَ مِنْ محادَثَتِهَا، لم تطرُقْه طَوارقُ التَّدْبيرِ.

وسَمَعْتُ شَيخَنا أَبَا العبَّاسِ المرسيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقُولُ: «إنَّ الله سُبْحانه وتَعالى لَّما خَلَقَ الأرْضَ على الماءِ اضْطَّربتْ، فأرْسَاهَا بالجبال، فقَال: ﴿والجِبَالَ أرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وكذلكَ لما خَلَقَ النَّفسَ اضْطَّربَتْ فأرْسَاها بجبالِ العَقْلِ». انتهى كلامُ الشَّيخِ أبي العَباسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فأيُّ عبدٍ توفَّرَ عقلُه واتَّسعَ نُورُهُ، تَنَزَّلَتْ عليه السَّكينةُ منْ ربِّه، فسَكَنَتْ نفسُه عن الاضطِّرَاب، وَوَثقتْ بوليِّ الأسْبابِ فكانَتْ مُطْمَئِنَّةً، أيْ خامدةً سَاكنةً لأحكَامِ الله، ثابتةً لأقْدَارِه، ممْدودةً بتَأييده وأنوَارِه، خارجةً عن التَّدْبيرِ والمنازعةِ للمقادير، مُسَلِّمةً لمولاهَا لعِلْمِها بأنَّه يرَاهَا: ﴿أوَ لَمْ يكْفِ بربِّكَ أنَّه

على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]، فاسْتَحقَّتْ أنْ يُقَالَ لها: ﴿يا أيَّتُهَا النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إلى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فادْخُلِي في عِبادِي وادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٢٩].

وفي هَذه الآيةِ خَصَائصُ عظِيمةٌ، ومَناقبُ لهِذه النَّفسِ المطْمَئِنَّة جَسِيمةٌ، منها:

أنَّ النُّفُوسَ ثلاثةٌ: أمَّارَةٌ، ولوَّامةٌ، ومُطْمَئِنَّةٌ[1]، فلَمْ يواجِه الحقُّ سُبحَانَه وتَعَالى واحدةً منَ الأنفُسِ الثَّلاثِ إلَّا المطْمَئِنَّة، فقَالَ في الأمَّارَة: ﴿إنَّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وفي اللَّوَّامَة: ﴿ولَا أقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوامَة﴾ [القيامة: ٢]، وأقبلَ على هذِه بالخِطَابِ فقال: ﴿يا أيَّتُهَا النَّفسُ المطْمَئِنَّة ارْجِعِي﴾.

الثَّاني: تَكنِيتُه إيَّاهَا[2]، والتَّكْنيةُ في لُغةِ العَرَبِ تجليلٌ في الخِطَابِ، وفَخْرٌ عنْدَ أولى الألْبابِ.

الثَّالثُ: مدْحُه إيَّاها بالطُّمَأْنينةِ ثناءٌ منه عليهَا بالاسْتِسْلام إليه والتَّوكُّلِ عَليه.

---

(١) قال الشيخ رضي الله عنه ذلك على سبيل الاختصار، وإلا فالمشهور أن النفوس سبعة. قال الإمام الجعفري رضي الله عنه في كتابه «المنتقى النفيس»:

وقسم الأنفسَ أهلُ البرّ * لسبعة: أمــــارةٍ بالشرّ
لوامة، ملهمـــــة عن ربي * والمطمئنة التي في القُرْب
راضية مرضية وكاملة * وهذه عدتهن حاصلة

وكلها ورد ذكرها في القرآن الكريم -كما هو معلوم- ما خلا الأخيرة «الكاملة» فقد جاءت في السنة النبوية الإشارة إليها في قوله ﷺ: (كمل من الرجل كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع...).

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أيتها﴾.

الرَّابعُ: وصْفُه هذِه النَّفسَ بالطُّمَأنِينَةِ، والمطْمَئِنُّ هُوَ المنْخَفِضُ مِنَ الأرْضِ، فلَما انْخَفَضَتْ بتَواضُعِها وانْكِسَارِها، أثْنى عَلَيها مَوْلَاهَا إظْهارًا لفَخْرِها لقَولِه ﷺ: (مَنْ تواضَعَ للهِ رَفَعَه اللهُ)[1].

الخامِسُ: قولُه تَعَالى ﴿ارْجِعِي إلى ربِّكِ راضِيةً مَرْضِيَّةً﴾ فيه إشَارةٌ إلى أنَّه لا يُؤْذَنُ للنَّفسِ الأمَّارَةِ واللَّوَّامةِ بالرُّجُوعِ إلى اللهِ تَعَالى رُجُوعَ الكَرامةِ، بَلْ إنَّما ذلكَ للنَّفسِ المطْمئِنَّةِ لأجْلِ مَا هيَ عليه مِنَ الطُّمَأْنينةِ قيلَ لهَا: ﴿ارجِعِي إلى رَبِّكِ رَاضِيةً مَرْضِيَّةً﴾، فَقَدْ أَبَحْنا لكِ الدُّخُولَ إلى حَضْرَتنا، والخُلُودَ في جَنَّتِنا، فكَانَ في ذلِكَ تَحْرِيضٌ للعَبْدِ على مَقَامِ الطُّمَأْنينةِ، ولا يَصِلُ إليه أحَدٌ إلَّا بالاسْتِسْلامِ إلى اللهِ تَعَالى، وعَدَمِ التَّدْبيرِ مَعَه.

السَّادسُ: قولُه ﴿ارْجِعِي إلى ربِّكِ﴾ ولم يقُلْ «إلى الرَّبِّ»، ولَا «إلى اللهِ»، فيه إشَارَةٌ إلى رُجُوعِهَا إليه منْ حَيثُ لُطْفُ ربُوبيَّتِه، لا إلى قَهْرِ إلاهِيَّتِه، فكانَ ذلكَ تأنيسًا لها، ومُلاطَفَةً وتكْرِيمًا ومُوادَدَةً.

السَّابعُ: قولُه تَعَالى ﴿رَاضِيَةً﴾، أيْ: عَنِ اللهِ في الدُّنْيا بأحْكامِه، وفي الآخِرَةِ بجُودِه وإنْعامِه. فكانَ في ذلكَ تَنْبيهٌ للعَبدِ أنَّه لا يحصُلُ له الرُّجْعَى إلى اللهِ إلَّا مَعَ الطُّمَأْنينةِ باللهِ، والرِّضَا عَنِ اللهِ، وإلَّا فَلَا.

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٥٨٨)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بلفظ: «وما تواضعَ أحدٌ لله إلَّا رفعه الله». وفي الباب عن جماعةٍ من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.
وقال سيدي عمر بن الفارض رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:
تواضعتُ ذُلًّا وانخِفاضًا لِعزِّها * فشرَّف قدري في هواها التواضُعُ

وفي ذَلِكَ إشارةٌ إلى أنَّه لا يحصُل أنْ يكُونَ مَرْضِيًا عنْدَ الله في الآخِرَة، حَتَّى يَكُونَ راضِيًا عنه في الدُّنيا.

فإنْ قُلْتَ هذِه الآيةُ تقْتَضي أنْ يكُونَ الرِّضَا منَ الله نَتيجَةَ الرِّضَا منَ العَبْدِ؛ والآيةُ الأخْرَى تَدُلُّ على أنَّ الرِّضَا مِنَ العَبْدِ نَتيجَةَ الرِّضَا مِنَ الله عَنه؟!

فاعلَمْ أنَّ لِكُلِّ آيةٍ مَا أثْبَتَتْ، فلَا خَفاءَ في الجمْعِ بَيْنَ الآيتَين، وذلكَ أنَّ قَولَه تَعَالى: ﴿رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] يَدُلُّ مِنْ وجُودِ تَرتِيبِه عَلى أنَّ الرِّضَا مِنَ العَبْدِ نتيجَةَ الرِّضَا مِنَ الله والحقيقةُ تَقْضي بذلِكَ؛ لأنَّه لو لم يرضَ عنْهُم أوَّلا، لم يرْضَوْا عنْهُ آخِرًا. والآيةُ الآخِرةُ تدُلُّ على أنَّ مَنْ رضيَ عَنِ الله في الدُّنيا، كَانَ مَرْضِيًّا عِندَه في الآخِرَةِ، وذلِكَ بَيِّنٌ لَا إشْكَالَ فيه.

الثَّامِنُ: قولُه تَعَالى ﴿مَرْضِيَّةً﴾، وذلكَ مُدْحةٌ عظِيمةٌ لهذِه النَّفْسِ المطْمَئنَّةِ، وهيَ أجَلُّ المدْحِ والنُّعُوتِ، ألم تَسْمَعْ قَوْلَه تَعَالى: ﴿ورِضْوانٌ مِنَ الله أكبرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، بعدَ أنْ وصَفَ نَعِيمَ أهْلِ الجنَّةِ، أيْ: رِضْوانٌ مِنَ الله عَنْهُم فيهَا أكبرُ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي هُمْ فيه.

التَّاسِعُ: قولُه تَعَالى ﴿فادْخُلي في عِبَادِي﴾ فيه بِشَارَةٌ عُظْمَى للنَّفسِ المطْمَئنَّة، إذْ نُودِيتْ ودُعِيَتْ إلى أنْ تدخُلَ في عِبادِه، وأيُّ عبادٍ هَؤُلاءِ؟ هُمْ عبادُ التَّخْصِيصِ والنَّصرِ، لا عَبادُ الملْكِ والقَهْرِ، هُم العِبادُ الذِينَ قال الله فيهم: ﴿إنَّ عِبَادِي ليسَ لَكَ عليهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقالَ تَعَالى: ﴿إلَّا عِبادَكَ منْهُم المخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]، لا العبادُ الآخَرُونَ الذينَ قالَ فِيهِمْ: ﴿إنْ كُلُّ مَنْ في

السَّمواتِ والأرْضِ إلَّا آتي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فكانَ فَرَحُ هذه النَّفْسِ المطْمَئنَّة بقَوْلِه ﴿فادْخُلي في عِبادِي﴾ أشَدَّ منْ فرَحِها بقَوْلِه تَعَالى ﴿وادْخُلي جَنَّتِي﴾؛ لأنَّ الإضَافةَ الأُولَى إليه تَعَالى، والإضَافةُ الثَّانيةُ إلى جَنَّته.

العاشرُ: قولُه تَعَالى ﴿وادْخُلي جَنَّتي﴾ فيه إشَارةٌ إلى أنَّ هذه الأوْصَافَ التِي اتَّصَفَتْ بها النَّفْسُ المطْمِئنَّةُ، هيَ التي أهَّلَتْها إلى أنْ تُدْعى أنْ تَدخُلَ في عبادِه، وإلى أنْ تدْخُلَ في جَنَّتِه، جنَّةِ الطَّاعَةِ في الدُّنيا، والجنَّةِ المعلُومةِ في الآخِرةِ. واللهُ أعْلَمُ.

***

فائدة: قدْ تَضَمَّنَتِ الآيةُ صِفتَينِ؛ كلُّ واحَدةٍ منْهما تَدُلُّ على هَدْمِ قواعدِ التَّدبيرِ؛ وذلكَ أنَّه سُبحَانه وتعالى وصفَ هَذِه النَّفسَ التي خَصَّصَها بهذِه الخصَائِصِ التي ذكَرناهَا بأوْصَافٍ منْها: الطُّمأنينةُ، والرِّضَا.

وهُما لا يكُونانِ إلَّا معَ إسْقاطِ التَّدبيرِ، إذْ لا تكُونُ النَّفسُ مُطْمئنَّةً حتَّى تتْرُكَ التَّدبيرَ معَ الله تعالى ثِقةً منها بحسْنِ تَدبيره لَهَا؛ لأنَّها إذا رَضِيتْ عنِ الله اسْتَسْلمتْ لهُ، وانقَادتْ لحكْمه، وأذْعنَتْ لأمْرِه، فاطمأنَّتْ لرُبُوبيَّتِه، وقرَّتْ بالاعْتمادِ على إلاهيَّتِه، فلا اضطِّرابَ؛ إذْ ما أعْطَاهَا منْ نُورِ العقْلِ يثَبِّتُها فلا حركةَ لها، خَامدةً لأحْكامِه، مُفَوَّضةً له في نَقْضِه وإبْرامِه.

***

فائدة: اعلَمْ أنَّ سرَّ خَلقِ التَّدبيرِ والاخْتيارِ، ظُهورُ قهْرِ القهَّارِ، وذلك أنَّه سبحانه أرَادَ أنْ يتعرَّفَ إلى العِبادِ بقَهرِه، فخَلَقَ فيهم تدبيرًا واختيارًا، ثُمَّ فسَحَ لهم بالحِجْبة حتَّى أمْكَنَهُم ذلِكَ؛ إذْ لو كانُوا في وجُودِ المَواجَهةِ والمعَاينةِ، لم يُمْكنْهُم التَّدبيرُ والاخْتيارُ، كما لا يُمكنُ الملأَ الأعْلى ذلِك.

فلمَّا دَبَّرَ العِبادُ واخْتارُوا؛ توجَّه بقَهْرِه إلى تدبيرِهم واختيارِهم، فزَلْزَلَ أرْكانَهُم، وهَدَمَ بُنيَانَهم، فلمَّا تعرَّفَ للعبادِ بقَهرِ مُرادِه علِموا أنَّه القاهرُ فوقَ عِبادَه.

فما خَلقَ الإرادةَ فيكَ لتكُونَ لكَ الإرادةُ، ولكنْ لتدْحَضَ إرادتُه إرادتَك، فتَعلمَ أنه ليسَ لَكَ إرادةٌ. كذلِكَ لم يَجعلِ التَّدبيرَ فيكَ ليكُونَ ذلكَ دائمًا فيكَ، وإنَّما جعلَه فيكَ لتُدبِّر ويُدَبِّرَ، فيكُونُ ما يدَبِّرُ لا ما تُدبِّرُ، ولذلكَ قِيلَ لبَعْضِهمْ: بماذا عرفتَ الله؟ قالَ: بنقْضِ العَزائِم.

***

فصلٌ: [التدبيرُ في الرزق]

كنَّا قد وعَدْنا بأنَّا نُفْرِدُ للتَّدبيرِ في شأنِ الرِّزْقِ بابًا؛ وذلك أنَّ أكثرَ دخُول التَّدبيرِ على القُلوبِ مِنْ جِهَتِه.

فاعْلَمْ أنَّ سَلامَةَ القُلوبِ مِنَ التَّدبيرِ في شَأنِ الرِّزْقِ مِنَّةٌ عُظمى، لا يسْلَمُ منْها إلَّا الموفَّقُونَ، الذين صَدقُوا الله في حُسْنِ الثِّقةِ، فاطْمأنَّتْ قلُوبُهم إليه، وتحقَّقُوا بالتَّوكُّلِ عليه؛ حتَّى لقَد قالَ بَعضُ المشايخِ: «احْكُمُوا لي أمْرَ الرِّزْقِ ولا علَيكُم مِنْ سَائرِ المقَامَاتِ».

وقال بعضُ المشَايخِ: «أشَدُّ الهمُومِ هُمومُ الاقْتضَاءِ».

وتبيينُ ما قالَ هذا الشَّيخُ: أنَّ الله تَعالى خَلقَ هذا الآدميَّ مُحتاجًا إلى مَددٍ يُمسِكُ بنيْتَه ويَمدُّ قُوَّتَه، لَّما كانتِ الحرارةُ الغَريزيَّةُ التي هيَ فيه تُحلِّلُ أجْزاءِ بدَنِه، كانَ هذا الغذاءُ تطْبُخُه المعدةُ، فتأخذُ خُلاصتَه، فتعودُ جزءُ بدنِه خلَفًا لما حلَّلَتْهُ الحرارةُ الغريزيَّة منْه، ولوْ شَاء الحقُّ تَعالى لأغْنى وجودَ الآدميَّ عنِ المددِ الحِسِّيِّ وتناوُلِ الأغْذيةِ، ولكنْ أرادَ سُبحانَه وتَعالى أنْ يُظهِرَ حاجةَ الحيوانِ إلى وجُودِ التَّغذِيةِ، واضطِّرارَه إلى ذلكَ، وغِناهُ سُبحانه وتَعالى عَّما هُو الحيوانُ محتاجٌ إليه، فلِذلكَ قالَ سُبحَانه وتَعالى: ﴿قلْ أغَيرَ الله أتَّخِذُ وليًّا فاطرَ السَّمواتِ والأرضِ وهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

فتَمَدَّحَ سُبْحانَه وتَعالى بوَصفَين: أحدُهُما: أنَّه يُطْعِمُ غيرَه؛ لأنَّ كلَّ العبادِ آخذٌ منْ إحسَانه، وآكلٌ منْ رزقِه وامْتِنانِه. والآخَرُ: أنَّه لا يُطْعَمُ؛ لأنَّه المقدَّسُ عن الاحْتياجِ إلى التَّغذِيةِ، بل هو الصَّمَدُ، والصَّمَدُ هو الذي لا يُطْعَمُ.

وإنَّما خَصَّ الحقُّ تَعالى الحيوانَ بالافْتقارِ إلى التَّغذيةِ دُونَ غيرِه منَ الموجُوداتِ؛ لأنَّه سُبحانه وتَعالى وهبَ الحيوانَ من صِفاتِه ما لو تَرَكَه منْ غيرِ فاقةٍ لادَّعى، أو ادُّعِيَ فيه؛ فأرادَ الحقُّ سُبحانه وتَعالى -وهُو الحكِيمُ الخبيرُ- أنْ يُحوِجَه إلى مَأكَلٍ وَمَشربٍ ومَلْبَسٍ وغيرِ ذلكَ، ليكونَ تكرارُ الحاجةِ منه سببًا لخمُودِ الدَّعْوَى عنه أو فِيه(1).

***

فوائد وجود الحاجة وورود الفاقة

فائدةٌ: اعلمْ أنَّ الحقَّ تعالى أرادَ أنْ يجعلَ الحاجةَ لهذا النَّوعِ، وهُو الحيوَانُ، منَ الآدميِّ وغَيرِه، إمَّا ليَعْرِفَه، أوْ ليُعْرَفَ به؛ ألا ترى أنَّ الحاجةَ بابٌ إلى الله، وسببٌ يوصِّلُكَ إليه، ألم تَسْمعْ قولَه تعالى: ﴿يا أيُّها النَّاسُ أنتُمُ الفُقراءُ إلى الله، والله هوَ الغنيُّ الحميدُ﴾ [فاطر: 15]؟!

فجَعَلَ الفقْرَ إلى اللهِ سَببًا يُؤدِّي إلى الوصُولِ إليه، والدَّوامِ بينَ يدَيه.

---

(1) لذا قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: 7] ظنا منهم أن الرسل ينبغي أن يكون كمن أرسله.
وقال تعالى في شأن عيسى وأمه رضي الله عنهما: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ..﴾ [المائدة: 75] ليدلل بذلك

ولعَلَّكَ تفْهمُ هَهُنا قولَه ﷺ: «منْ عَرَفَ نفْسَه عَرَفَ ربَّه»[1]. أيْ: من عرفَ نفسَه بحَاجتِها وافتقارِها وذِلَّتِها وفاقَتِها ومسْكَنتِها، عرفَ ربَّه بعزِّه وسلْطانِه وجودِه وإحْسانِه، إلى غيرِ ذلِكَ مِنْ أوصَافِ الكَمالِ.

لا سيَّما هذا النَّوعَ منَ الآدميِّ؛ فإنَّ الحقَّ سُبْحانه وتَعالى كرَّرَ فيه أسْبابَ الحاجَةِ وعدَّدَ فيه أنواعَ الفاقَةِ، لأنَّه محتاجٌ إلى صَلاحِ مَعاشِه ومَعادِه.. وافهَمْ هَهُنا قولَه تَعالى: ﴿لقَدْ خَلَقْنا الإنْسَانَ في كبدٍ﴾ [البلد: ٤]، أيْ: منْ أمْرِ دُنياهُ وأُخْرَاهُ، فلِكرامَتِه عندَ الله كَرَّرَ أسْبابَ الحاجةِ فيه؛ ألم تَرَ أنَّ لأصْنَافِ الحيوانِ غُنْيَةً بأصْوَافِها وأوْبارِها وأشْعَارِهَا، عنْ لباسِ دِثَارِها، وغُنيةً بِمَرابِضِهَا وأوْكَارِهَا عنْ أنْ تتَّخِذَ بيتًا لقَرارِهَا.

***

فائدةٌ أخْرى: وهُوَ أنَّ الحقَّ تعالى أرادَ أنْ يختَبِرَ هذَا الآدَمِيَّ فأحْوَجَه لأمورٍ شتَّى ليَنظُرَ أيدْخلُ في اسْتجْلابِها بعقْلِه وتدْبيرِه، أوْ يَرْجِعُ إلى الله في قِسْمَتِه وتَقْديرِه.

فائدةٌ أخْرَى: وهُو أنَّه سُبْحَانَه وتَعَالى أرادَ أنْ يتَحَبَّبَ إلى هذا العَبدِ، فلمَّا أوْرَدَ عليهِ أسبَابَ الفَاقةِ ورفَعَها عنهُ، وجَدَ العبدُ لذلِكَ حلاوةً في نَفْسِه، وراحَةً في قَلْبِه، فأوجبَ له ذلكَ تجديدَ الحبِّ لربِّه.

---

(1) ذكر عددٌ من الحفَّاظ أنه ليس بحديث مرفوع، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي. انظر: «المقاصد الحسنة» للسخاوي (ص ٦٥٧، رقم ١١٤٩)، و«الدرر المنتثرة» للسيوطي (ص ١٨٥، رقم ٣٩٣)، وغيرهما.

قالَ ﷺ: (أَحِبُّوا الله لما يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِه)[1]، فكُلَّما تجدَّدَتِ النِّعمُ تجدَّدَ له مِنَ الحبِّ بحَسبِها.

فائدةٌ أخْرى: وهُو أنَّه سُبحانه وتَعالى أرادَ أنْ يُشْكَرَ، فلذلكَ أوْردَ الفاقةَ على العِبادِ، وتولَّى رفعَها ليقُومُوا له بوجُودِ شُكرِه، وليَعرِفُوه بإحسَانه وبرِّه. قال تَعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

فائدةٌ أخْرَى: وذلكَ أنَّه تعالى أرادَ أنْ يفتحَ للعبادِ بابَ المناجَاةِ، فكُلَّما احتَاجُوا إلى الأقْواتِ والنِّعم توجَّهُوا إليه، برَفْعِ الهِمَم، فشُرِّفُوا بمناجَاته ومُنِحُوا من هِباتِه. ولوْ لم تَسُقْهمُ الفَاقةُ إلى المناجَاةِ، لم تفْقَهْها عقولُ العُمومِ منَ العِبادِ، ولوْلا الحاجةُ لم يَسْتَفتِحْ بابَها إلا عقولُ أهْلِ الوِدادِ. فصَارَ وُرُودُ الفَاقةِ سَبَبًا للمناجَاةِ، والمناجاةُ شَرفٌ عظيمٌ، ومنْصِبٌ من الكرَامةِ جَسيمٌ. ألا تَرى أنَّ الحقَّ سُبْحَانَه وتَعالى أخبَرَ عنْ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بقولِه سُبْحَانَه وتَعالى: ﴿فَسَقَى لهما ثُمَّ تولَّى إلى الظِّلِّ، فقالَ ربِّ إنِّي لما أنْزلْتَ إليَّ منْ خيرٍ فَقيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]. قالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «والله مَا طلبَ إلَّا خُبْزًا يأكلُه، ولقَدْ كانتْ خُضرةُ البقْلِ تُرى منْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِه، لهُزَالِه»[2].

---

(١) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٩٥٢)، والترمذيُّ (٣٧٨٩)، والطبرانيُّ في «الكبير» (٣/ ٤٦)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٤٩)، وغيرهم من حديث عبدالله بن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه أحمد في الزهد كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٤٠٥)، وابن جرير في «التفسير» (١٨/ ٢١٦)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٦٨٠٩) من حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا موقوفًا. وذكره الشريف الرضي في «نهج البلاغة» (١/ ١٩٥) من كلام الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فانظُرْ رَحمَكَ اللهُ: كيفَ سألَ مِنْ ربِّه ذلكَ لعِلْمِه أنَّه لا يملكُ شيئًا غيره[1]، وكذلكَ ينْبغِي للمؤْمنِ أنْ يكونَ كذلكَ، يسألُ اللهَ تعالى ما قلَّ وجَلَّ، حتَّى قالَ بعضُهُم: «إنِّي لأسْألُ اللهَ في صَلاتِي حَتَّى مِلْحَ عَجِينِي».

ولا يصُدَّنكَ أيُّها المؤمِنُ عنْ طَلبِ ما تحتَاجُ إليه مِنَ اللهِ قلَّةُ ذلكَ؛ فإنَّه إنْ لم تسْألْه في القليلِ، لم تجِدْ ربًّا يُعطِيكَ ذلكَ غيرَه. والمطلبُ وإنْ كانَ قليلًا، فقد صَار لفَتْحِه بابَ المناجاةِ جليلًا، حتَّى قال الشَّيخُ أبو الحسَنِ رحمه الله: «لا يكنْ هَمُّكَ في دُعَائك الظَّفرَ بقَضَاءِ حاجَتِكَ، فتكُونَ محجُوبًا عن ربِّكَ، ولْيكُنْ همُّك مُناجاةَ مَولاكَ».

***

وفي هذِه الآيةِ فَوائدُ:

فوائد في قصة موسى مع ابنتي شعيب عليهم السلام

الفائدةُ الأولَى: وهُوَ أنْ يكُونَ المؤمِنُ طالبًا من ربِّه ما قلَّ وجَلَّ، وقدْ ذكَرْناهُ آنفًا.

الفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّه ﷺ نَادَى متعَلِّقًا باسْمِ الرُّبُوبيَّةِ لأنَّه المناسِبُ في هذا المكَانِ؛ لأنَّ الرَّبَّ منْ ربَّاكَ بإحْسَانِه، وغذَّاكَ بامْتِنانِه، فكانَ في ذلكَ اسْتِعْطَافٌ لسيِّدِه إذْ ناداهُ باسْمِ الرُّبوبيَّةِ، التي ما قَطعَ عنْه عوائِدَها، ولا حَبَسَ فَوائِدَها.

(١) أي لا يملك موسى عليه السلام سوى السؤال والدعاء، أو لا يملك شيئا غيرُه، أي لا أحد سوى الله تعالى يملك مع الله شيئا، وذلك قوله تعالى -على لسان موسى عليه السلام-: ﴿ربِّ إني لما أنزلتَ إليَّ مِن خيْرٍ فَقيرٌ﴾.

الفائدةُ الثَّالثةُ: قولُه ﴿إنِّي لما أنزلْتَ إليَّ مِنْ خيرٍ فقيرٌ﴾، ولم يقلْ «إنِّي إلى الخيرِ فقيرٌ»، وفي ذلكَ من الفائدة: أنَّه لو قالَ: «إنِّي إلى خَيْرِكَ»، أو «إلى الخيرِ فقيرٌ»، لم يتضَمَّنْ أنَّه قد أنزلَ رِزْقَه، ولم يُهمِلْ أمرَه.

فأتى بقَولِه: ﴿إنِّي لما أنزَلْتَ إليَّ منْ خيرٍ فَقيرٌ﴾ لِيَدُلَّ على أنَّه واثقٌ بالله، عالمٌ بأنه لا ينْسَاهُ، فكأنَّه يقولُ: «ربِّ إنِّي أعْلَمُ أنَّكَ لا تُهْمِلُ أمْري، ولا أمْرَ شيءٍ ممَّا خَلَقْتَ، وإنَّكَ قَدْ أنزلْتَ رزْقي، فسُقْ لي ما أنْزلْتَ لي، كَيفَ تشَاءُ على ما تشَاءُ محفُوفًا بإحْسَانِكَ، مَقْرونًا بامْتِنانِكَ».

فكَانَ في ذلكَ فَائدَتانِ: فائِدةُ الطَّلبِ، وفائدةُ الاعْتِرَافِ بأنَّ الحقَّ سُبحانه وتَعالى قد أنزَلَ رِزْقَه، ولكِنَّه أبْهَمَ وقتَه، وسبَبَه، وواسِطَتَه، ليقعَ اضطِّرارُ العبدِ، ومَعَ الاضطِّرارِ تكونُ الإجابةِ، لقولِه تَعالى: ﴿أمَّنْ يُجيبُ المضْطرَّ إذَا دعَاه﴾ [النمل: ٦٢]. ولو تعَيَّنَ السَّببُ والوقْتُ والوسَائطُ، لم يقَعْ للعِبادِ الاضطِّرارُ الذي وجودُه عنْد إبْهامِها؛ فسُبْحانَ الإلَهِ الحكِيم، والقَادرِ العَليم.

الفَائدةُ الرَّابعةُ: تدُلُّ الآيةُ على أنَّ الطَّلبَ منَ الله تَعالَى، لا يُناقِضُ مَقامَ العُبوديَّةِ؛ لأنَّ مُوسَى عليه السلام له الكَمالُ في مَقام العُبودِيَّةِ، وبعدَ ذلِكَ طَلبَ منَ الله، فدَلَّ على أنَّ مَقامَ العُبودِيَّةِ لا يُناقِضُه الطَّلَبُ.

فإنْ قُلْتَ: إنْ كانَ مَقامُ العُبوديَّةِ لا يُناقِضُه الطَّلبُ، فكَيفَ لم يَطْلُبْ إبراهِيمُ خَليلُ الله ﷺ حينَ رُمِيَ به في المنْجَنِيقِ، وتَعرَّضَ له جبريلُ عليه السلام فقال: «ألَكَ حَاجةٌ؟»، قالَ: «أمَّا فإليك فَلا، وأمَّا إلى الله فَلا»، قال: «سَلْه»،

قال: «حَسْبِي مِنْ سُؤالي، عِلْمُه بحَالي»، فاكتَفَى بعِلْم الله تَعَالى به عنْ إظْهارِ الطَّلبِ منه؟!!

فالجوابُ: أنَّ الأنبياءَ صَلَواتُ الله عليهِمْ يُعاملون في كُلِّ موْطنٍ بما يَفْهمُونَ عنِ الله أنَّه اللَّائقُ بِه.

ففَهِمَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ المرادَ بِه في ذلك الموطنِ، عدمُ إظْهارِ الطَّلبِ والاكتفاءُ بالعِلم، فكانَ بما فَهِمَه عنْ ربِّه، وكانَ هذَا لأنَّ الحقَّ سُبحانَه أراد أنْ يُظهرَ سرَّهُ، وعنايتَه به للمَلأ الأعْلى الذين لَمَّا قَال لهم: ﴿إنِّي جاعلٌ فِي الأرْضِ خَلِيفةً، قالُوا أتجعَلُ فيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ؟! قالَ: إنِّي أعلَمُ ما لَا تَعلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فأرادَ الحقُّ تَعالى أنْ يُظْهرَ سرَّ قولِه ﴿إنِّي أعلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ يومَ زُجَّ بإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المنْجَنيق، كأنَّه يقُولُ: يا مَنْ قالَ: أتجعَلُ فيهَا مَنْ يُفْسدُ فيهَا، فكَيفَ رأيتُم خَليلي؟ نَظرتُمْ إلى ما يكُونُ في الأرْضِ منْ صُنع أهْلِ الفسَادِ، كنَمْرُودَ، ومَنْ ضَاهاهُ منْ أهلِ الفسَادِ، وما نَظَرتمْ إلى مَا يكُونُ فيهَا مِنْ أهْل الصَّلاحِ والرَّشادِ، كما كانَ منْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومنْ تابَعَه منْ أهلِ الودادِ؟!

وأمَّا مُوسَى -صَلَواتُ الله علَيه- فإنَّه عَلِمَ أنَّ مرادَ الحقِّ تعالى منْهُ في ذلك الوقتِ إظهارُ الفاقةِ وإبداءُ لسانِ المسْألةِ، فقامَ بما يقْتضِيه وقتُه، ﴿ولِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُولِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، فكُلٌّ على بيِّنةٍ وهدايةٍ، وتَوفيقٍ مِنَ الله تَعالى ورِعايةٍ.

الفائدةُ الخامسةُ: انظُرْ إلى طَلَبِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ منْ ربِّه وجُودَ الرِّزْقِ، ولم يوَاجِهْه بالطَّلبِ، بلِ اعترفَ بينَ يدَي الله بوَصْفِ الفَقرِ والفَاقةِ، وشَهِد له سُبْحانَه وتَعَالى بالغِنَى، لأنَّه إذا عرَفَ نفسَه بالفقْرِ والفاقةِ عرَفَ ربَّه بالغِنَى والملاءَةِ.

وهذَا مِنْ بُسُطِ المناجاةِ، وهيَ كثيرةٌ: فتارةً يجلسُك على بِسَاطِ الفاقةِ فتناديه: يا غَنِيُّ، وتارةً على بِساطِ الذِّلَّةِ فتُناديه: يا عَزيزُ، وتارةً على بِساطِ العَجْزِ فتُناديه: يا قَوِيُّ، وكذلكَ في بقيةِ الأسْماءِ.

فاعتَرفَ موسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالفقرِ والفاقةِ إلى الله تعَالى، فكانَ في ذلكِ تَعرِيضٌ للطَّلبِ، وإنْ لم يَطْلُبْ.

وقَدْ يكُونُ التَّعريضُ للتَّطلُّبِ بذِكْرِ أوْصَافِ العبْدِ من فقْرِه إلى الله تَعالى وحَاجتِه. وقدْ يكُونُ التَّعرِيضُ بذِكْرِ أوصَافِ السَّيِّدِ منْ وجُودِه وأحديتِه، كما جاءَ في الحديثِ: (أفضَلُ دُعائي ودُعاءِ الأنْبياءِ منْ قَبلي لَا إلَه إلَّا الله، وحدَهُ لا شَرِيكَ له)[1] .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ العقيلي في «الضعفاء» (٣/ ٤٦٢) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا. وفي إسناده فرج بن فضالة وهو ضعيفٌ جدًّا، وقال البخاري: «منكر الحديث». وأخرجه عبدالرزَّاق في «المصنف» (٨١٢٥)، ومالك في الموطأ (٢٤٦) [كتاب الحج]، والبيهقي في «السنن» (٩٤٧٣)، وغيرهم من حديث عُبيد الله بن كَريز مرسلًا بلفظ: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلتُ أنا والنبيون مِن قبلي: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له». وقال البيهقي: «هذا مرسلٌ، وقد رُوي عن مالكٍ بإسنادٍ آخر موصولًا ووصله ضعيفٌ». وعند الترمذيِّ وحسَّنه (٣٣٨٣)، وغيره من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله»

فجَعَلَ الثَّناءَ على الله تعَالى دعاءً ؛ لأنَّ في الثَّناءِ على السَّيدِ الغَنيِّ بذِكْرِ أوصَافِ كمالِه تَعَرُّضًا لِفضْلِه ونَوالِه، كَما قالَ الشَّاعرُ[1]:

كَريمٌ لا يُغيِّرُهُ صَباحٌ * عَنِ الخُلُقِ الكَريمِ ولا مَسَاءُ
إذَا أثْنَى عَليه المرءُ يومًا * كفَاهُ مِنْ تَعرُّضِه الثَّناءُ

وقالَ الله تَعَالى حَاكيًا عنْ يونُسَ ﷺ: ﴿فنَادى في الظُّلماتِ أنْ لَا إله إلَّا أنتَ سُبْحانَكَ إنِّي كنتُ مِنَ الظَّالمينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ثُمَّ قال سُبحانَه وتَعالى مُخبِرًا عنْ نفْسِه: ﴿فاسْتَجَبنا لهُ ونَجَّيناهُ منَ الغَمِّ وكذلِكَ نُنْجي المؤمنينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، ويونسُ ﷺ لم يطلُبْ صَريحًا ولكنْ لَمَّا أثْنى على ربِّه عزَّ وجلَّ واعترَفَ بينَ يديه فقَدْ أظْهرَ الفاقةَ إليه، فجَعَلَ الحقُّ تَعَالى ذلكَ طلبًا.

الفائدةُ السَّادسةُ: وكانَ من حقِّها أنْ تكونَ أُولى[2]، أنَّ مُوسَى ﷺ فعَلَ المعروفَ مع ابْنَتَي شُعيبٍ ﷺ ولم يَقْصِدْ منْهُما أجْرًا، ولا طَلَبَ منهُما جزاءً، بلْ لما سَقَى لهما أقبلَ على ربِّه فطلبَ منْهُ، ولم يطلُبْ منْهُما، وإنَّما طلبَ منْ مولاهُ الذي مَهَّما طلَبَ منه أعْطَاهُ. والصُّوفيُّ مَنْ يُوفِّي منْ نفسِه، ولا يَسْتوفي لها، ولنَا في هذا المعَنى شعرٌ:

لا تَشْتَغِلْ بالعُتْبِ يومًا للوَرَى * فيَضيعَ وقْتُكَ والزَّمانُ قَصيرُ
وعلامَ تَعْتِبُهمْ وأنْتَ مُصدِّقٌ * أنَّ الأمُورَ جَرَى بها المقْدُورُ

(١) لأميَّة بن أبي الصَّلْت الثَّقفي من قصيدة يخاطب بها عَبْدَ الله بن جُدعَانَ.
(٢) أي هذه الفائدة السادسة حقها أن تكون الفائدة الأولى.

هُمْ لم يُوَفُّوا لِلإلَه بحَقِّه * أتريدُ توفِيةً وأنتْ حَقيرْ
فاشْهَدْ حقُوقَهُمْ عَليْكَ وقُمْ بها * واسْتَوفِ مِنْكَ لَهمْ وأنْتَ صَبُورْ
وإذا فَعَلْتَ [فأشْهدَنَّ] بعَيْنِ مَنْ * هُو بالخفَايا عالمٌ وخبيرُ

فمُوسَى عليه السلام وفَّى من نفسِه ولم يسْتَوفِ لها، فكانَ له عندَ الله الجزاءُ الأكمَلُ، وعجَّلَ له سُبحانه في الدُّنيا زَائدًا على مَا ادَّخرَهُ له في الآخِرَةِ، أنَّ زوَّجَه إحْدَى الابنَتَين، وجَعَلَه صِهْرًا لنَبيِّه شعيب عليه السلام، وآنسَه به حتَّى جاءَ أوانُ رسَالتِه. فلا تجعَلْ معامَلتَكَ إلَّا معَ الله تَعالى أيُّها العَبدُ، تكُنْ مِنَ الرَّابحينَ ويكرِمْكَ بما أكرمَ بِه العبادَ المتَّقين.

الفَائدةُ السَّابعَةُ: انظُرْ إلى قولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾، ففي ذلكَ دليلٌ على أنَّه يجُوزُ للمُؤمنِ أنْ يُؤثِرَ الظِّلالَ على الضَّواحِي، وباردَ الماءِ على سُخْنِه، وأسْهلَ الطَّريقَيْنِ على أشَقِّهما وأوْعرِهمَا، ولا يُخرِجه ذلكَ عنْ مقامِ الزُّهْدِ.

ألَا تَرى أنَّ الحقَّ سُبحَانه وتَعالى أخْبرَ عنْ مُوسَى عليه السلام أنَّه تولَّى إلى الظِّلِّ، أيْ: قصَدَهُ وجاءَ إليه.

فإنْ قُلتَ قدْ جاءَ عنْ بعْضِهِمْ: «أنَّه دُخِلَ عليه فوُجِدَ قدِ انبَسَطتِ الشَّمسُ على قُلَّته الَّتي يشْرَبُ منها، فقيلَ له في ذلِك، فقَال: إنِّي لما وَضَعْتُها لم يكنْ شَمسٌ، وإنِّي لأسْتَحيي أنْ أمْشي بِحظِّ نَفْسي».

فاعلَمْ رحمَكَ الله: أنَّ هذا حَالُ عبدٍ يتطَلَّبُ الصِّدقَ منْ نفسِه ويمْنَعُها مُناهَا لِيَشْغَلَها بذلكَ عنِ الغفلَةِ عنْ مولاهَا، ولو اكتَمَلَ مقامَه لرَفَعَ الماءَ عنِ الشَّمسِ، قاصدًا بذلكَ قيامَه بحقِّ نفسِه التي أَمَرَ الله تَعالى أنْ يقُومَ بها لا اسْتجْلابًا لحظِّه، ولكنْ ليقُومَ بحقِّ ربِّه في نفْسِه[1]، وقدْ قَالَ سُبحانَه وتَعالى: ﴿يُريدُ الله بكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بكُمُ العُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقالَ تَعالى: ﴿يُريدُ الله أنْ يخَفِّفَ عنكُمْ وخُلِقَ الإنْسانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولِذلكَ كَانَ عندَ الفُقَهَاءِ: إِذَا نذَرَ المشْيَ إلى مَكَّةَ شَرَّفَها الله حافيًا جازَ لَهُ أن يَنْتعِلَ، ولا يَلزَمُه الحفَاءُ؛ لأنَّه ليْسَ للشَّرعِ في متَاعِبِ العبادِ قَصْدٌ خاصٌّ، ولم تأْتِ الشَّرائعُ بِمَنعِ الملاذِّ للعِبادِ، وكيفَ وهيَ مخلُوقةٌ مِنْ أجْلِهِم؟

قالَ الرَّبيعُ بنُ زيادٍ الحارثيِّ لعليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أسعدني عَلى أخِي عاصِم!» قال: «ما بَالُهُ؟» قال: «لبسَ العَباءَ، يُريدُ النُّسُكَ»، فقالَ عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «عليَّ به». فأتَى مُؤتَزِرًا بعبَاءةٍ مُترَدِّيًا بأخرَى، شَعِثَ الرَّأسِ واللِّحيةِ، فعَبَسَ في وجْهِه وقالَ: «وَيْحَكَ، أمَا اسْتَحْيتَ مِنْ أهلِكَ؟ أمَا رَحِمْتَ ولدَكَ؟ أتَرَى أنَّ الله تَعالى أباحَ لكَ الطَّيِّباتِ وهو يكْرَهُ أنْ تنالَ مِنها شيئًا؟ بلْ أنتَ أهْوَنُ عَلى الله، أمَا سَمِعْتَ مِنَ الله يقولُ في كتابه: ﴿والأرْضَ وَضَعَهَا لِلأنامِ﴾ إلى قوله: ﴿يَخْرجُ مِنْهُما اللؤْلؤُ والمرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٠-٢٢]؟! أفترَى مِنَ الله أباحَ هذا للعِبادِ إلَّا لِيبتذِلُوهُ، ويَحمَدُوا الله عليهِ فُيثِيبَهُم؟ وإنَّ ابتذَالكَ نِعَمَ الله بالفِعْلِ خيرٌ منه بالمَقَالِ».

---

(١) وفي الباب: (إن لجسدك عليك حقا...) الحديث.

قالَ عاصِمٌ: «فَما بالُكَ في خُشونَةِ مأكَلِكَ، وخُشونَةِ ملْبَسِكَ؟» قالَ: «وَيحَكَ إنَّ الله فَرَضَ على أئمَّةِ الحقِّ أنْ يُقدِّرُوا أنفُسَهُم بِضَعَفَةِ النَّاسِ»[1].

فقَدْ تَبيَّنَ لكَ من عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ الحقَّ تَعالى لم يُطالِبِ العَبدَ بعَدَمِ تَناوُلِ المَلْذُوذاتِ، وإنَّما طالبَهُم بالشُّكْرِ عليْهَا إذا تَناولُوها فقَالَ تَعالى: ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ ربِّكُمْ واشْكُرُوا لَهُ﴾ [سبأ: ١٥]، وقالَ: ﴿يا أيُّها الذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رزَقْناكُمْ واشْكُروا لله﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطيِّباتِ واعمَلُوا صَالحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، ولم يقلْ: «لا تأكُلُوا»، وإنَّما قالَ: «كلُوا واعْمَلُوا».

فإنْ قُلْتَ: الطِّيبَاتُ في هَاتينِ الآيتَينِ المرادُ بها الحلالُ؛ إذْ هُوَ الطَّيِّبُ باعتبارِ نَظرِ الشَّرْعِ؟! فاعْلَمْ أنَّه يمكنُ أنْ يكونَ المرادُ بالطيِّباتِ الحلالَ؛ لأنَّه طيِّبٌ باعتبارِ أنَّه لم يتعَلَّقْ به إثْمٌ ولا مَذَمَّةٌ، ولا حِجْبةٌ. ويُمْكنُ أنْ يكونَ المرادُ بالطِّيباتِ المَلْذُوذاتِ مِنَ المطاعِمِ، ويكُونُ سرُّ إباحَتِهَا، والأمرُ بأكْلِها ليجدَ مُتناوِلُها لذاذَتَها، فتَنْشَطَ هِمَّتُه للشُّكْرِ فيقُومَ بوجُودِ الخدْمةِ، ويَرْعَى حقَّ الحُرمةِ.

قال الشَّيخُ أبو الحسنِ رحمه الله: قالَ لي شَيخي: يا بُنيَّ، بَرِّدِ الماءَ، فإنَّ العَبْدَ إذا شَرِبَ الماءَ السَّاخِنَ قالَ «الحمدُ لله» بكزَازَةٍ[2]، وإذا شَرِبَ الماءَ البارِدَ، فقَالَ: الحمدُ لله، اسْتَجابَ كلُّ عُضْوٍ فيه بالحَمْدُ لله.

---

(١) نهج البلاغة (١/ ٢٩٨).

(٢) الكزازة: الانقباض، والكَزُّ هو الذي لا ينبسط. [تاج العروس]

ثُمَّ قالَ: «وأمَّا الذي دُخِلَ عليه فوُجِدَ قد انبسطَتِ الشَّمسُ على قُلَّتِه، فقيلَ له: ألا تَرفَعُها؟ فقَال: حينَ وضَعْتُها لم تكنْ شَمْسٌ وأنا أستَحِي أنْ أمشيَ لحظِّ نفْسي، فإنَّه صَاحِبُ حَالٍ لا يُقْتَدَى به».

***

انعطاف: قدْ مَضَى قولُنا في سرِّ إحْواجِ الحيوانِ وهذَا الآدميِّ خصُوصًا إلى وجُودِ تَغْذيَةٍ مُمِدَّة لهُ، فالآنَ نتَحدَّثُ في تكفُّلِ الحقِّ تعالى بهذِهِ التَّغْذِيةِ وقيامه بإيصَالها.

تكفل الحق تعالى بالرزق

فاعْلَمْ أنَّ الحقَّ تَعالى كَما أحْوَجَ الحيوانَ إلى مدَدٍ مُمِدٍّ لَه، وتغذِيةٍ يكُونُ بها حِفْظُ وجُودِه، وكانَ هذَانِ الجِنْسانِ اللَّذانِ هُما الإنْسُ والجانُّ خُلِقَا ليَأْمُرَهُما بعبادَتِه، ويطَالبُهُما بطاعَتِه وموافقَتِه، فقَال تعالى: ﴿وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلَّا ليَعبُدُونَ * ما أُريدُ منْهُمْ منْ رِزْقٍ وما أُريدُ أنْ يُطْعِمُونِ * إنَّ الله هُوَ الرزاقُ ذُو القُوَّةِ المتينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فبَيَّنَ الله تَعالى أنَّه إنَّما خَلَقَ هَذيْنِ الجِنْسينِ لعبادَتِه، أيْ: ليأمُرَهُم بها؛ كَما تقُولُ لعبْدِك: ما اشْترَيتُكَ أيُّها العَبدُ إلَّا لتَخْدِمَني، أيْ: لآمرَكَ بالخِدْمة، فتقُومَ بها. وقدْ يكُونُ العَبدُ مخالفًا مُتأبِّيًا، ولم يكُنْ شراؤُكَ إيَّاهُ لذلكَ، وإنَّما كانَ ليقُومَ بمُهمَّاتِكَ ولقَضاءِ حاجَاتِك.

وأهلُ الاعْتِزَال يَحْمِلُونَ الآيةَ على ظَاهِرِهَا فيقُولُونَ: الحقُّ خلَقَهُم للطَّاعةِ، والكُفْرُ والمعْصِيةُ منْ قِبَلِ أنفُسِهمْ. وقدْ أبْطَلْنا هذا المذهَبَ قَبلُ.

وفي تَبْيين سرِّ الخلق والإيجادِ، إعْلامٌ للعِبادِ وتنبيهٌ: لماذَا خُلقُوا، كيْ لا يَجهَلُوا مرادَ الله تَعالى فيهِمْ فَيضِلُّوا عنْ سَبيلِ الهدايةِ، ويُهمِلُوا وجُودَ الرِّعايةِ.

وقد جاءَ أنَّ أربعةً منَ الملائكةِ، يتَجاوبُون كُلَّ يوم، فيقُول أحدُهُم: «يا ليتَ هذا الخلْقَ لم يخلْقُوا»، ويقُولُ الآخرُ: «ويا ليتَهُم إذْا خُلقُوا علِمُوا لماذَا خُلقُوا»، ويقولُ الآخرُ: «ويا ليتَهُم إذْا عَلِمُوا لماذا خُلِقُوا عمِلُوا بما عَلِمُوا»، ويقولُ الرَّابعُ: «ويا ليتَهُم إذْا لم يعْمَلُوا بِما عَلمُوا تابُوا مِمَّا عَمِلُوا»[1].

فبيَّنَ الحقُّ تَعالى أنَّه ما خَلَقَ العبادَ لأنفُسِهم إنَّما خلقَهم ليَعبدُوهُ ويوحِّدُوهُ، فإنَّكَ لا تشْتري عبدًا ليَخْدُمَ نَفْسَه، إنَّما تَشْتَريه ليكُونَ لكَ خَادِمًا، فهَذه الآيةُ حُجَّةٌ على كُلِّ عبدٍ اشْتَغلَ بحظِّ نفْسِه عنْ حقِّ ربِّه، وبهَواهُ عنْ طاعةِ مَولاهُ.

ولذلِكَ سَمعَ إبراهيمُ بنُ أدْهمَ -رحمةُ الله عليه، وهو كانَ سببَ توْبتِه لما خَرَجَ مُتَصيِّدًا- هاتفًا يهْتِفُ به منْ قُرْبُوسِ سَرْجِه: «يا إبراهيمُ، ألهذَا خُلقْتَ؟ أمْ بهذَا أمِرْتَ؟»، ثُمَّ سَمعَ الثَّانيةَ: «يا إبراهيمُ، ما لهذَا خُلِقْتَ، ولا بهذا أُمِرْتَ».

فالفَقيهُ مَنْ فَهِمَ سرَّ الإيجادِ فعَمِلَ لَه، وهَذا هُوَ الفقْهُ الحقِيقيُّ الذي مَنْ أُعْطِيَه فقَدْ أعْطيَ المنةَ العُظْمَى. وفيهِ قالَ مالكٌ[2] رحمه الله تعالى: «ليسَ الفقْهُ

---

(١) ذكره الغزاليُّ في «الإحياء» (٤/ ٥٢)، وقال الحافظ العراقي في «التخريج»: «غريبٌ لم أجده هكذا، وروى نحوه أبو منصور الديلمي في «مسند الفردوس» من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٢) إمام دار الهجرة، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الحميري، ثم الأصبحي، المدني أحد الأئمة الأربعة المتبوعين، وإليه يُنسب المالكية، المولود بذي المروة بالمدينة المنورة سنة ٩٣ على الأصح. قال الشافعي: «جعلت مالكًا بيني وبين الله حُجَّةً، وإذا ذُكر

بكثْرةِ الرِّوايةِ، وإنَّما الفقْهُ نورٌ يضَعُه الله في القلْبِ»[1].

وسَمِعْتُ شَيخَنا أبا العَبَّاسِ -رحمَه الله- يقول: «الفقيهُ مَن انْفَقَأ الحِجَابُ عنْ عَيْنَيْ قَلْبه». فمَنْ فَقُهَ عنْ اللهِ سرَّ الإيجادِ بأنَّه ما أوْجَدَه إلَّا لطَاعتِه، وما خَلَقَهُ إلا لخِدْمَتِه، كانَ هذا الفِقْهُ منه سَببًا لزُهْده في الدُّنيا، وإقْباله على الأخْرَى، وإهماله لحظُوظِ نفْسِه، واشْتِغَاله بحقُوق سيِّده، مُفكِّرا في المعَادِ، قائمًا بالاسْتِعْدادِ، حتَّى قالَ بعضُهُم: «لوْ قيلَ لي غَدًا تموتُ لمْ أجِدْ مُسْتَزادًا». وقالَ بعضُهُم، وقد قالتْ لهُ أمُّه، «يا بنيَّ، مالَكَ لا تأكُلُ الخُبْزَ؟» فقَالَ: «بَيْنَ مَضْغ الخبزِ وأكْلِ الفَتيتِ قراءةُ خمسينَ آيةً».

فهؤُلاءِ قَومٌ أذْهَلَ عُقُولَهم عنْ هذِه الدَّارِ، ترقُّبُ هولِ المطْلَعِ، وأهْوَالُ القِيامةِ، وملاقَاةُ جبَّارِ السَّمواتِ والأرْضِ، فغَيَّبَهُم ذلكَ عَن الاسْتِيقَاظِ لملاذِّ هذه الدَّارِ، والميلِ إلى مسَرَّاتِها، حتَّى قال بعضُ العارفِينَ: «دخَلْتُ على بَعضِ المشَايخ بالمغربِ في داره، فقمتُ لأمْلأَ ماءً للوضُوءِ، فقامَ الشَّيخُ ليَمْلأَ عَنِّي، فأَبيتُ فأبَى إلَّا أنْ يمْلأَ، وأمْسَكَ طَرَفَ الحبلِ بيدِه، وفي الدَّارِ عندَهُ بجَانبِ البئرِ شَجَرةُ زيتُونٍ قدْ خَيَّمتْ على الدَّارِ، فقلتُ: يا سيِّدِي، لم لَا تَربُطُ طرَفَ هذا الحبلِ بهذِه الشَّجرةِ؟ فقالَ: أوَ هَهُنا شَجرةٌ؟ إنَّ لي في هذِه الدَّارِ ستِّينَ عامًا، مَا أعْرِفُ أنَّ في هذِه الدَّارِ شجرةً».

=الثاقب». صنَّف «الموطأ» وشهرته تغني عن التطويل في ترجمته، تُوفي بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع سنة ١٧٩. انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٧/ ٣١٠)، و«حلية الأولياء» (٦/ ٣١٦)، و«منازل الأئمة» للأزدي (ص ١٨٣)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ١٣٥).

(١) أخرجه الخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (١٥٢٦).

فافْتَحْ رحمكَ الله سَمْعكَ لهذه الحكايةِ وأمْثالِها تَعلَمْ أنَّ لله تَعالى عبادًا أشْغَلَهُمْ به عن كُلِّ شيءٍ، ولم يشْغَلْهُم عنه شَيءٌ؛ أذهَلَ عقولَهم عظَمتُه، وأذهَشَ نفُوسَهُم هَيْبتُه، فاسْتقرَّ في أسْرارِهم ودُّه ومحبَّتُه، جَعلَنا الله مِنْهُم، ولا أخْرَجَنا عنْهُمْ.

ومِثْلُ هَذِهِ الحِكَايةِ: «كَانَ رَجُلٌ بالصَّعِيدِ مِنَ الأوْلِيَاءِ بمَسْجِدٍ، فطَلَبَ منه أحدُ مَنْ يَخْدُمُه أنْ يأخُذَ جَرِيدَةً منْ إحْدى نَخْلتَينِ كانتَا في المسْجِدِ، فأذِنَ له، فقَالَ: يا سيِّدي، منْ أيِّهما آخُذُ؟ مِنَ الصَّفراءِ، أو مِنَ الحمْراءِ؟ فقال: يا بُنيَّ: إنَّ لي بهذا المسْجِدِ أرْبعينَ عامًا، لا أعرِفُ الصَّفراءَ منَ الحمْراءِ».

ويُحكَى عنْ بعضِهم أنَّه كانَ يَعبُرُ عليهِ أوْلادُه في دارِه فيقُولُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ أولادُ مَنْ هَؤُلاءِ؟ فيُقالُ له: أوْلادُك. فكانَ لا يعرِفُهم، حَتَّى يُعَرَّفَ بهِمْ؛ لاشْتِغالِه باللهِ تَعالى. وكانَ بعضُ المشايخِ يقُولُ في أوْلادِهِ إذا رَآهُم: هَؤُلاءِ الأيتَامُ، وإنْ كانَ أبوهُمْ حيًّا.

والاسْتِرسَالُ عنْ هذهِ اللَّامِعةِ، يُخرِجُنا عنْ غرَضِ الكتابِ.



[الآيات الواردة في أمر الرزق]

الآية الأولى وما تضمنته من فوائد

انعطافٌ: لمَّا قالَ تعالى: ﴿ومَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ إلَّا ليَعْبدُون﴾، عَلِمَ -سُبحَانه وتَعَالى- أنَّ لهم بَشريَّاتٍ تُطَالبُهُم بمقْتضَاها، تُشَوِّشُ عليهمْ صِدْقَ التوجُّه إلى العُبودِية، فضَمنَ لهمُ الرِّزْقَ، كيْ يَتفَرَّغُوا لخِدْمته، وكَي لا يشْتغلوا بطَلبه عنْ عبَادته، فقَال: ﴿ما أُريدُ منْهُمْ من رِّزْقٍ﴾، أيْ: ما أريدُ منهُم أنْ يَرزُقُوا أنفسَهُم، فقد كفَيتُهم ذَلكَ بحُسْنِ كفَايتِي وبوجُودِ ضَماني، ﴿ومَا أُريدُ أنْ يُطْعِمُونِ﴾؛ لأنِّي أنا القَويُّ الصَّمَدُ، الذي لا يُطْعَمُ، ولذَلكَ عقَّبه بقَوْله تَعَالى: ﴿إنَّ الله هُوَ الرزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المتينُ﴾، أي: ما أريدُ منْهُم أنْ يَرزُقُوا أنفسَهم، لأنِّي أنَا الرزَّاقُ لهمْ، ﴿ومَا أريدُ أنْ يُطْعِمُونِ﴾ لأنِّي أنا ذُو القُوَّةِ، ومَنْ له القُوَّةُ في ذاتِه غنيٌّ عنْ أنْ يُطْعَمَ.

فتضَمَّنَتْ هذه الآيةُ الضَّمانَ للعَبادِ بوجُودِ أرْزاقِهم، بقَولِه تَعَالى: ﴿إنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ﴾، وألزَمَ المؤْمنينَ أنْ يوحِّدُوهُ في رزْقه، وأنْ لا يُضيفُوا شَيئًا منهُ إلى خَلْقه، وأنْ لا يُضيفُوا ذلكَ إلى أسْبابِهم، وأنْ لا يُسْندُوهُ إلى اكتِسَابِهمْ.

وقدْ قالَ الرَّاوي: (أصْبحَ رسُولُ الله ﷺ في أثرِ سَماءٍ كانتْ منَ اللَّيلِ، فقَالَ: أتدْرُونَ ماذَا قالَ ربُّكُم؟ قُلْنا: لا يا رسُول الله. قالَ: قالَ ربُّكم: أصْبَحَ منْ عبادي مؤْمنٌ بي وكافرٌ بي. فأمَّا مَنْ قالَ: مُطرْنا بفَضْلِ الله وبرحْمته، فذَاكَ مؤْمنٌ بي كَافرٌ بالكَوكَب. وأمَّا مَنْ قال: مُطرْنا بنَوْءِ كذا، أو بنَجْم كذا،

فذَاكَ كافرٌ بي، مُؤْمنٌ بالكَوكَب)[1]. ففي هذا الحديث فائدَةٌ عُظْمَى للمؤْمنينَ، وبَصيرةٌ كُبرى للمُوقنينَ، وتَعْليمُ الأَدَبِ مَعَ ربِّ العَالمينَ.

ولعَلَّ هذا الحديثَ يكونُ أَيُّها المؤمنُ ناهيًا لك عنْ التَّعرُّضِ إلى علم الكواكِبِ واقتراناتها، ومَانعًا لكَ أنْ تدَّعي وجُودَ تأثيراتها، واعْلَمْ أنَّ الله تعَالى فيكَ قَضَاءً لا بُدَّ أنْ يُنْفِذَهُ، وحُكْمًا لا بدَّ أنْ يظْهرَه، فما فائدةُ التَّجسُّسِ على عِلْمِ عَلَّامِ الغُيوبِ؟!

وقدْ نَهانا سُبحانه أنْ نَتَجَسَّسَ عَلى عبادِهِ فقالَ: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، فكَيفَ لنَا أنْ نتَجسَّسَ على غَيْبه؟! ولقَدْ أحْسَنَ مَنْ قَالَ[2]:

خَبِّرَا عَنِّي المَنَجِّمَ أَنِّـــــي * كافرٌ بالذي قَضَتْهُ الكَواكِبْ

عالمًا أنَّ ما يكُونُ وما كَــــا * نَ قضاءٌ منَ المهَيمنِ واجبْ

***

فائدةٌ: اعلَمْ أنَّ مَجيءَ هذِه الصِّيغةَ على بناءِ «فَعَّال» يقْتَضي المبالغَةَ فيما سِيقَتْ لَه، فرزَّاقٌ أبلَغُ مِنْ رازِقٍ، لأنَّ «فعَّال» في باب المبالغَةِ أبلغُ منْ «فاعِل» فيمْكِنُ أنْ تكُونَ هذه المبالغَةُ، لتعْدادِ أعيانِ المرزُوقِينَ، ويمْكِن أن تكونَ لتَعْدادِ الرِّزقِ، ويَحتَملُ أنْ يكُونَ المرادُ همَا جميعًا.

***

(١) أخرجه مسلمٌ (٧١)، وغيره من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) للإمام الشافعي.

فائدةٌ أخرى: ترْجعُ إلى عَلْم البَيانِ: اعْلَمْ أنَّ الدَّلالةَ على المعْنى المقْصُود به وجُودُ الثناءِ بالصِّفة أبلغُ مِنَ الدَّلالةِ عليه بالفِعْل. فقولُكَ «زيدٌ محسنٌ»، أبلغُ منْ قولِكَ «زيدٌ يحسِنُ»، أو «قدْ أحْسَنَ»؛ وذلكَ لأنَّ الصِّفةَ تدلُّ على الثُّبوتِ والاستقرارِ، والأفْعَالُ أصلُ وضْعِها التَّجَدُّدُ والانْقراضُ، فلذلكَ كانَ قولُه تعالى ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أبلغَ من قولِه: «إنَّ الله هُوَ يرزقُ». ولو قالَ: «إنَّ الله هُوَ يَرزقُ»، لم يُفِدْ إلا إثْباتَ الرِّزْقِ لهُ، ولم يُفِدْ حصْرَ ذلِكَ فيه، فلمَّا قالَ: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أفادَ ذلِكَ انْحِصارَ الرِّزْقِ فيه، فكَأنَّه لما قالَ: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ فقدْ قالَ: «لَا رازِقَ إلَّا الله».

***

الآية الثانية وما تضمنته من فوائد

الآيةُ الثَّانيةُ في أمْرِ الرِّزقِ قولُه تَعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠].

تَضمَنَّتْ هذِه الآيةُ الكريمةُ فَائدَتَينِ:

الأُولى: أنَّ الخلْقَ والرِّزْقَ مُقترنانِ، أيْ: كما سَلَّمْتُم لله بأنَه الخالقُ مِنْ غيرِ دَعْوى منْكُم للخَالِقيَّة معَه، فكذلِك سلِّمُوا له أنَه الرَّزَّاقُ، ولا تدَّعُوا ذلِكَ معه، أيْ: كما انْفردَ فيكُم بالخلقِ والإيجادِ، كذلِكَ هو المنفردُ بالرِّزقِ والإمْدادِ، فقرنَهما للاحْتجَاجِ على العِبادِ، ونهيًا لهمْ أنْ يشْهدُوا رزْقَه من غَيرِه، وإحسَانَه منْ خلْقِه، وأنَّه تَعَالى كما خَلَقَ منْ حيثُ لا وسَائطَ ولا أسبابَ، كذلِكَ هوَ الرزَّاقُ من غيرِ أنْ يتوقَّفَ رزْقُه على واسِطةٍ أو وجُود سببٍ.

الفَائدةُ الثَّانيةُ: أنَّه أفادَ تَعالى بقولِه: ﴿الله الذي خَلقَكُمْ ثُمَّ رَزَقكُم﴾ أنَّ الرِّزْقَ قد أُمْضيَ شأنُه، وأُبْرِمَ أمرُه، وليسَ للقَضاءِ فيه أمرٌ يتجَدَّدُ في الأحيَانِ، ولا يتعاقَبُ بتَعاقُبِ الزَّمانِ، وإنَّما يتَجدَّدُ ظُهورُهُ لا ثبوتُه.

والرِّزْقُ يُطْلقُ على قِسْمينِ: علَى ما سبقَ في الأزَلِ قَضاؤُهُ، وعلى ما ظَهَرَ بعدَ وجُودِ العبدِ إبداؤُهُ. والآيةُ تحتَمِلُ الوَجْهَينِ، فإنْ كانَ المرادُ ما سَبقَتْ به الأقدارُ، فـ«ثُمَّ» لتَرتيبِ الأخْبارِ، وإنْ كانَ المرادُ رزْقَ الإظْهارِ، فهيَ تَنْبيهٌ للاعْتبَارِ.

وسرُّ الآيةِ التي سِيقَتْ منْ أجلِه، إثباتُ الإلهيَّةِ لله تعالى، كأنْ يقُولَ: يا منْ يَعْبدُ غيرَ الله، اللهُ الذِي خلقَكُم، ثُمَّ رزَقكُم، ثُمَّ يُمِيتكُم، ثُمَّ يحيكُم، فهلْ تَجِدُونَ هذه الأوْصَافَ لغَيرِه؟! أمْ يُمكُنُ أنْ تكونَ لأحَدٍ مِنْ خَلْقه؟! فمَن انْفَردَ بها ينْبغِي أنْ يُعْترَفَ بإلاهيَّته، ويوحَّدَ في رُبوبيَّته. ولذلِكَ قالَ بعدَ ذلِكَ: ﴿هلْ مِنْ شُركائِكُمْ مَنْ يَفْعلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شيءٍ سُبحانَه وتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

***

الآية الثالثة وما تضمنته من فوائد

الآيةُ الثَّالثةُ في أمرِ الرِّزْقِ قولُه تَعالى: ﴿وأمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبرْ عَليهَا لا نَسْألُكَ رزْقاً نَحْنُ نَرزُقُكَ والعَاقبةُ للتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢].

وفي هَذه الآيةِ فَوائدُ:

الأولى: يجبُ أنْ تَعْلَمَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ وإنْ كانَ هو المخاطبَ بهذه الآية، فحُكْمُها ووَعدُهَا متعلِّقٌ بأمَّته أيضًا. فكلُّ عبدٍ مَقُول لَهُ: ﴿وأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاة واصْطبِرْ عَليهَا، لا نَسْألُكَ رِزْقًا نحنُ نَرزُقُكَ والعَاقبةُ للتَّقْوى﴾.

وإذْ قدْ فهِمْتَ هذا، فاعْلمْ أنَّ الله أمَركَ أيُّها العَبْدُ أنْ تأمُرَ أهْلَكَ بالصَّلاة؛ لأنَّه كَما يجبُ عليكَ أنْ تصِلَ أرْحَامَهُم، بأسبَابِ الدُّنيا والإيثار بها، كذلكَ يجبُ عليكَ أنْ تَصِلَهُم بأنْ تهديَهُم إلى طاعةِ الله تَعَالى، وتجنِّبَهُمْ وجودَ مَعْصيته.

وكَما كانَ أهْلُكَ أوْلى ببرِّكَ الدُّنيويِّ، كذلكَ هُم أوْلى ببرِّكَ الأخْرويِّ ولأنَّهم رَعيَّتُك، وقدْ قالَ ﷺ: (كُلُّكُم راعٍ، وكلُّكُمْ مَسْئولٌ عَنْ رَعيَّته)[1].

وقالَ تَعَالى في الآيةِ الأخْرَى: ﴿وأنذرْ عَشِيرَتكَ الأقْربينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، كَما قالَ هَهُنا: ﴿وأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ﴾.

الفائدةُ الثَّانيةُ: انْظُرْ إلى أنَّه تعالى أمرَهُ ﷺ في الآيةِ أنْ يأمُرَ أهْلَه قبلَ أنْ يأمُرَ هُو نفسَه بالاصْطِبارِ عليهَا؛ ليُعْلِمَكَ أنَّ الآيةَ سَبقَتْ للأمْرِ بأمرِ الأهْلِ بالصَّلاةِ، وأنَّ غيرَ هذا إنَّما جاءَ بطريقِ التَّبَعِ، وإنْ كانَ مَقْصُودًا في نفسه، لكنَّه لما عَلِمَ العبدُ أنَّه مأمورٌ في نفسه بالصَّلاة عِلمًا لا شَكَّ فيه، فأرادَ الحقُّ تعالى أنْ يُنبِّهَ العبادَ على ما لعَلَّهُم أنْ يُهمِلُوهُ، فأمَرَ رسُولَه ليَسْمَعُوا بذلكَ فيتَّبعُوا فيكُونُوا لذلكَ مُسَارِعينَ، على القِيَامِ به مُثابرينَ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥١٨٨)، ومسلمٌ (١٨٢٩)، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا.

الأُولى: يجبُ أنْ تَعْلمَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ وإنْ كانَ هو المخاطبَ بهذه الآية، فحُكْمُها ووَعدُهَا متعلِّقٌ بأمَّته أيضًا. فكُلُّ عبدٍ مَقُول لَهُ: ﴿وأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلَاةِ واصْطبرْ عَليهَا، لا نَسْألُكَ رِزْقًا نحنُ نَرزُقُكَ والعَاقبةُ للتَّقْوَى﴾.

وإذْ قدْ فهِمْتَ هذا، فاعْلمْ أنَّ الله أمَركَ أيُّها العَبْدُ أنْ تأمُرَ أهْلَكَ بالصَّلاة؛ لأنَّه كَما يجبُ عليكَ أنْ تصِلَ أرْحَامَهُم، بأسبَابِ الدُّنيا والإيثارِ بها، كذلكَ يجِبُ عليكَ أنْ تَصِلَهُم بأنْ تهدِيَهُم إلى طاعةِ الله تَعَالى، وتجَنِّبَهُمْ وجودَ مَعْصيتِه.

وكَما كانَ أهْلُكَ أوْلى ببرِّكَ الدُّنيويِّ، كذلكَ هُم أوْلى ببرِّكَ الأخْرويِّ ولأنَّهم رَعيَّتُك، وقدْ قالَ ﷺ: (كُلُّكم راعٍ، وكلُّكُمْ مَسْئولٌ عَنْ رَعيَّتِه)[1].

وقالَ تَعَالى في الآيةِ الأخْرَى: ﴿وأنذرْ عَشيرَتكَ الأقْربينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، كَما قالَ هَهُنا: ﴿وأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ﴾.

الفائدةُ الثَّانيةُ: انْظُرْ إلى أنَّه تعالى أمرَهُ ﷺ في الآيةِ أنْ يأمُرَ أهْلَه قبلَ أنْ يأمُر هُو نفسَه بالاصْطِبارِ عليهَا؛ ليُعْلِمَكَ أنَّ الآيةَ سَبقَتْ للأمْرِ بأمرِ الأهْلِ بالصَّلاةِ، وأنَّ غيرَ هذا إنَّما جاءَ بطرِيقِ التَّبَعِ، وإنْ كانَ مَقْصُودًا في نفسِه، لكنَّه لما عَلِمَ العبدُ أنَّه مأمورٌ في نفسِه بالصَّلاةِ عِلمًا لا شَكَّ فيه، فأرادَ الحقُّ تعالى أنْ يُنبِّه العبادَ على ما لعَلَّهُم أنْ يُهمِلُوهُ، فأمَرَ رسُولَه ليَسْمَعُوا بذلِكَ فيَتَّبِعُوا فيكُونُوا لذلِكَ مُسَارِعِينَ، على القِيَامِ بِه مُثابرِينَ.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥١٨٨)، ومسلمٌ (١٨٢٩)، وغيرهما من حديث عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا.

تَنْبيهٌ: اعْلَمْ أنَّه يجبُ عَليكَ أنْ تأمُرَ أهْلَكَ بالصَّلاةِ، منْ زَوجةٍ أوْ أمَةٍ أوْ ابنةٍ، أو غيرِ ذلكَ. ولكَ أنْ تَضْرِبَهم على تركِها، وليسَ لكَ عند الله منْ حُجَّةٍ أنْ تقُولَ: أمرتُ فلم يَسْمَعُوا، فلوْ عَلِمُوا أنَّه شقَّ عَلَيْكَ تَرْكُ الصَّلاةِ كما يَشُقُّ عليكَ إذا أفسَدُوا طَعامًا، أو تركُوا شيئًا مِنْ أمْرِ مُهِمَّاتِكَ ما تركُوا، بل اعتَادُوا منْكَ أنْ تطالبَهُم بحظُوظِ نفسِكَ، ولا تُطالبَهُم بحقُوقِ الله تعالى، فلأجْلِ ذلكَ أهْمَلُوهَا.

ومنْ كانَ محافظًا على الصَّلاةِ وعندَه أهلٌ لا يصلُّونَ، وهوَ غيرُ آمرٍ لهُمْ بها، حُشرَ يومَ القِيَامةِ في زُمْرَةِ المضَيِّعِينَ للصَّلاةِ. فإنْ قُلْتَ: إنِّي أمَرتُهم فلم يَفْعلُوا، ونصَحتُهم فلمْ يقْبلُوا، وعاقَبتُهم على ذلِكَ بالضَّرْبِ فلمْ يكونُوا له فَاعِلينَ، فكيفَ أصْنَعُ؟ فالجوابُ: أنَّه ينبغِي لكَ مفارقةُ منْ يُمكِنُ مفارقَتُه، ببَيْعٍ أو طَلاقٍ، والإعْراضُ عَمَّنْ لا يُمكِنُ بَيْنُونتُه عنْكَ بذلِكَ؛ وأنْ تهجُرَهُم في الله، فإنَّ الهجْرَ في الله يُوجِبُ الصِّلةَ به.

الفائدةُ الثَّالثةُ: قولُه تعالى: «واصْطَبِرْ عَلَيهَا» فيه إشارةٌ إلى أنَّ في الصَّلاةِ تكليفًا للنُّفوسِ شاقًّا عليهَا، لأنَّها تأتي في أوْقاتِ ملاذِّ العبادِ وأشغَالهِمْ، فتُطالبُهُم بالخرُوجِ عنْ ذلِكَ كُلِّه، إلى القِيام بين يَدَي الله تعَالى والفراغِ عمَّا سِوى الله.

ألَا تَرى أنَّ صَلاةَ الغداةِ تأتِيهم في وقتِ منامِهم، في وقْتِ ألذِّ ما يكونُ المنامُ فيه، فطلَبَ الحقُّ فيه تركَ حظُوظِهم لحقُوقِه، ومرادِهم لمرادِه، ولذَلِك كانَ في نداءِ الصُّبحِ خاصًّا به: «الصَّلاةُ خيرٌ من النَّومِ» مرَّتيْنِ.

وأمَّا صلاةُ الظُّهرِ فإنَّها تأتِيهِمْ في وقتِ قيْلُولتِهِمْ، ورجُوعِهِمْ من تعبِ أسبابِهم. وأمَّا صلاةُ العَصْرِ فإنَّها تأتيهِمْ وهُمْ في متاجرِهم وصنَائعِهم مُنْهَمِكونَ، وعلى أسبابِ دُنْياهُمْ مُقْبِلُونَ. وأمَّا صَلاةُ المغْربِ فإنَّها تأتي في وقتِ تناوُلِهمْ لأغْذِيتِهِم وما يقِيمُونَ به وجُودَ بِنْيَتِهِم. وأمَّا صَلاةُ العِشَاءِ فإنَّها تأتي وقدْ كثُرتْ عَليهِمُ متَاعِبُ الأسْبابِ التي كانُوا فيهَا في بَيَاضِ نَهارِهِم.

فَلِذلِكَ قالَ سُبْحانه: ﴿واصْطَبِرْ عَلَيهَا﴾، وَقالَ تَعَالى: ﴿حافِظُوا على الصَّلواتِ والصَّلاةِ الوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وَقَالَ: ﴿إنَّ الصَّلاةَ كانتْ على المؤْمنينَ كتابًا مَوقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وَقَدْ قالَ: ﴿وأقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ [البقرة: ٤٣، ومواضع أخرى].

ومما يدلك على أن في القيام بالصلاة تكاليف العبودية، وأن القيام بها على خلاف ما تقتضيه البشرية قول الله تَعَالى: ﴿واسْتَعِينُوا بالصَّبرِ والصَّلاةِ، وإنَّها لكَبيرةٌ إلَّا على الخَاشِعينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فجَعلَ الصَّبرَ والصَّلاةَ مُقْتَرِنَيْنِ: إشَارةً إلى أنَّهُ محتاجٌ في الصَّلاةِ إلى الصَّبرِ: صَبرٍ على مُلازَمةِ أوقاتِها، وصَبرٍ على القِيامِ بواجِباتِها ومَسْنُوناتِها، وصَبرٍ يمنعُ القُلوبَ فيهَا منْ غَفَلاتِها.

ولذلكَ قالَ الله تَعَالى بعدَ ذلِكَ: ﴿وإنَّها لكبيرةٌ إلَّا عَلى الخَاشِعِينَ﴾، فأفْردَ الصَّلاةَ بالذِّكْرِ ولم يُفْرِدِ الصَّبرَ به، إذْ لو كانَ كذلكَ لقالَ: «وإنَّه لكبيرٌ»، فذلكَ يدلُّ على مَا قُلْنَاهُ. أوْ لأنَّ الصَّبرَ والصَّلاةَ مُقْترِنانِ مُتلازِمَانِ، فكانَ أحَدُهُما هُوَ عينُ الآخَرِ، كما قالَ في الآيةِ الأخْرَى: ﴿والله ورسُولُه أحقُّ أنْ يُرضُوهُ﴾

[التوبة: ٦٢]، وقالَ تعالى: ﴿والذينَ يَكنِزُونَ الذَّهَبَ والفضَّةَ ولا يُنفِقُونَها في سَبيلِ الله﴾ [التوبة: ٣٤]، وقالَ تَعالى: ﴿وإذا رأَوْا تجارةً أوْ لهوا انفَضُّوا إليها﴾ [الجمعة: ١١]، فافْهَمْ.

والصَّلاةُ شأنُها عَظيمٌ، وأمْرُهَا عندَ الله جَسيمٌ، ولذلكَ قالَ تَعالى: ﴿إنَّ الصَّلاةَ تَنهَى عَنِ الفَحْشاءِ والمنكرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقالَ رسُولُ الله ﷺ لما سُئِلَ أيُّ الأعمالِ أفضَلُ؟ قال: (الصَّلاةُ لوقْتِها)[١]، وقالَ ﷺ: (المصَلِّي يُناجي ربَّه)[٢]، وقالَ: (أقْرَبُ مَا يَكونُ العَبْدُ مِنْ ربِّه في السُّجُودِ)[٣].

ورَأينَا أنَّ الصَّلاةَ اجْتَمَعَ فيها منَ العباداتِ، ما لم يجتَمِعْ في غيرِها منْهَا: الطَّهارةُ، والصَّمْتُ، واستقبالُ القِبْلة، واسْتفتاحٌ بالتَّكبيرِ، والقراءةُ، والقيامُ، والرُّكُوعُ، والسُّجودُ، والتَّسبيحُ في الرُّكُوعِ والسُّجودِ، والدُّعاءُ في السُّجُودِ، إلى غيرِ ذلِكَ. فَهِيَ مجْمُوعُ عباداتٍ عَديدةٍ؛ لأنَّ الذِّكْرَ بمجَرَّدِه عِبادةٌ، والقراءةَ بمجَرَّدِها عبادةٌ، وكذَلِك التَّسْبيحُ، والدُّعَاءُ والرُّكوعُ والسُّجودُ والقيامُ. فكلُّ واحِدٍ منْها بمُجَرَّدِه عِبادةٌ، ولولَا خَشْيةُ الإطالةِ لبَسَطْنا الكلامَ في أسْرارِهَا وشَوارِقِ أنْوارِهَا، وهذه اللَّمْعةُ ههُنا كافيةٌ، والحمدُ الله.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٧٥٣٤)، ومسلمٌ (٨٥)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: ابن أبي شيبة (٢٩٦٦٦)، وأحمد (٥٣٤٩)، والبزار (٧٢٦)، وابن خزيمة (٢٢٣٧)، وغيرهم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وغيره. والحديث متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٤٠٥)، ومسلمٌ (٥٥١)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه. بلفظ: «إنَّ أحدَكم إذا قام في صلاته فإنه يُناجي ربَّه...».

(٣) أخرجه مسلمٌ (٤٨٢)، وغيره من حديث بلفظ: «أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه، وهو ساجدٌ، فأكثروا الدُّعاء».

الفَائدةُ الرَّابعةُ: قولُه تَعَالى ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، أيْ: لا نَسْأَلُكَ أنْ تَرزُقَ نفسَك، ولا أهْلَكَ. وكيفَ نأمُرُكَ بذلك، ونُكَلِّفُكَ أنْ ترزُقَ نفْسَك، وأنتَ لا تَستَطيعُ ذلِكَ؟ وكَيْفَ يُحْمَدُ بنا أنْ نأمُرَكَ بالخدْمةِ، ولا نقُومُ لكَ بالقِسْمةِ؟

فكأنَّه سُبحانه لَمَّا عَلِمَ أنَّ العبادَ رُبَّما يُشَوِّشُ عليهم طلبُ الرِّزقِ في دوام الطَّاعةِ، وحجَبَهُمْ ذلِكَ عنِ التفرُّغِ للمُوافَقةِ، فخاطبَ رسُولَه ﷺ ليسْمَعُوا فقَالَ: ﴿وأْمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عليها لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، أيْ: قُمْ بخِدْمَتِنا ونحنُ نقُومُ لكَ بقِسْمَتِنا، وهمَا شَيئانِ: شَيءٌ ضَمِنَه الله لَكَ فلا تَتْبَعْهُ، وشَيءٌ طُلِبَ منكَ فلَا تُهمِلْه.

فمَنِ اشْتغلَ بما ضُمِنَ له عمَّا طُلِبَ منه، فقدْ عَظُمَ جهْلُه، واتَّسعتْ غفْلَتُه، وقلَّ ما يتنبَّه لمنْ يُوقِظُه، بلْ حقيقٌ على العَبدِ أنْ يشْتَغلَ بما طُلِبَ منه، عمَّا ضُمِنَ له.

[و] إذا كانَ سُبحانَه قد رَزَقَ أهْلَ الجحُودِ، فكيفَ لا يرزُقُ أهْلَ الشُّهودِ؟! وإذَا كَانَ قدْ أجْرَى رزْقَه عَلَى أهْلِ الكُفْرَانِ، فكيفَ لا يُجْري رزْقَه على أهْلِ الإيمانِ؟!

فقَدْ عَلِمْتَ أيُّها العَبْدُ، أنَّ الدُّنيا مضْمونَةٌ لكَ، مضْمونٌ لكَ منْها ما يَقُومُ بأوَدِكَ، والآخِرَةُ مطلوبةٌ منْك، أي: العَمَلُ لها بقولِه تَعالى: ﴿وتَزَوَّدُوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فكَيفَ يَثْبُتُ لَكَ عَقْلٌ، أو بصيرةٌ، واهتمامُك فيما

ضُمِنَ لك اقتَطعَكَ عن اهتمامِك بما طُلِبَ منْكَ، حتَّى قالَ بعضُهُم: «إنَّ الله ضَمِنَ لنا الدُّنْيا، وطلبَ منَّا الآخِرةَ فليَته ضَمِنَ لنا الآخِرَةَ، وطَلَبَ منَّا الدُّنيا».

وأتَى قولُه تَعالى: ﴿نَحْنُ نَرْزُقُك﴾على هذه الصِّيغَة، ليدُلَّ ذلكَ على الاسْتقْرارِ والدَّوام؛ لأنَّ قولَكَ: «أنا أكرِمُك» ليْسَ كقَولِكَ «أنا أكرمْتُكَ»؛ لأنَّ قولَكَ «أنا أكرِمُكَ» يدلُّ على إكرَام بعدَ إكْرام، وقولُكَ «أنا أكرمْتُكَ»، لا يدُلُّ إلَّا على أنَّ ثَمَّ إكرامًا كانَ وقوعُه فيما مَضَى منْ غيرِ أنْ يدلَّ على التَّكرَارِ والدَّوام.

فقولُه تَعَالى: ﴿نحنُ نَرزُقُكَ﴾ أيْ: رِزْقًا بعْدَ رزْقٍ، لا نُعطِّلُ عنكَ منَّتَنا، ولا نَقْطَعُ عَنْكَ نِعْمَتَنا، ولما تَفَضَّلْنا على العِبادِ بالإيجادِ، فكذلِكَ أيضًا قُمْنا لهمْ بدوامِ الإمْدادِ.

ثُمَّ قالَ تعالى: ﴿والعَاقِبَةُ للتَّقْوَى﴾، كأنَّه تعالى يقولُ: نَحْنُ نَعلَمُ إذا تَبَتَّلْتَ لِخدْمَتِنا، وتوجَّهتَ لطَاعَتَنَا، مُعْرِضًا عنْ أسْبابِ الدُّنيا، تَارِكًا للدُّخُول فيها، والاشْتِغال بها، لا يكُونُ رِزْقُكَ فيها رِزْقَ المتْرِفِينَ، ولا عَيْشُكَ عيشَ المتَوسِّعِينَ، ولكنِ اصْطَبِرْ على ذلِكَ، فإنَّ العاقبَةَ للتَّقْوَى، كما قَالَ تَعالى في أوَّل الآيَةِ الأخْرَى: ﴿ولا تمدَّنَّ عَينَيكَ إلى مَا مَتَّعْنا به أزْواجًا منْهُم، زهرةَ الحيَاة الدُّنْيا لنَفْتِنَهُم فيهِ ورِزْقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقَى﴾ [طه: ١٣١].

فإنْ قُلْتَ: لماذا خَصَّ التَّقْوى بالعَاقِبَةِ، وأهلُ التَّقْوى لهمْ مَعَ العَاقِبَةِ العِيشَةُ الطَّيبةُ في الدُّنْيا، لقَولِه تَعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالحًا مِنْ ذكرٍ أوْ أنثَى وهُو مُؤمنٌ فلنُحْيِينَّه حياةً طيِّبةً﴾ [النحل: ٩٧]؟

فاعْلَمْ أنَّه تَعَالى يُخاطِبُ العبادَ على حسَبِ عقُولهِمْ، فكأنَّه يقولُ: أيُّها العبادُ، إنْ نظرتُم أنَّ لأهْلِ الغَفْلةِ والعُدوانِ بدايةً، فلأهْلِ التَّقوَى والإيمانِ نهايةٌ، والعاقبةُ للتَّقْوى. فخاطبَ العبادَ على حَسَبِ ما تَصلُ إليه عقُولُهم، وتدركُه أفهامُهُم، كما جَاء: «الله أكبر» وإنْ كانَ غيرُه لم يُشاركْه في الكِبْرِياء، لكنْ لما كانتِ النُّفوسُ قد تشْهَدُ كِبرياءَ الآثارِ كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، فكأنَّه يُقالُ لها: إنْ كانَ ولا بُدَّ وشَهِدْتِ لشيءٍ كِبرِياءً، فالله عزَّ وجَلَّ أكبرُ منْهُ، وأكبرُ منْ كُلِّ كبيرٍ.

كما جاءَ: «الصَّلاةُ خيرٌ منَ النَّوم»[1]، فلو قِيلَ: ليسَ في النَّوم خَيرٌ، قالت النُّفوسُ: قدْ أدْرَكْتُ لَذاذَتَه وَرَاحَتَه، فسَلَّمَ لَهَا مَا أدْرَكَتْ، ثُمَّ قيلَ لها: مَا دعَوْناكِ إليه، خَيرٌ ممَّا هو خيرٌ عندكِ: الصَّلاةُ خَيرٌ من النَّوم؛ لأنَّ مَا مِلْتِ إليه منَ المنام عَرَضٌ يفْنَى، وما دعَوْناكِ إليه مُعَاملةٌ يبقَى جزاؤُها ما يَفْنى، ومَا عنْدَ الله خيرٌ وأبْقَى.

***

فَائدةٌ جَليلةٌ: اعْلَمْ أنَّ الآيَةَ علَّمَتْ أهْلَ الفَهْمِ عنِ الله، كيفَ يَتطلَّبونَ رِزْقَه، فإذا توَقَّفَتْ عليهِمْ أسبابُ المعيشَةِ أكثرُوا منَ الخِدْمةِ والمَوَافقة؛ لأنَّ هَذه الآيَةَ دلَّتْهم على ذلكَ.

---

(١) عبد الرزاق في «المصنف» (١٧٧٩)، وأحمد (١٥٣٧٦)، وأبو داود (٥٠١)، وابن خزيمة (٣٨٥)، وابن حبّان (١٦٨٢)، وغيرهم من حديث أبي محذورة. وفي الباب عن عبدالله بن زيد وغيره.

ألا تَرَى أنَّه قالَ تَعالى: ﴿وأْمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ علَيهَا لا نَسْألُكَ رِزْقًا نَحْنُ نرزُقُكَ﴾، فَجَاءَ الوَعْدُ بالرِّزْقِ بَعْدَ أمْرَيْنِ: أحدُهُما: أمرُ الأهْلِ بالصَّلَاةِ، والآخَرُ: الاصْطِبارُ عليهَا. ثُمَّ بعدَ ذلكَ قالَ: ﴿نَحْنُ نَرزُقُكَ﴾.

فَفهِمَ أهلُ المعْرفةِ باللهِ أنَّه إذا تَوقَّفتْ عليهِم أسْبابُ المعِيشَةِ، قَرَعُوا بابَ الرِّزْقِ بِمُعَامَلةِ الرزَّاقِ، لا كأهْلِ الغَفْلةِ والعَمَى، إذا توقَّفتْ عليهِمْ أسْبابُ الدُّنيا، ازْدَادُوا كدْحًا فيهَا، وتَهافُتًا عليْهَا، بقُلوبٍ غَافلةٍ، وعقُول عنِ الله ذاهِلةٍ.

وكيفَ لا يكُونُ أهلُ الفهْمِ عنِ اللهِ تَعالى كذلِكَ، وقدْ سَمِعُوا اللهَ تَعالى يقُولُ: ﴿وأْتُوا البُيُوتَ مِنْ أبْوابِها﴾ [البقرة: ١٨٩]، فعلِمُوا أنَّ بابَ الرِّزْقِ طَاعةُ الرَّزَّاقِ، فكيفَ يُطْلَبُ منه رزقُه بمَعْصِيتِه، أمْ كيفَ يُسْتَمْطرُ فضْلُه بمُخالفَتِه، وقَدْ قالَ ﷺ: (إنَّه لا يُنالُ مَا عنْد اللهِ بالسَّخَطِ)[1]، أي: لا يُطلَبُ رزْقُه إلا بالموافقة له.

وقالَ سُبْحانه وتَعالى مُبيِّنًا لِذلِكَ: ﴿ومَنْ يتَّقِ اللهَ يَجعَلْ لهُ مَخْرَجًا ويرْزُقْه مِنْ حيثُ لا يحتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقالَ تعَالى: ﴿وأن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلى الطَّريقَةِ لأسْقَينَاهُمْ ماءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّ التقْوَى مِفْتاحُ الرِّزْقَينِ: رزقِ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٣٣٢)، والبزّار (٢٩١٤)، والحاكم (٢/ ٤)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٩٨٩١) وغيرهما من حديث عبدالله بن مسعود مرفوعًا وفيه: «فإن استبطأ أحدٌ منكم رزقَه، فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا ينال فضله بمعصية»، وفي لفظ آخر: «فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته».

الدُّنيا، وَرِزْقِ الآخرةِ، كما قالَ الله تَعَالى: ﴿ولوْ أنَّ أهْلَ الكتَاب آمنُوا واتَّقُوا لكفَّرْنا عنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ولأدْخَلْناهُمْ جَنَّاتِ النَّعيم * ولوْ أنَّهُمْ أقامُوا التَّوراةَ والإنْجِيلَ ومَا أُنْزِلَ إليهِمْ منْ ربِّهِم لأكَلُوا مِنْ فوقِهِمْ ومِنْ تَحت أرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٥-٦٦].

فبيَّنَ -سُبْحانه وتَعَالى- أنَّهُم لو أقامُوا التَّوراةَ والإنْجيلَ، أي: عَملُوا بما فِيهما، لأكَلُوا مِنْ فوقِهِمْ، ومنْ تحتِ أرجُلِهِمْ، أيْ: لوَسَّعْنا عليهم أرْزاقَهم وأدمْنا علَيهِمْ إنفاقَنا، لكنَّهُمْ لم يفعلُوا مَا نُحِبُّ فلأجْلِ ذلكَ لم نَفْعلْ بهمْ ما يُحبُّونَ.

***

الآيةُ الرابعة وما تضمنته من فوائد

الآيةُ الرَّابعةُ في أمْرِ الرِّزْقِ قولُه تَعَالَى: ﴿ومَا مِنْ دابَّةٍ في الأرْضِ إلَّا عَلى الله رِزْقُها ويَعْلَمُ مُسْتَقرَّهَا ومُسْتَودَعَها كلٌّ في كتابٍ مُبينٍ﴾ [هود: ٦].

فهذه الآيةُ صَرَّحتْ بِضَمانِ الحقِّ في الرِّزقِ، وقطَعَتْ وُرُود الهواجس والخواطِرِ على قلُوبِ المؤمِنينَ؛ فإنْ ورَدَتْ على قُلوبِهم كرَّتْ عليهَا جُيوشُ الإيمانِ بالله والثِّقَةِ بها، فهزَمَتْها، ﴿بلْ نقْذِفُ بالحقِّ عَلى البَاطِلِ فيدْمَغُه فإذا هُوَ زاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

فقَولُه تعالى: ﴿ومَا مِنْ دابَّةٍ في الأرْضِ إلَّا على الله رزْقُها﴾ ضمانٌ تكفَّلَ به لعِبادِه تعريفًا بوِدادِه، ولم يكُنْ ذلكَ واجبًا عليه، بَلْ أوْجَبه على نفسِه إيجابَ كرَمٍ وتفَضُّلٍ.

ثُمَّ إنَّه عَمَّمَ الضَّمانَ فكأنَّهُ يقُولُ: أيُّها العَبدُ ليسَتْ كَفَالتي ورزْقِي خاصًّا بكَ، بَلْ كُلُّ دابَّةٍ في الأرْضِ فأنَا كافِلُها ورازِقُها، ومُوَصِّلٌ إليها قُوتَها، فاعْلَمْ بذلِكَ سَعَةَ كفَالتي وغِنَى رُبُوبيَّتي، وأنَّ الأشْياءَ لا تخرُجُ عنْ إحَاطَتي، وَثِقْ بي كفيلًا، واتَّخِذْني وكِيلًا، فإذَا رأيْتَ تدْبيري لأصْنافِ الحَيَواناتِ، ورعَايتِي لها، وقيامِي بحُسْنِ الكَفَالةِ بها، وأنتَ أشْرفُ هذا النَّوعِ، فأنتَ أوْلى بأنْ تكُونَ بكَفالتِي واثقًا، ولفَضْلي رَامِقًا.

ألا تَرَى كيف قالَ تَعَالى: ﴿ولقدْ كرَّمْنا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠] على سَائرِ أجْناسِ الحيوانِ؟! أيْ: إذْ دَعَوْناهُمْ إلى خِدْمَتِنا ووعَدنَاهُم دخُولَ جنَّتِنا، وخَطَبناهُم إلى حَضْرَتِنا.

ومِمَّا يوضِّحُ لَكَ كَرامةَ الآدَميِّ عنْ غيرِه منَ المُكَوَّنات، أنَّ المُكَوَّنات مخلوقَاتٌ منْ أجْلِه، وهُوَ مخلوقٌ منْ أجْلِ حضْرةِ الله تَعَالى. سمعتُ شَيخَنا أبا العبَّاسِ رحمه الله تَعالى يقولُ: «قالَ الله سُبْحانَه: يا ابنَ آدمَ! خَلَقْتُ الأشْياءَ كلَّهَا مِنْ أجْلِكَ، وخَلقْتُكَ مِنْ أجْلي، فَلا تَشْتَغِلْ بما هُوَ لكَ عمَّا أنتَ له».

وقالَ سُبْحانَه وتَعَالى: ﴿والأرْضَ وَضَعَهَا للأنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]، وقالَ تَعَالى: ﴿وسَخَّرَ لكُم مَّا في السَّمَواتِ ومَا في الأرْضِ جَميعًا منْه﴾ [الجاثية: ١٣].

وسَمِعْتُ الشَّيخَ رحمَه الله يقُولُ: «الأكْوَانُ كلُّها عَبيدٌ سَخَّرهَا لكَ، وأنتَ عُبَيدُ الحضْرَةِ».

وقالَ تَعَالى: ﴿اللهُ الذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ ومنَ الأرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنزَّلُ الأمْرُ بينَهنَّ، لِتَعْلَمُوا أنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ وأنَّ اللهَ قَدْ أحَاطَ بكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فقَدْ بيَّن لكَ أنَّ السَّماوَاتِ والأرْضَ مخلُوقةٌ منْ أجْلِ أنْ تعْلَمَ أيُّها الآدمِيُّ، فإذا عَلِمْتَ أنَّ الأكْوانَ مخلوقَةٌ منْ أجْلِكَ: إمَّا انتفاعًا، وإمَّا اعْتبارًا وهُو نفعٌ أيضًا، فينْبغِي لكَ أنْ تعلَمَ أنَّ اللهَ تَعَالى، إذا رزَقَ مَنْ هوَ مخلوقٌ منْ أجْلِكَ، كيْفَ لا يكُونُ لكَ رَازِقًا؟ ألم تَسْمَعْ كَيفَ قالَ تَعَالى: ﴿وفَاكِهةً وأبًّا * مَتَاعًا لكُمْ ولأنْعَامِكُمْ﴾ [عبس: ٣١-٣٢].

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿ويَعْلَمُ مُسْتقَرَّها ومُسْتَودَعَها﴾ تأكِيدٌ لأنَّه المتَكَفِّلُ بِها، أيْ: لا يخْفى عليْه مكَانُها، ولا يَنْبَهِمُ عَلَيه شَأنُها، بلْ يَعلَمُ مَكَانَها فيُوصِّلُ إلَيهَا مَا قَسَمَ لها.

***

الآيةُ الخامسة وما تضمنته من فوائد

الآيَةُ الخَامِسَةُ في شَأنِ الرِّزْقِ: قولُهُ تَعَالى: ﴿وفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ ومَا تُوعَدُونَ * فورَبِّ السَّماءِ والأرْضِ إنَّه لحقٌّ مثْلَ ما أنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

وهَذه الآيةُ هِيَ التي غَسَلَت الشُّكوكَ منْ قلُوبِ المؤمِنِينَ، وأشْرَقتْ في قلُوبهم أنْوارُ اليَقِين، فأوْرَدَتْ على قُلُوبهم الزَّوائدَ لِما تَضَمَّنَتْه مِنَ الفَوائِدِ، وذَلِكَ أنَّها تَضَمَّنَتْ ذكْرَ الرِّزْقِ، ومحلِّه، والقَسَمَ عليه، والتَّشْبيهَ له بأمْرٍ لا خَفاءَ بِه، ولْنَتَتَبَّعْ ذكْرَ هذِه الفَوائدِ فائدةً فائدةً.

الفَائدةُ الأولَى: اعْلَمْ أنَّه تعالى لمَّا عَلِمَ كثرةَ اضطِّرابِ النُّفوسِ في شَأنِ الرِّزقِ كرَّرَ ذكْرَه لمَّا تكرَّرَتْ ورُودُ عَوارضه على القلوبِ، كَما تُكَرِّرُ الحُجَّةَ إذا عَلِمْتَ أنَّ الشُّبْهةَ مُتمَكِّنةٌ في نَفْسِ خَصْمِكَ، كما كَرَّرَ تَعالى الاسْتِدْلالَ على المعادِ في آياتٍ عَديدَةٍ لما اضطربت فيه المُلْحِدُونَ واسْتَبْعدُوا أنَ يَعُودَ الإنْسَانُ بعدَ أنْ تمزَّقَتْ أوصَالُه واضْمَحَلَّ بناؤُهُ وصارَ ترابًا أو أكَلَتْه السِّباعُ والهوامُّ، فاحْتَجَّ عليهِمُ في كِتابه العَزيزِ حُجَجًا كثيرةً منْها قولُه تَعالى: ﴿وضَرَبَ لنا مثَلا ونَسيَ خَلْقَه قالَ مَنْ يُحيِي العِظَامَ وهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذي أنْشَأهَا أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٨-٧٩]، وبِقَوْلِه في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿وَهُوَ أهْوَنُ عليهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وبِقَولِه تَعَالى: ﴿إنَّ الَّذي أحْيَاهَا لمحْيِي المَوْتَى﴾ [فصلت: ٣٩]، إلى غَيرِ ذلِكَ.

وكذلِكَ لَمَّا عَلِمَ الحقُّ تعالى شِدَّةَ اضطِّرابِ النُّفُوسِ في أمْرِ الرِّزْقِ أكَّدَ الحجَّةَ في ذلِكَ في آياتٍ عدِيدَةٍ، مِنْها: مَا تقَدَّمَ ذِكْرُه، ومِنْها مَا لم نَذْكُرْه.

فلَمَّا عَلِمَ الحقُّ تَعَالى ذلِكَ منْ نُفُوسِ العِبَادِقالَ تارةً: ﴿إنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقالَ أخْرَى: ﴿الله الَّذي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُم﴾ [الروم: ٤٠]، وقالَ أخْرَى: ﴿نَحْنُ نرزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]، وقالَ أخْرَى: ﴿أمَّنْ هَذا الَّذي يرزُقُكُمْ إنْ أمْسَكَ رزْقَهُ﴾ [الملك: ٢١].

وقالَ هَهُنا: ﴿وفي السَّماءِ رزْقُكم ومَا تُوعدُونَ﴾ ليُبيِّنَ مَحلَّ الرِّزْقِ، فتَسْكُنَ إليه القُلوبُ.

وليسَ الضَّمانُ مَعَ إبْهامِ المَحَلِّ، كالضَّمانِ مَعَ تَبْيينِه، فكأنَّه تَعالى يقُولُ: «لم يكنْ يجِبُ علَيْنا أنْ نُبيِّنَ لكُمْ محلَّ رزْقِكم، لكُم عَنْدنا رزْقٌ نُوصِّله لكُم إذَا جَاءَ إبَّانُه، وليسَ علينْا بيَانُه»، ولكِنْ بلُطْفِه ورَحْمتِه وفَضْلِه ومنَّتِه، بيَّنَ محلَّ الرِّزقِ ليكُونَ ذلكَ أبلَغَ في ثِقَةِ النُّفُوسِ بِهِ، وأقْوَى في دفْعِ الشَّكِّ.

وفيه فائدةٌ أخْرَى، وهُو أنَّ تضَمُّنَ تَبْيينِ المحلِّ رفَعَ هِمَمَ الخلْقِ عنِ الخلْقِ، وأنْ لا يَطلُبُوا إلَّا منَ الملِكِ الحقِّ، وذلِكَ إذا وقَعَ في قلْبِكَ طَمعٌ في مخْلُوقٍ، أو حَوَالةٌ على سَببٍ، قال لَكَ تَعَالى: ﴿وفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ ومَا تُوعدُونَ﴾.

أيْ: يا هذا المتَطلِّعُ للرِّزْقِ منَ المخلُوقِ الضَّعيفِ العاجِزِ في الأرْضِ ليسَ رزْقُكَ عندَه؛ إنَّما رزقُكَ عنْدِي، وأنا الملِكُ القادِرُ.

ولأجْلِ هذا أنَّه لَّما سَمِعَ بعضُ الأعْرابِ هذِهِ الآيَةَ، نحَرَ ناقَتَه، وخَرجَ فارًّا إلى الله تَعالى وهو يقُولُ: «سُبحانَ الله، رِزْقي في السَّماءِ وأنا أطْلبُه في الأرْضِ».

فانظُر رحِمَكَ الله كيفَ فهِمَ عنِ الله، أنَّ مُرادَه بهذه الآيةِ أنْ يدْفَعَ هِمَمَ عِبادِه إليه، وأنْ يكونَ رغْبتُهم فِيها لدَيه، كَما قالَ في الآيةِ الأخْرَى: ﴿وإنْ مِنْ شَيءٍ إلَّا عنْدَنا خَزائِنُه، ومَا نُنزِّلُه إلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، لتَجْأشَ[1] الهِمَمُ إلى بابِه، ولتَجْنحَ القلُوبُ إلى جنَابه.

فكُنْ رَحِمك الله سَماوِيًّا علويًا، ولا تكُنْ سُفْلِيًّا أرْضِيًّا!

---

(١) جاشت نفسه: ارتفعت من حزن أو فزع. [تاج العروس]

ولذَلِكَ قالَ بعضُهُمْ:

إذا أعْطَشَتْكَ أكُفُّ اللِّئام * كَفتْكَ القَناعةُ شِبْعًا ورِيًّا
فكُنْ رجُلًا جِسْمُه في الثَّرَى * وهامَةُ هِمَّته في الثُّرَيَّا
فإنَّ إراقَةَ مـــاءِ الحَيا * ةِ دُونَ إرَاقَةِ ماءِ المحَيَّا

وسَمِعْتُ شَيْخَنا أبا العَبَّاسِ رَحمَه الله يقُولُ: «والله مَا رأيتُ العِزَّ إلا في رَفْعِ الهِمَمِ عنِ الخَلْقِ».

واذكُرْ أيُّها الأخُ رحِمَكَ الله ههُنا قَولَه تَعالى: ﴿ولله العِزَّةُ ولرَسُولِه ولِلْمُؤمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فمِنَ العِزَّةِ الَّتي أعزَّ الله بها المؤمِنَ رَفْعُ هِمَّته إلى مَولَاهُ، وثِقَتُه به دُونَ ما سِواهُ، واسْتَحِ مِنَ الله أنْ تكُونَ بعدَ أنْ كسَاكَ حُلَّةَ الإيمانِ وزَيَّنكَ بزينةِ العِرْفانِ، أنْ تَسْتولِيَ عليكَ الغَفْلةُ والنِّسيانُ حتَّى تميلَ إلى الأكْوانِ، أوْ تطلُبَ منْ غيرِه وجُودَ إحْسَانٍ.

ولذلِكَ قال بَعضُهُمْ(١):

أبعدَ نفُوذي في عُلومِ الحقَائقِ * وبعدَ انْبِسَاطي في مَواهِبِ خَالقِي
وفي حينِ إشْرافي على مَلكُوته * أُرَى باسِطًا كفِّي إلى غَيرِ رازِقي

(١) نسبهما صاحب «التكملة لكتاب الصلة» بألفاظ مقاربة لأبي عثمان سعيد بن إبراهيم بن محمد ابن عبد ربه، مولى الأمير هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. قال:
كان أديبا شاعرا، طبيبا ماهرا، وكان جميل المذهب منقبضا عن الملوك. وَهُوَ الْقَائِل فِي آخر عمره:
أمن بعد غوصي فِي عُلُوم الْحَقَــائِق * وَطول انبساطي فِي مواهب خالقي
وَفِي حِين إشرافي على ملكوته * أرى طَالبا رزقا إِلَى غير رَازِق

فإنْ كلَّفَتْكَ النَّفسُ الغافلةُ عن مَولاهَا، بأنْ تَرفَعَ حَاجتَكَ إلى المَخْلوقينَ، فارْفَعْها إلى مَنْ يَرفعُ ذلكَ المخلوقُ حاجتَه إليْه، وهيِّنٌ على النَّفسِ أنْ تُهينَ إيانَكَ لتَحْصيلِ هَواهَا، وأنْ تُذِلَّكَ لتَبْلُغَ مُناهَا، كما قالَ بعضُهُمْ[1]:

تَكَلَّفْتُ إذلالًا لنفسي لِعزِّها * وَهَانَ عَليهَا أنْ أُهَانَ لتُكْرَمَا
تقُولُ سَلِ المعرُوفَ يحيَى بنَ أكْثَمِ * فقُلْتُ سَلِي ربًّا ليَحْيَى بنِ أكْثَما

وقَبيحٌ بالمؤمِنِ أنْ يُنزِلَ حاجَتَه بغَيرِ الله معَ عِلْمِه بوحْدانيَّتِه، وانْفِرادِه بربُوبيَّتِه، ويسْمَعُ قولَهُ تَعالى: ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

وذلِكَ مِنْ كُلِّ أحَدٍ قَبيحٌ، ومِنَ المؤمِنِ أقْبَحُ.

ولْيذْكُرْ قولَه تَعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا أوفُوا بالعُقودِ﴾ [المائدة: ١]، ومنَ العُقُودِ الَّتي عاقَدْتَه علَيهَا أنْ لا تَرفَعَ حوائِجَكَ إلَّا إلَيْه، ولا تَتوَكَّلَ إلَّا عليه، وذلِكَ لازمُ إقْرارِكَ لهُ بالرُّبوبيَّة يَوْمَ المقَادِيرِ، يومَ: ﴿ألسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالوا بَلى﴾ [الأعراف: ١٧٢].

فكَيْفَ تَعْرِفُه وتُوحِّدُه هنالِكَ وتَجهلُه هُنا، وقدْ تَواترَ عليكَ إحْسَانُه، وغمَرَكَ فَضْلُه وامْتنانُه، كَما قال بعضُهُم:

فِي القَلْبِ لكُمْ مَنْزِلَةٌ عَليَّةٌ * لا تَسْكُنُهَا سُعْدَى ولا لُبْنَاءُ
فِي الذَّرِّ عَرَفْتُكُمْ فهَلْ يَجْمُلُ بِي * أنْ أنْكِرَكُمْ ولِحْيَتِي شَمْطَاءُ

(١) نسبهما المبرد في «الكامل» لعبد الصمد بن المعذل، من المولدين.

ورفْعُ الهِمَّةِ عنِ الخَلْقِ هوَ ميزانُ الفُقَراءِ، ومِسْبارُ الرِّجالِ، وكَما تُوزَنُ الذَّواتُ كذلكَ تُوزَنُ الأحْوالُ والصِّفاتُ: ﴿وأقِيمُوا الوزْنَ بالقِسْطِ﴾ [الرحمن: ٩]، فيَظْهرُ الصَّادقُ بصِدْقِه، والمدَّعي بمَذْقِه[1]: ﴿مَا كانَ الله لِيَذَرَ المؤمِنينَ عَلى مَا أنتُم عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقدِ ابتَلَى الله بحِكْمتِه ووجُودِ مِنَّتِه الفُقراءَ الَّذينَ ليْسُوا بصَادقِينَ، بإظْهارِ ما كمَنُوا مِنَ الرَّغْبةِ، وأسرُّوا منَ الشَّهْوةِ، فابتَذلُوا أنفُسَهُم لأبْناءِ الدُّنْيا مبَاسِطِينَ لَهُم، ملائِمِينَ لهم، مُوافقِينَ لهُم عَلى مآرِبِهِمْ، مَدْفُوعِينَ على أبْوابِهِمْ، فتَرَى الوَاحِدَ منهُم يتزَيَّنُ كما يتَزَيَّنُ العرُوسُ، مُفتَتَنُون بإصْلاحِ ظَواهِرِهِم، غَافِلينَ عَنْ إصْلاحِ سَرائِرِهِمْ.

ولقَدْ وَسَمَهُم الحقُّ سُبْحانَه وتَعَالى بسِمَةٍ كشفَ بها عَوارَهم وأظْهَرَ أخبَارَهُم، فبعْدَ أنْ كانَ نِسْبتُه -أنْ لو صَدقَ معَ الله- أنْ يقالَ فيه: «عَبدُ الكبيرِ»، فأُخْرِجَ عنْ هذِه النِّسْبةِ بعدَمِ صِدْقِه، فَصَارَ يُقالُ فيه: «شَيخُ الأميرِ».

أولئكَ الكذَّابون على الله؛ الصَّادُّونَ للعِبادِ عنْ صُحْبةِ أولياءِ الله؛ لأنَّ ما يشْهَدُه العُمُومُ مِنهم، يحسَبُونه على كُلِّ مُنْتَسِبٍ إلى الله، صَادقٍ وغيرِ صادقٍ، فهُمْ حُجُبُ أهْلِ التَّحقِيقِ، وسُحُبُ شُمُوسِ أهْلِ التَّوفيقِ، ضَربُوا طُبولَهم، ونشَروا أعْلامَهُم، ولبِسُوا درُوعَهُم، فإذَا وقعَتِ الحمْلةُ ولَّوْا على أعقَابِهم ناكِصِين، ألسِنَتُهُم مُنطَلقةٌ بالدَّعْوى، وقلُوبُهم خَاليةٌ منَ التَّقْوَى، ألم يسْمَعُوا

(١) مَذَق اللبن يمْذُقُه مَذْقًا: خلطه، ومنه قيل «فلان يمذق الود» إذا لم يخلصه. [لسان العرب]

قولَه تَعَالى: ﴿لِيسْأَلَ الصَّادِقِينَ عنْ صِدْقِهِم﴾ [الأحزاب: ٨]، أتُرى إذا سَأَلَ الصَّادِقِينَ، أيتْرُكُ المدَّعِينَ منْ غيرِ سُؤالٍ؟!

ألم يسْمَعُوا قولَ الله تَعَالى: ﴿وقُلِ اعْمَلُوا فسَيَرى الله عمَلكُمْ ورسُولُه والمؤمنونَ، وسَتردُّونَ إلى عالمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ، فيُنبِّئكُمْ بِما كُنتُم تَعْمَلُون﴾ [التوبة: ١٠٥]؟!

فَهُمْ في إظْهارِ زيِّ الصَّادِقِينَ، وعمَلِهِم عمَلَ المعْرِضِينَ، كَما قِيلَ[1]:

أمَّا الخِيامُ فإنَّها كخِيامِهِمْ * وأرَى نَساءَ الحيِّ غيرَ نِسائِهَا
لا والَّذي حَجَّتْ قُرَيشٌ بيْتَهُ * مُسْتَقبِلِينَ الرُّكنَ مِنْ بَطْحائِهَا
ما أبْصَرَتْ عَيني خِيامَ قَبيلةٍ * إلَّا بَكَيتُ أحَبَّتِي بِفِنائِهَا

فقَدْ عَلِمتَ -رحِمكَ الله- أنَّ رفْعَ الهمَّةِ عنْ الخلْقِ هُوَ زِينةُ أهلِ الطَّرِيقِ، وسِيمةُ أهْلِ التَّحْقِيقِ؛ ولَنَا في هذا المعْنى:

بكَرَتْ تلُومُ على زَمانٍ أجْحَفَا * فَصَدَفْتُ عنهَا علَّها أنْ تَصْدِفَا
لا تُكثِري عَتبًا لدَهْرِكَ إنَّه * مَا إنْ يُطالَبُ بالوفَاءِ ولا الصَّفَا
ما ضَرَّني أنْ كنتُ فيه خَاملًا * فالبدْرُ بدْرٌ إنْ بَدَا أو إنْ خَفَا
الله يَعْلَمُ أنَّني ذُو هِمَّةٍ * تأبى الدَّنايا عِفَّةً وتَظَرُّفَا
لِمْ لا أصُونُ عَنِ الوَرَى دِيباجَتِي * وأُرِيهِمُ عِزَّ الملُوكِ وأشْرَفَا

---

(١) لأبي الفضل بن عَبْدِ الصمَدِ مَوْلَى رَقاش على ما في «الدر الفريد».

أأُريهمُ أنِّي الفقيرُ إليهمْ * وجميعُهُمْ لا يستطيعُ تصرُّفا
أمْ كيفَ أسألُ رزقَهُ منْ خلْقه * هَذا لَعمْري إنْ فَعلْتُ هُوَ الجفا
شكْوَى الضَّعيفِ إلى ضَعيفٍ مثْله * عَجزٌ أقامَ بحامليه على شَفا
فاسْتَرْزِق اللهَ الَّذي إحْسَانُه * عَمَّ البريَّةَ منَّةً وتَلطُّفا
والجأْ إليْهِ تَجِدْه فِيما تَرْتَجي * لَا تَعْدُ عَنْ أبْوابِه مُتَحَرِّفَا

الفَائدةُ الثَّانيةُ: يُحتَملُ أنْ يكونَ قولُه سُبْحانَه وتَعَالى: ﴿وفي السَّماءِ رزْقُكُمْ﴾ أنْ يكونَ المرادُ إثْباتَ رزْقِكم، أي: إثباتَه في اللَّوح المحفُوظ، فإنْ كانَ المرادُ كذلكَ، فهُو تَطْمينٌ للعبادِ، وإعلامٌ لَهُمْ أنَّ رزقَكُم -أيْ: الشَّيءَ الَّذي منه رزقُكم- كَتبْناهُ عندَنا وأثْبتْناهُ في كتَابنا، وقضَيناهُ بآياتنا منْ قبلِ وُجودِكُم، وعيَّنَّاهُ منْ قَبْلِ ظُهُورِكُم. فلأيِّ: شَيءٍ تَضطَّربُونَ؟! ومَا لكُمْ إليَّ لا تَسْكُنونَ؟! وبِوعْدِي لا تثِقُونَ؟!

ويُحتَمَلُ أنْ يكُونَ المرادُ: ﴿وفي السَّماءِ رزْقُكم﴾ أيْ: الشَّيءَ الَّذي منْه رزقُكُم، وهُوَ الماءُ كَما قالَ تَعالى: ﴿وجَعلْنا منَ الماءِ كُلَّ شَيءٍ حيٍّ أفَلا يُؤْمنونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وكَذلكَ قالَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: «هُوَ المطَرُ»(١)، فيكُونُ قولُه: ﴿وفي السَّماءِ رزْقُكُم﴾ أيْ: الشَّيءُ الَّذي منه أصْلُ رزقِكُمْ؛ ولأنَّ الماءَ في نفسه رزْقٌ.

(١) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٦١٩) عن علي رضي الله عنه، والضحاك، وعن ابن عباس قال: الثلج.

الفَائدةُ الثَّالثَةُ: يُمْكنُ أنْ يكُونَ مُرادُ الحقِّ سُبْحَانَه وتَعَالى بهذهِ الآيةِ تَعْجيزَ العبادِ عَنْ دَعَوَى القُدْرَة عَلى الأسْبابِ؛ لأنَّ الله تَعالى لوْ أمْسَكَ الماءَ عنِ الأرْضِ، لتَعَطَّل سَبَبُ كُلِّ ذي سبَبٍ، منْ حارثٍ وزارعٍ وتاجرٍ وخَائطٍ وكاتبٍ، وغيرِ ذلكَ، فكأنَّه يقولُ: «ليْسَتْ أسْبابُكُم هي الرَّازِقةُ لكُم؛ ولكنْ أنا الرَّازقُ لكُم، وبيَدِي تيْسِيرُ أسْبابِكُم، أنا المنزِلُ لكُم ما بِه كانتْ أسْبابُكم، وتَمَّتْ أكسَابُكُم».

الفائدةُ الرَّابعةُ: في اقترانِ الرِّزْقِ بالأمْرِ الموعُودِ فائدةٌ جَليلةٌ، وذلكَ أنَّ المؤمنينَ لما عَلِمُوا أنَّ ما وعدَهُم الحقُّ لا بُدَّ مِنْ كونِه، ولا قُدْرَةَ لهمْ على تَعْجيلِه ولا تَأجِيلِه، ولا حِيلَةَ لهمْ في جَلْبِه، فكأنَّه سبحانه وتَعَالى يَقُولُ:

«كَما لا شَكَّ عندَكُم أنَّ عندَنا مَا تُوعدونَ، كذلِكَ لا يَكُنْ عندَكُم شَكٌّ في أنَّ عنْدنا ما تُرْزقُونَ. وكَما أنَّكُمْ على اسْتعْجال مَا وعدْنَا قَبْلَ وقتِه عاجِزُونَ، كذلِكَ أنتُم عَاجزُونَ عنْ أنْ تَسْتَعْجِلُوا رِزْقًا أجَّلَتْه ربُوبيَّتُنا، ووقَّتَه إلاهيَّتُنا».

الفَائدةُ الخَامسَةُ: قولُه سُبحانَه وتَعَالى ﴿فوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحقٌّ مِثْلَ مَا أنَّكُم تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]:

في ذلكَ حُجَّةٌ عظيمةٌ على العِبادِ أنْ يكُونَ الوفيُّ الوعْدِ الذي لا يُخْلِفُ الميعَادَ يُقْسِمُ للعِبادِ على مَا ضَمِنَ لهمْ، لعِلمِه بها النُّفوسُ مُنْطويةٌ عليه منَ الشَّكِّ والاضطِّرابِ ووُجُوبِ الارْتِيابِ.

فلذلكَ قالتِ الملائكةُ حينَ سَمعَتْ هذه الآيَةَ: «هَلَكَ بنُو آدَمَ، أغْضَبُوا ربَّهُمُ الجليلَ، حتَّى أقْسَمَ» [1]، وقالَ بَعْضُهُم حينَ سَمعَ هذِه الآيَةَ: «سُبحانَ الله: مَنْ أَلجأَ الكَرِيمَ إلى القَسَمِ».

ومَنْ عَلِمْتَ ثِقَتَه بكَ لم تحتجْ إلى القَسَمِ معَه، وإذا عَلِمْتَ اضطِّرابَه في وعدِكَ أقْسَمْتَ لهُ.

فهذِه الآيَةُ: سَرَّتْ أقوامًا، وأخْجَلَتْ آخرِينَ. أمَّا الذِينَ سرَّتْهُم فهُم في المَقامِ الأوَّلِ، إذْ يزيدُ بها إيمانُهم، ويَرسُخُ بها إيقانُهمْ فينْتَصِرُوا بها على وسَاوسِ الشَّيطانِ، وشكُوكِ النَّفْسِ. وأمَّا الذينَ أخْجَلَتْهُم فإنَّهم علِمُوا أنَّ الحقَّ سُبحانَه وتَعالى علِمَ مِنْهُم عدَمَ الثِّقةِ، ووجُودَ الاضطِّرابِ فأقامَهَمْ مقامَ أهْلِ الشَّكِّ، فأقْسَمَ لهُم فأخْجَلَهُم ذلِكَ حياءً منْهُ، وذلِكَ ممَّا أفادَهُم الفَهْمُ عنْه.

ورُبَّ شيءٍ واحدٍ أوجبَ سُرورَ أقوامٍ وحُزنَ آخرينَ، على حسَبِ تفاضُلِ الأفْهامِ، وواردَاتِ الإلهامِ، ألم تَرَ أنَّه لمَّا نزَّلَ قولُه تَعالى: ﴿اليَوْمَ أكْمَلْتُ لكُم دينكُم، وأتْمَمْتُ عليكُم نِعْمَتي وَرَضيتُ لكُم الإسْلامَ دينًا﴾ [المائدة: ٣] فرحَ بها الصَّحابةُ، وحَزنَ بها أبو بكر [2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجْمعينَ؛ لأنَّه فهِمَ منْها نَعْيَ رسُولِ

---

(١) ذكره المناوي في «فيض القدير» (٢/ ٤٥٠) ولم يعزه.

(٢) قال الإمام أبو السعود في تفسيره (٩/ ٢٠٩)، ورُوي أنها لما نزلت خطبَ رسولُ الله ﷺ فقال: «إنَّ عبدًا خيَّرهُ الله تعالى بين الدُّنيا وبين لقائه فاختارَ لقاءَ الله تعالى» فعلم أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقال: فديناك بأنفسنا وآبائنا وأولادنا». وحديث: «إنَّ عبداً خيرهُ الله تعالى...» متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٣٩٠٤)، ومسلمٌ (٢٣٨٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وأخرج ابن أبي شيبة (٣٤٤٠٨)، وابن جرير (٨/ ٨١)، وغيرهما أنها لما نزلت بكى عمر... الحديث.

اللهِ ﷺ، فبَكى وأخَذَ منْ ذلك أنَّ الشَّيءَ إذا اسْتَتَمَّ خِيفَ عليهِ مِنَ التَّراجُعِ إلى وجُودِ النُّقْصَانِ، كَما قَالَ [بعضُهُم](١):

إذَا تَمَّ شَيءٌ دَنا نَقْصُهُ * تَوقَّعْ زَوَالًا إذا قِيلَ تَمْ

وعَلِمَ أنَّ الأمْرَ لا يَتقاصَرُ ما دامَ الرَّسُولُ ﷺ حَيًّا. وفَرِحَ الصَّحابةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أجمعينَ- لظَاهِرِ البِشَارةِ التي فِيهَا، ولم ينفُذُوا لما نفَذَ إليه أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فظَهرَ لذلِكَ سِرُّ قولِه ﷺ: (ما سَبَقكُم أبو بكرٍ بِصَومٍ ولا صَلاةٍ، ولكِنْ بشَيءٍ وقَرَ في صَدْرِه)(٢).

والَّذِي كانَ سَابِقًا هو بِعَينِه هوَ الَّذِي أوجبَ أنْ يَفْهَمَ ما لم يفْهَمْ غيرُه. ومِثْلُ ذَلَكَ قولُه سُبْحَانه وتَعَالى: ﴿إنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤمِنينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بأنَّ لَهُمُ الجنَّةَ يُقاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ فيَقْتُلُون ويُقْتَلُونَ﴾ [التوبة: ١١١].

وسَمِعْتُ الشَّيخَ أبا محمَّد المرْجَانيَّ(٣) -رحِمه الله تَعَالى- يَقُولُ:

---

(١) لأبي بكر محمد بن العباس الخوارزمي (ت٣٨٣هـ).

(٢) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (الإحياء ١/ ٢٣): «أخرجه الترمذيُّ الحكيم في «النوادر» من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعًا»، وأقرَّه السخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (ص ٥٨٤، رقم ٩٧٠)

(٣) الإمام القدوة، الواعظ المفسِّر عبدالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الله، أبو محمد المرجاني، ولد بالاسكندرية. كان إمامًا مفتيًا في مذهب مالك، عالمًا بما فيه من المآخذ والمسالك، حلو العبارة مُذكِّرًا، خبيرًا بعلوم القرآن مُفسِّرا، أملى دروسًا بالتفسير جمعها ابن السكري من كلامه وسمَّاها «الفتوحات الربانية في المواعيد المرجانية»، وله «بهجة الشموس والأسرار في تاريخ هجرة المختار»، وكان له قدم راسخ في التصوف، قدم مصر، وذكر بها، واشتهر في البلاد، وتوفي بتونس، في ربيع الثاني سنة ٦٩٩. انظر: «أعيان العصر» للصفدي (٢/ ٧١٩)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (١/ ٤٤١).

«قومٌ سَمِعُوا هَذه الآيةَ الكريمةَ، فاسْتَبْشرُوا بهذه المبايعة، فابيَضَّتْ وجُوهُهُمْ سُرورًا بهَا، إذْ أهَّلَهُم الحقُّ أن يَشْتريَ منهُم، وإذْ أجَلَّ أقدارَهُم إذْ رَضِيَهُم للشِّراءِ، وسُرورًا بالثَّمنِ الجليلِ والثَّوابِ الجزيلِ.

وقومٌ أصفَرَّتْ وجُوهُهم خَجَلًا مِنَ الله تَعالى، إذِ اشْتَرَى منْهُم مَا هُو مَالِكُه، فلَولَا أنَّه عَلِمَ منْهُم وجُودَ الدَّعْوَى الكامنةِ في أنفُسِهم ودَعْوَى المالكية منْهُم لها، لما قال: ﴿إنَّ الله اشْترى مِنَ المؤْمِنينَ أنْفُسَهم...﴾.

فكانَ للَّذينَ ابيضَّتْ وجُوهُهُمْ جَنَّتانِ منْ فِضَّةٍ آنيتُهُما ومَا فيهما، وكانَ للَّذينَ اصْفَرَّتْ وجُوهُهُم، جنَّتانِ منْ ذهبٍ آنيتُهما ومَا فيهما». انتَهى كلامُ الشَّيخِ.

فلَوْ سَلِمَ المؤمنونَ مِنْ بقايَا المنازَعَةِ، مَا أوْقَعَ عليهِمْ مُبايعةً، ولذلكَ قالَ الله تَعالى: ﴿إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المؤمنينَ﴾، ولم يقُلْ: مِنَ الأنبياءِ والمرْسَلِينَ.

ولذَلِكَ قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحمه الله:

«النُّفُوسُ على ثلاثةِ أقْسَامٍ: نفْسٌ لا تُشْتَرى لخِسَّتِها، ونفْسٌ تُشْتَرى لكِرامَتِهَا، ونفسٌ لا يقعُ عليها الشِّراءُ لثُبوتِ حُرِّيَّتِها. فالأُولى: نفُوسُ الكافِرينَ،لا يقعُ عليهَا الشِّراءُ لخسَّتِها. والثَّانية: نفُوسُ المؤمِنِينَ، وقَعَ عليهَا الشِّراءُ لكرامَتِها. والثَّالثةُ: نُفُوسُ الأنْبياءِ والمرسَلِينَ، لم يقعْ عليهَا الشِّراءُ لثُبوتِ حرِّيَّتِها».

الفَائدَةُ السادسة: وهُوَ أنَّه تَعالى أقْسَمَ بالرُّبُوبِيَّة الكافلة للسَّماء والأرْض، ولم يُقسمْ بغَيرِهَا منَ الأسْماء، وذلكَ؛ لأنَّ الرُّبوبيَّةَ الكافلةَ للسَّماء والأرْض لا ينْبَغي أنْ يُشَكَّ في الثِّقة بها، ومِنْ شأنها كفالةُ هذا العالَمِ العظيم، الَّذي أنتَ فيه، وإذا نُسِبْتَ إليه كنتَ كَلَا شيءٍ موجُودٍ فيه، فذلِكَ أبلَغُ في وجُودِ الثِّقة منْ أنْ يقولَ: فَوَالسَّميعِ، أو العَليم، أو الرَّحمنِ، أوْ غيرِ ذلِكَ منَ الأسْماء، فافْهَمْ.

الفائدةُ السَّابعةُ: قولُه سُبحَانه وتَعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾، والحقُّ هوَ ضِدُّ الباطِلِ، والباطِلُ هوَ المعدُومُ الَّذي لا ثَباتَ لَهُ، والرِّزْقُ حقٌّ، كَما أنَّ الرزَّاقَ حقٌّ.

والشَّكُّ في الرِّزْقِ شكٌّ في الرَّزَّاقِ، حتَّى كانَ بعضُهُم يَنْبِشُ المقَابرَ ثمَّ تابَ، فقَالَ لبَعْضِ العارِفينَ: نَبشْتُ ألفَ قبرٍ فوجَدْتُهم كلَّهُم وجُوهُهم محوَّلَةٌ عنِ القِبْلةِ، فقالَ عارفُ ذلِكَ الزَّمَانِ: «إنَّما حَوَّلَ وجُوهَهُم عَنِ القِبْلَة تُهمةُ الرِّزْقِ».

الفَائدَةُ الثَّامنةُ: قولُه تَعالى ﴿مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾: تأكيدٌ في إثْباتِ الرِّزق، وتقريرٌ لحقيقَته، وأنَّه لا ينْبَغي أنْ يرتابَ فيه مُؤمنٌ ولا يشُكُّ فيه مُوقنٌ، وأنَّ ثُبوتَه بمَشْهدِ بصائرِ القُلوب، كثُبوتِ المَنْطقِ الظَّاهرِ بمَشْهدِ الأبْصار، فنَقَلَ المعنى إلى الصُّورَةِ، ومثَّلَ الغَيْبَ بالشَّهادَة. وقطع شَكَّ العبادِ في أمْرِ الرِّزْقِ.

أي: فكما أنَّكُمْ تَنطِقُونَ، لا تشكُّونَ في ذلِكَ، لِمَا أثْبَتَه العَيانُ؛ كذلكَ لا تَرْتابُوا في أمْرِ الرِّزْقِ فقَدْ أثْبتَهُ نُورُ الإيمانِ.

فانْظُرْ -رَحِمكَ اللهُ- اعْتِناءَ الحقِّ سُبْحَانَه وَتَعالى بأمْرِ الرِّزْقِ وتكْرارِه لَهُ، وتَبْيين مَواطِنِه، وتَنْظِيرِه وتَمْثِيله بالأُمُورِ المحسُوسَةِ التي لا يَرتابُ فيها شَاهِدُهَا، وإقسَامِه على ذلِكَ بالرُّبوبيَّةِ المحِيطَةِ بالسَّماءِ والأرضِ، وكذلك تكرَّرَ في كلامِ صاحِبِ الشَّرعِ صَلَواتُ الله عَلَيْهِ فقالَ: (إنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعِي، أنَّ نفسًا لنْ تموتَ حتَّى تَسْتكْمِلَ رزْقَها، فاتَّقُوا الله وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ)[1].

وقالَ ﷺ: (لوْ توَكَّلْتُم على الله حقَّ توَكُّلِه، لرَزَقَكُم كَما يُرْزَقُ الطَّيرَ، تغْدُو خِماصًا وتَرُوحُ بطانًا)[2]، وقالَ ﷺ: (طالبُ العِلْمِ تكَفَّلَ الله رِزْقَه)[3].. إلى غيرِ ذلكَ منَ الأحَاديثِ الوارِدَةِ في ذلِكَ.

***

فائدة: اعلَمْ أنَّه لا ينافي التَّوكُّلَ على الله في أمْرِ الرِّزْقِ وجُودُ السَّببِ، كما أشَار إليه رسُول الله ﷺ، لأنَّه قالَ: (فاتَّقُوا الله وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ)، فقدْ أباحَ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤)، وابن حِبَّان (٣٢٣٩) و (٣٢٤١)، والحاكم (٢/ ٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٥٦) من طريقين، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٥)، والترمذيُّ (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤)،وابن حِبَّان (٧٣٠)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وصحَّحه الترمذيُّ.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٣٠٤٤)، وأبو محمد الأردبيلي في «الفوائد» (١٨٧/ ٢)، وابن حمكان في «فوائده» (٣٣)، والخطيب في «تاريخه» (٣/ ٣٩٨)، والقضاعي (٣٩١)، وابن عساكر (٤١/ ٢٣٢)، وغيرهم من حديث زياد بن الحارث الصُّدائيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وفي إسناده يونس بن عطاء، قال ابن حِبَّان: «لا يجوز الاحتجاج به»، وقال الحاكم وأبو سعيد النقاش: روى، عن حُميد الطويل الموضوعات، وكذا قال أبو نعيم. انظر «لسان الميزان» لابن حجر (٨/ ٥٧٤)، وقال السخاوي في «الأجوبة المرضية» (رقم ٣٢١): «إسناده ضعيفٌ، ولكن لَه شواهد...» فذكرها.

الطَّلَبَ، ولوْ كانَ منافيًا لمقامِ التَّوكُّلِ على الله لما أباحَه؛ لأنَّه لم يقُلْ لا تَطْلُبوا، إنَّما قال: (أجْمِلوا في الطَّلَبِ). فكأنَّه قالَ: إذا طلَبْتُم فاطْلُبوا مُجملينَ، أيْ: كونُوا معَ الله في الطَّلبِ متأدِّبينَ وإليه مفوِّضينَ. فقد أباحَ صَلواتُ الله عليهِ وسَلامُهُ وجُودَ الطَّلبِ، والطَّلبُ منَ الأسبَابِ.

وقدْ سَبقَ قولُه ﷺ: (أحَلُّ ما أكَلَ المرءُ منْ كسْبِ يَمينِه)[1]، إلى غَيرِ ذلكَ منَ الأحَاديثِ الدَّالَّةِ على جَوازِ الأسْبابِ، بلْ على الحثِّ عليْهَا، والنَّدْبِ إليْهَا.

***

فوائد الأسباب

وفي الأسْبابِ فَوائدُ، منْهَا:

الفائدةُ الأولَى: أنَّ الحقَّ تَعَالى عَلِم ضَعْفَ قلوبِ العِبادِ وقُصُورَهُم عنْ مُشَاهدةِ القِسْمةِ وعَجْزَهُم عن صِدْقِ الثِّقةِ، فأباحَ لَهُم الأسْبابَ إسْنادًا لقُلوبِهم، وتثْبيتًا لنُفُوسِهِمْ، فكانَ ذلِكَ مِنْ فضْلِه عَليهِمْ.

الفَائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ في الأسْبابِ صِيانةً للوُجُوهِ عن الابْتذالِ بالسُّؤالِ، وحفْظًا لبهْجَةِ الإيمانِ أنْ تزولَ بالطَّلَبِ منَ الخلْقِ؛ فما يُعْطيكَ الله منَ الأسْبابِ فلا منَّةَ فيه لمخْلُوقٍ عليكَ؛ إذْ لا يَمُنُّ علَيْكَ أحدٌ إن اشْتَرى منْكَ أو اسْتَأجرَكَ على عَمَلِ شيءٍ؛ فإنَّه في حَظِّه سَعَى، ونفْعَ نفْسِه قَصَدَ، فالسَّبَبُ أخذٌ منْهُ بغيرِ منَّةٍ.

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص ١١٠.

الفائدةُ الثَّالثةُ: أنّ في شُغْلِ العِبَادِ بأسْبابهم شُغْلًا عَنْ معصيتِه، والتفَرُّغ إلى مخالَفتِه. ألا تَراهُمْ إذا تعطَّلتْ أسْبابُهُم في أعْيَادِهم وغَيْرِهَا، كَيْفَ يَتفرَّغُ أهْلُ الغَفْلةِ لمخَالفَةِ الله تعالى، وينْهَمِكُونَ في معْصيةِ الله؟!

فكان شُغْلَهُم بالأسْبابِ رحمةً منَ الله تَعَالى عَلَيْهِمْ.

الفَائدةُ الرَّابعةُ: أنَّ في الأسْبابِ والقِيامِ بها رحمةً بالمتَجرِّدِين، ومِنَّةً مِنَ الله على المتوجِّهِينَ لطَاعَتِه والمتفرِّغين لها، ولولا قيامُ أهْلِ الأسْبابِ بها فكَيفَ كانَ يَصِحُّ لصَاحبِ الخَلْوةِ خَلْوتُه، وَلِصَاحِبِ المجَاهَدة مجاهَدتُه، فجَعَلَ الحقُّ تَعَالى الأسْبابَ كالخِدْمةِ للمتوجِّهِينَ إليه، والمقْبلِينَ عليه.

الفَائدةُ الخامسَةُ: أنَّ الحقَّ تَعَالى أرادَ مِنَ المؤْمِنينَ أنْ يتآلفُوا لقَولِه تعالى: ﴿إنّما المؤمِنُونَ إخْوةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فكانتِ الأسْبابُ سَببًا لتَعارُفِهم، ومُوجِبةً لتوادُدِهِم، ولا يُنكِرُ الأسْبَابَ إلا جاهلٌ أو عبدٌ عنِ الله غَافلٌ.

ولمْ يَبلُغْنا أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا دعَا النَّاسَ إلى الله أمرَهُم بالخُروجِ عنْ أسْبابِهم؛ ولكنْ أقرَّهُم على ما يَرْضَاهُ الله منْها، ودَعَاهُم إلى وجُوهِ الهدَى، والقُرآنُ والسُّنَّةُ محشُوَّانِ بإثْباتِ الأسْبابِ. ولقدْ أحْسَنَ مَنْ قالَ[1]:

ألم تَرَ أنَّ الله قَــــالَ لمريَم * إليكَ فهُزِّي الجذْعَ يسَّاقَطُ الرُّطَبْ
ولو شَاءَ أدْنى الجذْعَ مِنْ غَيرِ هزِّهَا * إليهَا ولكِنْ كلُّ شَيءٍ لهُ سَبَبْ

(١) البندنيجي على ما في «الدر الفريد».

إشارةً إلى قولِه تَعالى: ﴿وهُزِّي إلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيكِ رُطَبًا جَنِيًا﴾ [مريم: ٢٥].

وظَاهرَ -صَلواتُ الله عليه- بينَ دِرعَين يومَ أُحُدٍ[١]، وأكلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القُثَّاءَ بالرُّطَبِ، وقالَ: (هَذَا يَدْفَعُ ضَرَرَ هَذَا)[٢]، وذَلكَ كثيرٌ.

وفي قولِه ﷺ: (تغْدُو خِمَاصًا وتَروحُ بِطانًا)[٣] إثْباتُ الأسْبابِ أيضًا؛ لأنَّ غُدوَّهَا ورَوَاحَها سَبَبٌ أُقِيمَتْ فيهِ، فهُوَ كغُدوِّ الآدَمِيِّينَ إلى مَكَاسِبِهِمْ، ورَواحِهِم إليهَا.

والقولُ الفَصْلُ في ذلِكَ: أنَّه لا بُدَّ لَكَ مِنَ الأسْبابِ وجُودًا، ولا بدَّ لكَ مِنَ الغَيْبَةِ عنْها شُهودًا، فأثْبِتْها منْ حيثُ أثْبَتَهَا بِحِكْمتِه، ولا تَستَنِدْ إليهَا لِعلْمِكَ بأحَدِيَّتِه.

***

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٧٢٢)، وأبو داود (٢٥٩٠)، والترمذيُّ في «الشمائل» (١٠٤)، والنَّسائيُّ في «الكبرى» (٨٥٢٩)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، وغيرهم من حديث السائب بن يزيد.
ومعنى «ظاهر بين درعين»: أي جمع ولبس إحداهما فوق الأخرى، وكأنه من التظاهر والتعاون والتساعد.

(٢) قوله: «يأكل القثاء بالرطب» متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٤٤٠)، ومسلمٌ (٢٠٤٣)، وغيرهما من حديث عبدالله بن جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، دون قوله: «هذا يَدفعُ ضَررَ هَذا».
وأخرج أبو داود (٣٨٣٦)، وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله ﷺ يأكلُ البطيخ بالرُّطَب، فيقول: «نكسرُ حَرَّ هذا ببرد هذا، وبَرْدَ هذا بحَرِّ هذا».

(٣) تقدَّم تخريجه. انظر ص١٧٤.

فما توجَّه إنْسانٌ إلى وجْهَتين إلَّا ويقعُ الخلَلُ في إحْدَى الوجْهَتَيْن، والقيامُ بالأوْجُه كُلِّها في الوقتِ الواحدِ منْ غيرِ أنْ يَقعَ في شيءٍ منْهَا خَلَلٌ، إنَّما ذلكَ منْ شَأنِ الإلهيَّة، ولذلِكَ قالَ سُبْحانَه وتَعالى: ﴿وهُوَ الَّذي في السَّماءِ إلهٌ وفي الأرْضِ إله﴾ [الزخرف: ٨٤]، فأفادَ بذلِكَ أنَّه متَوجِّهٌ لأهْلِ السَّماءِ ولأهْلِ الأرْضِ، لا يشْغَلُه توجُّهُه لأهْلِ السَّماءِ عنْ توجُّهِه لأهْلِ الأرْضِ، ولا توجُّهُهُ لأهْلِ الأرْضِ عنْ توجُّهِهِ لأهْلِ السَّماءِ، ولا شَيءٌ عنْ شيءٍ.

فلذلِكَ كرَّرَ سُبْحانَه وتَعالى ذِكْرَ الإلهيَّة في الآيةِ الكَريمةِ، ولوْ لم يكرِّرْهَا لم يُفَدْ ذلِكَ مِنْ هَذَا اللَّفظِ، بلْ ممَّا يُوجِبُه ما هُو الحقُّ عليه سُبحَانه.

فتَبيَّنَ لكَ منْ هذا أنَّ منْ طلبَ الرِّزْقَ مُكبًّا عليْه، مُشْتَغلًا عنِ الله تَعالى به، فليْس مُجْمِلًا في الطَّلبِ، ومَنْ طلَبَه علَى غيرِ ذلِكَ فهُوَ مُجْمِلٌ.

وجهٌ ثانٍ وهُوَ: أنَّ الإجمالَ في الطَّلبِ أنْ يَطْلُبَ مِنَ الله تَعالى، ولا يُعيِّنَ قَدْرًا ولا سَببًا ولَا وقتًا، فيرزُقَه الحقُّ ما شَاءَ، كيفَ شَاءَ، في أيِّ وقتٍ شَاءَ، وذلِكَ مِنْ حُسْنِ الأدَبِ في الطَّلبِ.

ومَنْ طلَبَ وعيَّن قدْرًا، أو سَبَبًا أو وقتًا، فقَدْ تحكَّمَ على ربِّه؛ وأحاطَتْ الغَفْلةُ بقَلْبه.

ويُحكَى عنْ بَعْضِهِمْ، أنَّه كانَ يقُولُ: «وَدِدْتُ لو أنِّي تركْتُ الأسْبابَ وأُعْطِيتُ كُلَّ يوم رغِيفَينِ»، يريدُ بذَلِكَ أنْ يَسْتريحَ مِنْ تَعَبِ الأسْبابِ.

قال: «فسُجِنْتُ ثُمَّ كُنْتُ في السِّجْنِ يُؤتَى لي كُلَّ يوم برغيفَيْن، فطالَ ذلكَ عليَّ حتَّى ضَجرْتُ، ففَكَّرتُ يومًا في أمْري. فقيلَ لي: إنَّكَ طَلَبْتَ منَّا كلَّ يوم رَغيفَين ولم تَطْلُبْ منَّا العَافيةَ، فأعْطَيناكَ ما طَلَبْتَ. فاسْتَغْفرْتُ الله مِنْ ذلِكَ، ورَجَعْتُ إلى الله فإذَا بباب السِّجْنِ يقرَعُ، فتخَلَّصْتُ وخرَجْتُ».

فتأدَّبْ بهذا أيُّها المؤمنُ، ولا تَطلبْ أنْ يخرجَكَ منْ أمْرٍ؛ ويُدْخلَكَ فيما سِواهُ، إذَا كانَ ما أنتَ فيهِ ممَّا يوافِقُ لسَانَ العلْم، فإنَّ ذلِكَ منْ سُوءِ الأدَبِ مَعَ الله. فاصْبرْ لئلَّا تَطْلُبَ الخرُوجَ بنَفْسِكَ، فتُعطَى ما طلَبْتَ وتُمنَعَ الرَّاحةَ فيه، فرُبَّ تاركٍ سَبَبًا، وداخِلٍ في غيرِهِ ليجدَ الثَّرْوةَ والرَّاحةَ، فأُتْعِبَ وقُوبِلَ بوجُودِ التَّعسُّرِ عقُوبةً لوجُودِ الاخْتِيارِ.

وفي كلام كتَبْنَاهُ في غير هذَا الكتَاب: «طلبُكَ للتَّجريدِ مَعَ إقامةِ الله إيَّاكَ في الأسْبابِ مِنَ الشَّهْوةِ الخَفيَّةِ، وطلَبُكَ الأسْبابَ مَعَ إقامَةِ الله إيَّاكَ في التَّجْريدِ، انْحطَاطٌ عَنِ الهمَّةِ العَليَّةِ»[1].

فافهَمْ رَحمَكَ الله أنَّ مِنْ شأنِ هذا العدُوِّ أنْ يأتيَكَ فيما أنتَ فيه ممَّا أقامَكَ الله فيه، فيُحقِّرَه عنْدكَ لتَطْلُبَ غيرَ ما أقامَكَ الله فيه، فيَتَشوَّشَ قَلبُكَ، ويتكدَّرَ وقتُكَ. وذلكَ أنَّه يأتي للمُتَسبِّبينَ فيقولُ: «لو تَركتُم الأسْبابَ وتجرَّدْتُم، لأشْرَقَتْ لكُم الأنوارُ، ولصَفَتْ منكُم القُلوبُ والأسْرارُ»، قائلًا: «وكذلكَ صَنَعَ فُلانٌ وفُلانٌ».

---

(١) انظر «الحكم العطائية»، الحكمة رقم ٢.

ويكُونُ هذا العَبْدُ ليسَ مقْصُودًا بالتَّجرُّدِ، ولا طَاقةَ لَهُ به، وإنَّما صَلاحُه في الأسْبابِ، فيترْكُهَا فيتَزلْزَلُ إيمانُه، ويذْهبُ إيقَانُه، ويَتوجَّهُ إلى الطَّلب من الخَلْقِ، وإلى الاهْتمامِ بأمْرِ الرِّزْقِ، فيُرْمَى في بَحْرِ القَطِيعة.

وذلِكَ قَصْدُ العَدُوُّ منه، لأنَّهُ إنَّما يأتيكَ في صُورَةِ ناصِحٍ؛ إذْ لو أتَاكَ في غَيرِها لم تَقْبلْ منه، كَما أتى آدَمَ وحوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في صُورَةِ ناصِحٍ: ﴿وقَالَ مَا نَهاكُما ربُّكُما عَنْ هَذِه الشَّجَرَةِ إلَّا أنْ تكُونَا مَلَكَيْنِ أو تكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] كَما تَقَدَّمَ بيَانُه، ﴿وقاسَمَهُما إنِّي لكُما لمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١] كما تقدَّمَ بيانُه.

وكذلِكَ يأتي للمُتجَرِّدينَ ويقولُ لهمْ: «إلى مَتَى تَتْرُكُون الأسْبابَ؟ ألم تعلَمُوا أنَّ تركَ الأسْبابِ تتطَلَّعُ معَه القُلوبُ إلى مَا في أيْدِي النَّاسِ، ويَفْتحُ بابَ الطَّمَعِ، ولا يُمكنُكَ الإسْعافُ ولا الإيثارُ، ولا القِيامُ بالحقُوقِ؟ وعِوَضَ ما تكُونُ مُنْتظِرًا ما يُفتَحُ به عليْكَ مِنَ الخلْقِ، فلَوْ دخَلْتَ في الأسْبابِ بقِيَ غَيرُكَ مُنْتظِرًا مَا يُفتَحُ عليه منْكَ».. إلى غيرِ ذلِكَ.

ويكونُ هذا العَبدُ قد طابَ وقتُه وانْبَسَطَ نُورُهُ، ووجَد الرَّاحَةَ بالانْقِطَاعِ عن الخَلْقِ، فلا يزالُ به حتَّى يعُودَ إلى الأسْبابِ فيُصِيبَهُ كُدْرَتُها، وتغْشَاهُ ظُلْمَتُها، ويعودَ الدَّائمُ في سبَبِه أحْسَنَ حالًا منْهُ؛ لأنَّ ذلكَ ما سَلَكَ طَرِيقًا ثُمَّ رَجَعَ عنها، ولا قَصَدَ مَقْصِدًا ثُمَّ انْعَطَفَ عنه، فافْهَمْ واعْتَصِمْ بالله منه: ﴿ومَنْ يَعْتَصِمْ بالله فقَدْ هُدِيَ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وإنَّما قَصَدَ الشَّيطَانُ بذلِكَ أنْ يَمْنَعَ العِبادَ مِنَ الرِّضَا عنِ الله فيما هُمْ فيه، وأنْ يُخرِجَهُمْ عمَّا اخْتارَهُ الله تَعَالى لهُم إلى مُختارِهِم لأَنْفُسِهِمْ.

وما أدْخَلَكَ الله تَعَالى فيهِ، تَولَّى إعانتَكَ عليه، ومَا دَخَلْتَ فيه بنَفْسِكَ وكَلَكَ إليه، ﴿وقُل رَّبِّ أدْخِلْني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَلْ لِي مِنْ لدُنْكَ سُلطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، فالمُدْخَلُ الصِّدْقُ: أنْ تدخُلَ به لا بنَفْسِكَ، والمُخْرَجُ الصِّدْقُ أيضًا كذلِكَ، فافْهَمْ!

والَّذي يَقْتَضِيه الحقُّ مِنْكَ أنْ تكْمُنَ حيْثُ أقامَكَ، حتَّى يكُونَ الحقُّ تَعالى هُوَ الَّذي يتولَّى إخْراجَكَ، كما تولَّى إدْخالَكَ، وليسَ الشَّأنُ أنْ تَتْرُكَ السَّبَبَ، إنَّما الشَّأنُ أنْ يتْرُكَكَ السَّبَبُ. قال بعضُهُم: «تَركْتُ السَّببَ كَذا وكَذا مرةً فعُدْتُ إليه، ثُمَّ تَركَنِي السَّببُ فلَمْ أعُدْ إليه».

ودخَلْتُ على الشَّيخِ أبي العبَّاسِ المرْسيِّ، وفي نَفْسِي العَزْمُ على التَّجْريدِ قائلًا في نفسي: إنَّ الوصُولَ إلى الله تَعَالى على هذِه الحالَةِ بَعِيدٌ مِنَ الاشْتِغالِ بالعِلْمِ الظَّاهِرِ، ووجُودِ المخَالطَةِ للنَّاسِ.

فَقالَ لِيَ مِنْ غَيرِ أنْ أسْألَه: «صَحِبَنِي إنْسَانٌ مُشْتَغِلٌ بالعُلوم الظَّاهِرَةِ وهوَ مُتَصدِّرٌ فيها فذاقَ مِنْ هذِه الطَّريقِ شيئًا فجاءَ إليَّ، فَقَالَ: يا سيِّدي، أخْرُجُ عمَّا أنا فيه وأتَفرَّغُ بصُحْبَتكَ؟ فقُلْتُ له: ليسَ الشَّأنُ ذا، ولكنِ امْكُثْ فيما أنتَ فيه، ومَا قَسَمَ الله لكَ على أيدِينا فهُوَ إليْكَ واصِلٌ».

ثُمَّ قالَ الشَّيخُ ونَظَرَ إليَّ: «هكَذا شَأنُ الصِّدِّيقِينَ لا يخْرجُونَ عَنْ شيءٍ حتَّى يكونَ الحقُّ تعالى هُوَ الَّذي يتولَّى إخْراجَهُم».

فخَرجْتُ مِنْ عنْدِه وقدْ غَسَلَ الله تَعَالى مِنْ قَلْبي تلْكَ الخَواطِرَ ووجدْتُ الرَّاحةَ بالتَّسْليم إلى الله، ولكنَّهُم كما قالَ رسُولُ الله ﷺ (هُمُ القَوْمُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)[1].

وجهٌ ثالثٌ: وقد يكُونُ الإجمالُ في الطَّلبِ أنْ تطْلُبَ مِنَ الله تَعالى، ويكُونُ قَصْدُكَ مُنَاجَاتَه لا عينَ ما طلبْتَ، وإنَّما يكُونُ الطَّلبُ توسُّلًا لها.

ولذَلِكَ قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رحِمه الله تَعَالى: «لا يكُنْ همُّك في دعَائِكَ الظَّفرَ بقَضَاءِ حَاجتِكَ، فتكُونَ محجُوبًا عنْ ربِّكَ، ولْتكُنْ همَّتُكَ مناجاةَ مولَاكَ».

وقيلَ: إنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كانَ يطُوفُ في بَني إسْرائِيلَ ويَقُولُ «مَنْ يُحمِّلُني رسَالةً إلى ربِّي؟»[2]، وذلكَ لِتطُولَ مُناجَاتُه معَ الله تَعَالى.

وجْهٌ رَابعٌ: وقدْ يكُونُ الإجمالُ في الطَّلَبِ، أنْ تَطْلُبَ وأنتَ تَشْهَدُ أنَّكَ مَطْلُوبٌ بما قُسِمَ لَكَ، وأنَّكَ مقْصُودٌ به، وليسَ طلبُكَ مُوصِّلًا إليه، فيكُونُ طَلبُك وأنتَ غَريقٌ في بحْرِ العَجْزِ مغْمُوسٌ في وجُودِ الفَاقَةِ.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٦٤٠٨)، ومسلمٌ (٢٦٨٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ذكره القسطلانيُّ في «المواهب اللدنية» (٢/ ٥٠٢) من كلام بعض أهل الإشارات.

وقدْ يكُونُ الإجْمالُ في الطَّلبِ أنْ لا تَطْلُبَ بِحَظِّ البشَريَّةِ، ولكِنْ لإظْهارِ العُبوديَّةِ، كما حُكِيَ أنَّ سِمْنُونَ المحبَّ -رحِمَه الله- كانَ يقُولُ:

وليسَ لي في سِواكَ حَظٌّ * فكَيفَما شِئْتَ فاخْتَبِرْني

فابتُلِي بعلَّةِ الأسْرِ وهُوَ احْتِباسُ البَوْلِ فصَبرَ وتَجلَّدَ، فطاوَلَهُ ذلِكَ فصَبرَ وتَجَلَّدَ، إلى أنْ جاءَهُ بعْضُ أصْحابه فقَالَ: «يا أسْتاذِي: سَمِعتُك البَارِحَةَ وأنتَ تَطْلُبُ منَ الله الشِّفاءَ والعَافيةَ»، ولم يكُنْ هُوَ طَلَبَ، ثُمَّ جاءَ ثانٍ، ثُمَّ جاءَ ثالثٌ، ثُمَّ جاءَ رابعٌ.

فعَلِمَ أنَّ مُرادَ الحقِّ منْهُ إظهارُ الحاجَةِ والفَاقةِ، فسَألَ الله الشِّفاءَ، ثُمَّ صارَ يدُورُ على صِبْيانِ المكاتِبِ ويقُولُ: «ادعُوا لعَمِّكُم الكَذَّابِ».

وجْهٌ خامسٌ: وقدْ يكُونُ الإجْمالُ في الطَّلَبِ أنْ تطلُبَ منَ الله ما يكْفِيكَ، ولا تَطْلُبُ منهُ مَا يُطْغِيكَ، غيرَ مُتطَلِّعٍ إلى ما سِوى الكِفَايةِ بالشَّرَهِ، ولا مُنْبَسِطًا إليهِ بالرَّغْبَةِ، وقدْ عَلَّمَنا ذلِكَ رسولُ الله ﷺ إذْ قالَ: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ قُوتَ آلِ مُحمَّدٍ كَفافًا)[١].

والطَّالبُ لما زادَ عَلى الكِفَايَةِ مَلُومٌ وطَالِبُ الكِفَايةِ غيرُ مَلُومٍ بِذَلِكَ. جاءَ في الحدِيثِ عنْهُ ﷺ: (ولا تُلامُ عَلَى كَفافٍ)[٢].

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤٦٠)، ومسلمٌ (١٠٥٥)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «اللهمَّ اجعل رزق آل محمَّدٍ قوتًا»، وفي رواية عند مسلم: «كفافًا».

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٠٣٦)، وغيره من حديث أبي أمامة مرفوعًا.

ويكْفِيكَ في ذلِكَ مَا قالَ رسُولُ الله لثَعْلَبَةَ بن حَاطِب، لما قالَ: يا رسُول الله، ادْعُ الله أنْ يرزُقَني مالًا، فقالَ رسُول الله ﷺ: (يا ثَعْلبَةُ بنُ حَاطِب، قليلٌ تؤدِّي شكْرَهُ، خَيرٌ منْ كثِيرٍ لا تُطِيقُهُ)[1]. فكَرَّرَ عليه ثَعْلَبَةُ، فأعَادَ ﷺ مَا قَالَ أوَّلًا: (قليلٌ تؤَدِّي شُكْرَه، خَيرٌ منْ كثِيرٍ لا تُطِيقُه).

فما زالَ إلى أنْ دعَا له رسُول الله ﷺ بما اخْتَارَ لنَفْسه، فكانَ عاقبةُ اخْتِياره لنَفْسه، ومخالفته لمخْتَارِ رسُول الله ﷺ أنْ كَثُرَ مالُه حتَّى تَعطَّلَ عنْ بَعْضِ الصَّلواتِ أنْ يُصَلِّيَها خلفَ رسُول الله ﷺ إلَّا صَلاةَ الجمُعَة؛ ثُمَّ كثُرَتْ أغْنامُه ومَواشِيه، حتَّى لم يُمْكِنْه صلاةُ الجمُعةِ أيضًا، ثُمَّ جاءَهُ مُصدِّقُ[2] رسُولِ الله ﷺ يأخُذُ منه الزَّكاةَ، فقالَ: مَا أراهَا إلَّا جِزْيَةً، أوْ أخْتَ الجِزْيةِ، وامْتَنعَ مِنْ دفْعِ الزَّكَاةِ، وقِصَّتُه مَشْهورةٌ».

فأنْزَلَ الله تَعَالى فيه: ﴿ومِنْهُم مَّنْ عاهَدَ الله لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِه، لنَصَّدَّقَنَّ ولنكُونَنَّ مِنَ الصَّالحينَ * فلمَّا آتاهُم مِّنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا به وتَوَلَّوْا وهُمْ مُّعْرِضُونَ * فأعْقَبَهُم نِفاقًا في قُلوبِهِمْ إلى يَومِ يلْقَوْنَه بما أخْلَفُوا الله مَا وَعَدُوهُ وبما كَانوا يكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

---

(١) أخرجه مطوَّلًا الطبرانيُّ في «الكبير» (٨/ ٢١٨)، وابن جرير في «التفسير» (١١/ ٥٧٨)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٤٠٤)، والبيهقيُّ في «الشعب» (٤٠٤٨)، وفي «الدلائل» (٥/ ٢٨٩)، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ الله عَنْهُ.
وضعَّفه عددٌ من الحفَّاظ منهم: البيهقيُّ، والعراقيُّ، والهيثميُّ، وابنُ حجرٍ وغيرهم، وأُفرد بالتصنيف، والله أعلم.

(٢) الذي يأخذ صدقات الإبل والغنم. [لسان العرب، الصحاح في اللغة]

وجْهٌ سَادِسٌ: وقدْ يكُونُ الإجمالُ في الطَّلب [أنْ تَطْلُبَ مِن اللهِ ما فيه رِضاه، وغيرُ الإجمالِ] أنْ يطْلُبَ العبْدُ حُظُوظَ دُنْياهُ.

قالَ تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يقُولُ ربَّنا آتِنا في الدُّنْيا ومَالَه في الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ * ومِنْهُم مَّنْ يقُول ربَّنا آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنا عذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠١].

وجْهٌ سابِعٌ: وقَد يكُونُ الإجمالُ في الطَّلَبِ أنْ يكُونَ طلبُكَ غيرَ شَاكٍّ في القِسْمَةِ ولا تاركًا حِفْظَ الحرْمَةِ.

وجْهٌ ثامِنٌ: وقَدْ يكُونُ الإجمالُ في الطَّلبِ، أنْ تَطْلُبَ ولا تَسْتَعْجِلِ الإجابةَ، وغيرُ الإجْمال أنْ تَسْتَعْجِلَهَا وقدْ نهى النَّبيُّ ﷺ عنْ ذلِكَ بقَولِه: (يُسْتجابُ لأحَدِكُمْ ما لم يقُلْ دَعوتُ فلَمْ يُسْتَجَبْ لي)(١).

وقدْ دعَا مُوسَى وهارُونُ عليهما السلام على فِرْعَونَ فيما حَكاهُ الله تَعَالى عنْهُما بقَولِه: ﴿ربَّنا اطْمِسْ على أمْوالِهِمْ واشْدُدْ على قُلُوبِهِمْ فلا يؤْمِنُوا حتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأليمَ﴾ [يونس: ٨٨]، فقالَ سُبْحَانه وتَعَالى: ﴿قدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكما فاسْتَقِيما ولَا تَتَّبِعَانِّ سَبيلَ الذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]. وكانَ بَيْنَ قولِه تَعَالى لهما: ﴿قدْ أُجِيبَتْ دعْوتُكما﴾ وإهْلاكِ فرْعَونَ أربعُونَ عامًا(٢).

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٣٤٠)، ومسلمٌ (٢٧٣٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «يُستجابُ لأحدكم ما لم يَعْجَل، يقول: دعوتُ فلم يُستجَبْ لي».
(٢) انظر «الدر المنثور» للسيوطي (٤/ ٣٨٥).

قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحمه الله في قولِه سُبحَانَه وتَعَالى ﴿فاسْتَقِيما﴾: «أيْ: عَلَى عَدَمِ استعْجَالِ مَا طَلَبْتُما»، ﴿ولا تَتَّبِعانِّ سَبيلَ الَّذينَ لا يَعْلَمُونَ﴾، قالَ: «هُمُ المسْتَعْجِلُونَ الإجابةَ».

وجهٌ تاسِعٌ: وقدْ يكُونُ الإجمالُ في الطَّلبِ أنْ يَطْلُبَ وهُو شاكرٌ لله تَعَالى إنْ أُعْطِيَ، وشاهِدٌ حُسْنَ اخْتِيارِ ربِّه إذا مُنِعَ، فرُبَّ طالبٍ لا يشْكُرُ إنْ أُعْطِيَ، ولا يشْهَدُ حُسْنَ اخْتِيارِ ربِّه في المنْعِ، بلْ طالبٌ من الله جازمٌ أنَّ المصْلحةَ لَه، أنْ يُعْطَى!!

ومِنْ أينَ لهذا العَبدِ الجاهِلِ أنْ يحكُمَ على عِلْمِ الله، وأنْ يَعْلَمَ ما فيه غَيْبُ الله؟! وكفَى بالعَبدِ جَهْلًا أنْ يتخَيَّرَ عَلى مَوْلاهُ، بَلْ إذا سَألتَهُ فسَلْهُ مفوِّضًا إليه غيْرَ مُدبِّرٍ معَهُ ولا مُختارٍ عليه: ﴿وربُّكَ يخلُقُ ما يشَاءُ ويختَارُ ما كانَ لهمُ الخِيرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

هَذا فيما أُبْهِمَ أمْرُه، والبيانُ في ذلِكَ أنَّ المدْعُوَّ به على ثلاثَةِ أقْسَام:

١- ما هُوَ خيرٌ قَطْعًا، فاطْلُبْه مِنَ الله تَعَالى منْ غيرِ اسْتِثْناءٍ، كالإيمانِ، وجَميعِ الطَّاعاتِ.

٢- وما هُوَ شَرٌّ قَطْعًا، فاطلُبْ من الله السَّلامةَ منه مِنْ غيرِ اسْتِثْناءٍ كالكُفْرِ والمعْصيةِ.

٣- وما هُوَ مُبْهَمُ الأمرِ، كالغِنَى، والعِزِّ، والرِّفْعة، فاطْلُبْ ذلِكَ منَ الله تَعَالى قائلًا: «إنْ عَلِمْتَ ذلِكَ خَيْرًا لي»، كذلِكَ سَمِعْتُه منَ الشَّيخِ رَحمه الله تعالى.

وَجْهٌ عاشِرٌ: وقدْ يكُونُ الإجمالُ في الطَّلب أنْ يكُونُوا في الطَّلبِ على سَابقِ قِسْمَته مُعْتَمِدِينَ، ولا يكُونُوا إلى طَلَبِهِم مُسْتَنِدِينَ.

وقد يكُونُ الإجمالُ في الطَّلبِ: أنْ يطْلُبُوا وهُم لعَدَمِ الاسْتِحقَاقِ شاهِدُونَ، فأولئِكَ حَرِيٌّ بِهِمْ أنْ يسْتَوْجِبُوا مِنَّةَ ربِّ العَالمِينَ.

قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحِمَه الله: «ما طَلَبْتُ شَيئًا إلَّا وقَدَّمْتُ إسَاءَتِي أمَامِي». يُرِيدُ -رَحِمَه الله- حَتَّى لا يَطْلُبَ مِنَ الله بوصْفٍ يَسْتَحِقُّ العَطَاءَ، بلْ لا يكُونُ طلبُه وجُودَ فَضْلِه إلا بفَضْلِه.

***

فهَذهِ عشْرةُ أوْجُهٍ في الإجْمال في الطَّلَب، وليسَ القَصْدُ بها الحصْرَ؛ إذِ الأمْرُ أوسَعُ مِنْ ذلِكَ، ولَكِنْ بِحَسَبِ ما ناوَلَ الغَيْبُ، وأنعَمَ بِهِ المولى سُبْحانَه وتَعَالى، وهُوَ كلامُ صَاحِبِ الأنوارِ المحِيطةِ.

فما يأخُذُ الآخِذُ منه إلَّا على حَسَبِ نُورِهِ، ولا يأخُذُ مِنْ جَواهِرِ بَحْرِه إلَّا على قَدْرِ قُوَّةِ غَوْصِهِ، وكُلٌّ يَفْهَمُ على حَسَبِ المقام الَّذي أُقِيمَ فِيه: ﴿يُسْقَى بماءٍ واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، ومَا لم يأخُذُوه أكثَرُ ممَّا أخَذُوا، واسْمَعْ قولَه عليْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: (وأُوتِيتَ جَوَامعَ الكَلِمِ، واخْتُصِرَ لِي الكَلَامُ اخْتِصَارًا)[1].

(١) أخرجه بهذا اللفظ عبدالرزاق في «المصنف» (١٠١٦٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٦٧)، وغيرهما من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرجه الدارقطني في سننه (٢٧٥ ...

فلَوْ عبَّر العُلماءُ بالله أبدَ الآبادِ، عنْ أسْرارِ الكَلِمَةِ الوَاحِدةِ مِنْ كَلامِه، لم يُحيطُوا بِها عِلْمًا، ولم يَقدِروها فَهْمَهَا، حتَّى قالَ بَعْضُهُم: عَمِلْتُ بِهذا الحديث سَبْعِينَ عامًا ومَا فَرُغْتُ منْه، وهُو قَولُه ﷺ: (مِنْ حُسْنِ إسْلام المرْءِ تَركُه مَا لَا يَعْنِيهِ)(١).

وصَدَقَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ولوْ مكَثَ عُمْرَ الدُّنْيا أجْمَعَ، وأبدَ الآبادِ، لم يفْرُغْ مِنْ حُقُوقِ هَذا الحدِيثِ، ومَا أُودِعَ فيه مِنْ غَرَائِبِ العُلومِ وأسْرارِ الفُهُوم.

***

=وقوله: «وأُوتِيتَ جَوَامعَ الكَلِم» متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٢٩٧٧)، ومسلمٌ، واللفظ له (٥٢٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أحمد (١٧٣٧)، والترمذيُّ (٢٤٧٠)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وابن حِبَّان (٢٢٩)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وهو من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام كما قال بعض العلماء:

عمدة الدين عندنا كلمات * أربع من كلام خير البرية

اتق الله، وازهد، ودع مـــا * ليس يعنيك، واعملن بنية

[التوكُّلُ على اللهِ تعالى]

انعطاف: انظُرْ إلى قَوْلِه ﷺ: (لو تَوَكَّلْتُمْ على الله حقَّ تَوكُّلِه، لرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطَّيرَ، تَغْدُو خِماصًا وتَروحُ بطانًا)[1] تَراهُ يدُلُّ على الأمرِ بالتَّوكُّلِ على الله تَعالى لَا عَلى نَفْيِ الأسْبابِ، بلْ يدُلُّ على إثْباتِها لقَولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (تغْدُو خِماصًا وتَرُوحُ بِطانًا).

فقدْ أثْبتَ لها غُدُوَّها ورَوَاحَهَا، وهُو سَبَبُها ونَفَى عَنْهَا الادِّخَارَ، فكأنَّه ﷺ يقُولُ: لوْ تَوكَّلْتُم على الله حَقَّ توكُّلِه، لما ادَّخَرْتُم ولأغْناكُم التَّوكُّلُ على الله عنِ الادِّخارِ مَعَه، ورُزِقتُم كما يُرْزَقُ الطَّيرُ، تُؤتَى برزْقِ يومِهَا، ولا تدَّخِرُ لغَدِهَا، ثِقَةً مِنْها، بأنَّ الله تَعالى لا يضَيِّعُها، فأنتُم أيُّها المؤْمِنُونَ أوْلى بذَلِكَ. فأفَادَ ﷺ: أنَّ الادِّخَارَ إنَّما هُوَ مِنْ ضَعْفِ اليقِينِ.

فإنْ قُلْتَ: أكُلُّ ادِّخارٍ هَذا حُكْمُهُ، أوْ هُوَ مُخْتَلِفُ الحال؟! فاعلَمْ أنَّ الادِّخَارَ على ثَلاثَةِ أقْسامٍ: ادِّخارُ الظَّالمينَ، وادِّخَارُ المقْتَصِدِينَ، وادِّخَارُ السَّابِقِينَ.

أقسام الادخار

فأمَّا القِسْمُ الأوَّلُ: فَهُمُ المدَّخِرُونَ بُخْلًا واسْتِكْثَارًا، المُمْسِكُونَ مُباهَاةً وافْتِخارًا.

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص١٧٤.

فقَدِ اسْتَحْكَمَتِ الغَفْلَةُ على قلوبِهِم، واسْتَولى الشَّرَهُ على نفُوسِهِم، فهُمْ لا تَفْرُغُ مِنَ الدُّنيا نَهْمَتُهُم؛ ولا تَتوَجَّه إلى غَيرِها هِمَّتُهُم، الثَّابتُ فقْرُهُم وإنْ كانُوا أغْنياءَ، الظَّاهرُ ذُلُّهُمْ وإنْ كَانُوا أعِزَّاءَ، فَهُمْ مِنَ الدُّنْيا لا يِشْبَعُونَ، وعَنْ طَلَبِهَا لا يَفْتُرُونَ.

تَلاعَبَتْ بِهِمُ الأسْبابُ، وتفرَّقَتْ بِهِمُ الأرْبابُ، أُولئِكَ كالأنْعام بلْ هُمْ أضَلُّ، أُولئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ.

لم يبْقَ في قُلُوبِهِمْ مُتَّسَعٌ لِوَعْيِ الحِكْمَةِ واسْتِماعِ الموعَظَةِ، فقَلَّ أنْ تُرْفَعَ أعمالُهم، أوْ تُزَكَّى أحْوالُهم ؛لأنَّ خَوفَ الفَقْرِ قدْ سَكَنَ قلُوبَهُم، وقدْ قالَ ﷺ: (مَنْ سَكَنَ خَوْفُ الفَقْرِ قلْبَه، قَلَّما يُرْفَعُ لهُ عَمَلٌ)[1].

فيَجِبُ على المؤْمِنِ المعَافى مِمَّا هُمْ فيه داخِلُونَ، والسَّالِمِ مِمَّا هُمْ فيه مُنْصَرِفُونَ، والمتَطَهِّرُ مِمَّا هُمْ به مُتَدَنِّسُونَ، أنْ يحمَدَ الله تَعالى على ما خَصَّهُ به مِنْ أفْضالِه، وأنْعَمَ بِه عليهِ مِنْ نَوالِه، وقُلْ إذَا رأيتَهُمْ: (الحمْدُ لله الَّذي عافَاني مِمَّا ابْتَلاهُمْ به، وفضَّلني عَلى كَثيرٍ مِمَّنْ خلَقَ تَفْضِيلًا)[2].

كَما أنَّكَ إذا رَأيتَ مُصابًا في بَدَنِه، حَمَدْتَ الله تَعالى الَّذي عَافاكَ وشَهدْتَ مَا أنْعَمَ بِهِ عَلَيكَ مَوْلاكَ؛ كذلِكَ يجِبُ عليكَ وأحْرَى أنْ تَشْكُرَ الله إذْ عافَاكَ

(١) لم أجده فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية.

(٢) نصُّ حديثٍ أخرجه الترمذيُّ (٣٤٣٢)، والبزَّار (٩١٠٦)، والبيهقيُّ في «الشعب» (١٠٦٣٤)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وله شاهد من حديث عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مِنْ أَسْبابِ الدُّنْيا والخَوْضِ فِيهَا، وابْتَلى بذاكَ غَيْرَكَ وأنْ لا تحقِرَهُم بلِ اجْعَلْ عِوَضَ احْتِقَارِكَ بِهِمْ رحمتَك بِهِم، وعِوَضَ دُعَائِكَ عَلَيهِمْ دُعَاءَكَ لهمْ؛ واقتَدِ بما فَعَلَ العارِفُ باللهِ مَعْرُوفٌ[1] -رَحِمه الله- فَما فَعَلَه هُوَ عَيْنُ المَعْرُوفِ.

عَبَرَ هُو وأصْحابُه على دِجْلةَ، فرأى أصْحابُهُ سُمارِيَّة بها قَومٌ أهْلُ لَهْو وفُسُوقٍ وطَرَبٍ. فقَالُوا: يا أُسْتاذُ ادْعُ الله عَلَيهِمْ، فرفَعَ يدَيْه وقالَ: «اللَّهُمَّ كَما فَرَّحْتَهُمْ في الدُّنْيا، فرِّحْهُم في الآخِرَةِ». فقالُوا. يا أُسْتاذُ، إنَّما قُلْنا لكَ، ادْعُ عَلَيهِمْ، فقَالَ: «إذَا فرَّحَهُم في الآخِرَةِ تابَ عَلَيهِمْ، ولا يَضُرُّكُم منْ ذلِكَ شَيءٌ»، فالتَصَقَتْ السُّمارِيَّةُ في الوَقْتِ إلى البَرِّ؛ ونزَلَ الرِّجالُ ناحِيةً، والنِّسَاءُ ناحيةً؛ فتَطَهَّرَ هَؤُلاءُ وهَؤُلاءُ، وخَرَجُوا إلى اللهِ تَائبِينَ، فكانَ مِنْهُم زُهَّادٌ وعُبَّادٌ، ببَرَكَةِ دَعْوةِ مَعْرُوفٍ.

فإذا نَظَرْتَ أهْلَ التَّخْلِيطِ والإسَاءةِ، فاعْلَمْ أنَّه محْكُومٌ عَلَيهِمْ بِسَابِقِ العِلْمِ، ونَافِذِ المشِيئَةِ، وإنْ لم تفْعَلْ خِيفَ عَليكَ أنْ تُبْتَلى بِمثْلِ محْنَتِهِم، وأنْ تُقْطَعَ كقَطِيعَتِهِم.

---

(١) الشيخ الإمام أحد الأئمة الأعلام معروف بن فيروز الكرخي نسبة إلى كرخ بغداد، وهو من موالي علي بن موسى الرِّضا، وأسلم على يديه، من أجلّة المشايخ وقدمائهم المذكورين بالورع والفتوّة، صحب داود الطائي، وكان أستاذ سري السقطي، وكان مشهورًا بإجابة الدعوة، وأهل بغداد يستسقون بقبره ويقولون: «قبر معروف ترياق مُجرَّب»، وكان أحمد ابن حنبل يختلف إليه، وأفرد ابن الجوزي مناقبه في مصنَّف، وأخبار معروف ومحاسنه أكثر من أن تعد. تُوفِّي ببغداد سنة ٢٠٠، وقيل: ٢٠١.

انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٣٦٠)، و«طبقات الصوفية» للسلمي (ص ٨١)، و«وفيات الأعيان» (٥/ ٢٣١)، و«طبقات الأولياء» لابن الملقن (١/ ٢٨٠).

واسْمَعْ ما قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ- رَحِمهُ الله-: «أكْرِم المؤْمنينَ وإنْ كانُوا عُصَاةً فاسقِينَ، وأْمُرْهُمْ بالمعْروفِ وانْهَهُمْ عنِ المنْكرِ، واهْجُرْهُمْ رَحْمةً بِهِمْ لا تَعزُّزًا علَيهِم».

وقالَ -رحمةُ الله عَليهِ-: «ولوْ كُشِفَ عَنْ نُورِ المؤمِنِ العَاصي لطَبِقَ ما بَينَ السَّماءِ والأرْضِ؛ فما ظَنُّكَ بنُورِ المؤمِنِ المطِيعِ».

ويَكْفيكَ في تَعْظِيم المؤمنينَ -وإنْ كَانُوا عنِ الله غَافلينَ- قولُ رَبِّ العَالمين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبادِنا فمِنْهُم ظالمٌ لنَفْسِه ومِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ومِنْهُمْ سَابِقٌ بالخَيراتِ بإذْنِ الله﴾ [فاطر: ٣٢].

فانْظُرْ كيْفَ أثْبَتَ لَهُمُ الاصْطِفاءَ معَ وجُودِ ظُلْمِهِم، ولم يجعَلْ ظُلْمَهم مُخْرِجًا لهمْ عنِ اصطِفائيتِهِ، ولا مِنْ ورَاثَتِهِمْ كتابَه، واصْطَفاهُمْ بالإيمانِ وإنْ كانُوا ظَالمينَ بوجُودِ العِصْيانِ، فسُبْحانَ الواسعِ الرَّحْمةِ، والعَظِيمِ المِنَّةِ.

واعلَمْ أنَّه لا بُدَّ في مَمْلَكَتِه مِنْ عِبادٍ، هُمْ نَصِيبُ الحِلْمِ، ومَحلُّ ظهورِ الرَّحمةِ والمغْفرَةِ، ووقُوعِ الشَّفاعةِ؛ وافْهَم ما قالَ رسُول الله ﷺ: (والَّذي نَفْسي بيَدِه لوْ لم تُذْنِبُوا لذَهَبَ الله بكُمْ وجَاءَ بقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ الله فيَغْفِرَ لَهم)[1]، وقَولَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: (شَفَاعَتي لأهْلِ الكبائرِ منْ أمَّتي)[2].

---

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٧٤٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

(٢) أخرجه أحمد (١٣٢٢٢)، وأبو داود (٤٧٣٩)، والترمذيُّ (٢٤٣٥) وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٦٥٢)، وابن حِبَّان (٦٤٦٨)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا. وصحَّحه الترمذيُّ وغيره.

وجاءَ رجُلٌ إلى الشَّيخ أبي الحسَنِ -رحِمه الله- فقال: يا سيِّدي! كانَ البارحةَ بجوارنا مِنَ المنكَراتِ كَيْتَ و كَيتَ، وظهَر مِنْ ذلكَ الرَّجُلِ اسْتغْرابٌ أنْ يكُونَ هَذا، فَقَال: «يا هَذا كأنَّكَ تُريدُ أنْ لا يُعْصَى الله في مملَكته، مَنْ أحبَّ أنْ لا يُعْصَى الله في مملَكتِه فقَدْ أحبَّ أنْ لا تَظْهَرَ مَغْفرُته، وأنْ لا تَكُونَ شَفَاعةُ رسُول الله ﷺ». انتهى كلام الشيخ.

وكمْ منْ مُذْنبٍ كَثُرَتْ إساءَتُه، وزَلَّةُ مخَالفَتِه أوجَبَتْ له الرَّحْمةَ مِنْ ربِّه، فكُنْ له راحِمًا، وبِقَدْرِ إيمانِه وإنْ عَصَى عالمًا.

***

القِسْمُ الثَّاني مِنْ أقْسَام الادِّخَارِ، ادِّخَارُ المقْتَصِدِينَ: وهُمُ الَّذينَ لم يَدَّخِرُوا اسْتِكْثارًا ولا مُباهَاةً ولا افْتِخارًا، وإنَّما عَلِمُوا مِنْ نُفوسِهِمُ الاضطِّرابَ عندَ الفَقْرِ، فعَلِمُوا أنَّهمْ إنْ لم يدَّخِرُوا تَشَوَّشَ عَليهِمْ إيمانُهم، وتزلْزَلَ إيقَانُهمْ، فادَّخَرُوا لضَعْفِهِمْ عنْ حَالِ المتَوَكِّلينَ، وعِلْمًا مِنْهُم بعَجْزِهِم عنْ مَقَامِ اليقِينِ، وقَدْ قالَ رسُولُ الله عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (المؤمِنُ القَوِيُّ خيرٌ عندَ الله مِنَ المؤمِنِ الضَّعِيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ)[1].

فالمؤْمِنُ القَوِيُّ، هُوَ الَّذي أشْرَقَ في قلْبه نُورُ اليقِينِ، فعَلِمَ أنَّ الله تَعالى سَائقٌ إليه رزْقَه، ادَّخَرَ أوْ لم يدَّخِرْ، وأنَّه إنْ لم يدَّخِرْ، ادَّخَرَ له الحقُّ تَعالى وأنَّ المدَّخِرينَ محالُونَ على مُدَّخَراتِهم، وأهْلُ التَّوكُّلِ محالُونَ عَلى الله، لا عَلى شَيْءٍ

(١) أخرجه مسلمٌ (٢٦٦٤) وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

دُونَه. فالمؤْمِنُ القَوِيُّ: مَنْ لم يَسْتَنِدْ إلى الأسْباب، سَواءٌ كَانَ فِيهَا أوْ لم يَكُنْ، والمؤمِنُ الضَّعِيفُ: الدَّاخِلُ في الأسْبابِ مَعَ المراكَنةِ، والخَارِجِ عنْها مَعَ التَّطَلُّعِ إلَيْهَا.

***

القِسْمُ الثَّالثُ بالنِّسْبةِ إلى الادِّخَارِ وعَدَمِه: السَّابِقُونَ، وهُمُ الذِينَ سَبقُوا إلى الله ليُخلِّصَ قُلوبَهم ممَّا سِوَاهُ، فلَمْ تَعُقْهُمْ العَوائِقُ، ولم تَشْغَلْهُم عَنِ الله العَلائِقُ، فسَبقُوا إلى الله، إذْ لا مَانِعَ لهُم.

وإنَّما مَنَعَ العِبادَ مِنَ السَّبْقِ إلى الله تَعَالى جَواذِبُ التَّعَلُّقِ بغَيرِ الله، فكُلَّما هَمَّتْ قُلوبُهُم أنْ تَرْحَلَ إلى الله، جَذَبَها ذلكَ التَعلُّقُ إلى مَا به تَعَلَّقَتْ، فكَرَّتْ راجِعَةً إليه، ومُقْبِلةً عَليه، فالحضْرةُ مُحرَّمةٌ على مَنْ هَذا وَصْفُه، وممْنُوعَةٌ ممَّنْ هَذا نَعْتُه.

قالَ بَعْضُ العَارِفِينَ: «أتَظُنُّ -أنْ تَدْخُلَ إلى الحضْرَةِ الإلهيَّة، وشَيءٌ مِنْ وَرَائِكَ يجْذِبُكَ؟»، وافْهَمْ ههُنا قَوْلَه سُبْحَانه: ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بنُونَ * إلَّا مَنْ أتى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وإنَّ القَلْبَ السَّليمَ: هُوَ الَّذي لَا تَعَلُّقَ لهُ بشَيءٍ دُونَ الله تَعَالى.

وقولُهُ سُبْحانَهُ وتَعَالى: ﴿ولقَدْ جِئْتُمُونا فُرادَى كَما خَلَقْناكُمْ أوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤] يُفْهَمُ مِنْه أيضًا أنَّه لَا يَصِحُّ مجِيئُكَ إلى الله تَعَالى بالوُصولِ إلَيْه إلَّا إذا كُنْتَ فَرْدًا ممَّا سِواهُ.

وقولُهُ تَعَالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ [الضحى: ٦] يُفْهَمُ مِنْهُ: أنَّه لا يَأْوِيكَ إليهِ، إلَّا إذَا صَحَّ يُتْمُكَ مِمَّا سِوَاهُ.

وقولُه ﷺ: (إنَّ الله وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ)(١)، أيْ: يُحِبُّ القَلْبَ الَّذِي لا يُشْفَعُ بِمشوبات الآثَارِ.

فكانَتْ هذِه القُلوبُ لله، وبالله، تَرَكُوا الله يَتَصَرَّفُ لهمْ، فلَمْ يَكِلْهُمْ إلى أَنْفُسِهِمْ، ولم يَدَعْهُمْ لتَدْبِيرِهِمْ، فَهُمْ أَهْلُ الحضْرَةِ المفاتَحُونَ بعَينِ المنَّةِ، لا تَقْطعُهُم عَنْ الله محَاسِنُ الآثَارِ، ولا تَشْغَلُهُم عنه بَهْجَةُ الحسْنِ المُعَارِ، ولنَا في هذا المعْنَى:

يا بَهْجةَ الحسْنِ الَّتي مَا مِثْلُها * مِنْ بهْجَةٍ طُرِحَتْ على الأكْوَانِ
لي فِيكِ مَعَنى مَا تبَدَّى سِرُّهُ * إلا ثَنَى طَرْفِي ومَدَّ عَنَانِي

وقالَ بعْضُهُمْ: «لوْ كُلِّفْتُ أنْ أرَى غَيْرَه لم أسْتَطِعْ؛ لأنَّه لا غيرَ مَعَه، حتَّى أشْهَدَهُ مَعَهُ».

وهذَا حَالُ أقْوام تولَّتْهُم الرِّعَايةُ، واكْتَنَفَتْهُم العِنايةُ، فأيُّ تدْبيرٍ بهؤلاءِ؟! أم كَيْفَ يُمْكِنُ هؤلاءِ أنْ يكُونُوا مِنَ المدَّخِرِينَ، وهُمْ في حَضْرَةِ ربِّ العَالمينَ؟! وإنِ ادَّخَرُوا لم يكُونُوا على مَا ادَّخَرُوهُ مُعْتَمِدِينَ، أمْ كيفَ يُمْكِنُهُم أنْ يَكُونُوا إلى سِواهُ مُسْتَنِدِينَ، وهمْ لوُجُودِ الأحَدِيَّةِ مُشَاهِدُونَ؟!

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٦٤١٠)، ومسلمٌ (٢٦٧٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

قال الشَّيخُ أبو الحسَنِ الشَّاذِلِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-: «قَوِيَ عليَّ الشُّهُودُ مرَّةً، فسَألْتُ أنْ يَسْتُرَ ذلكَ عنِّي، فقِيلَ: لوْ سَألْتَه بِما سَألَهُ مُوسَى كَلِيمُه، وعِيسَى رُوحُه، ومحمَّدٌ صَفِيُّهُ، لم يَفْعَلْ، ولكنْ سَلْهُ أنْ يُقَوِّيكَ، فسَألْتُه فقَوَّاني».

فمَنْ كانَ هَذَا حَالُهُ، فكَيْفَ يحتَاجُ إلى الادِّخَارِ؟! أمْ كيفَ يُمْكِنُه أنْ يَسْتَنِدَ إلى الأغْيَارِ؟!

وكفَى بالمؤْمِنِ أنْ يدَّخِرَ إيمانًا باللهِ، وثِقَةً بِهِ، وتوكُّلًا عَلَيه؛ وأهلُ الفَهْمِ عنِ اللهِ، توكَّلُوا عَلَيهِ، فَكَانَ هُوَ المدَّخِرَ لهُم، واسْتَحْفَظُوهُ فكانَ هُوَ الحافظَ لهُمْ، وكانُوا لهُ وبِهِ، فكانَ بِمَعُونَتِه لهُم، فكَفَاهُم مَا أهَمَّهُم، وصَرَفَ عنْهُم ما أغمَّهُم.

اشْتَغلُوا بِما أمَرَهُم، عمَّا ضَمِنَ لهمْ، علْمًا مِنْهُم بأنَّه لا يَكِلُهُم إليهِمْ، ومِنْ فَضْلِه لا يَمْنَعُهُم، فدخَلُوا في الرَّاحَة، ووَقعوا في جَنَّةِ التَّسْلِيمِ، ولذَاذَةِ التَّفْويضِ.

فَرَفَعَ اللهُ بذلِكَ مِقْدارَهُم، وكمَّلَ أنوارَهُمْ، ويحِقُّ أنْ يرفَعَ المحاسَبَةَ عنْهُم بفَضْلِه، كما قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: (سَبْعُونَ ألفًا مِنْ أمَّتي يَدْخُلونَ الجنَّةَ بغَيرِ حِسَابٍ)، قِيلَ: مَنْ هُمْ يا رسُولَ اللهِ؟ قالَ: (هُمُ الَّذينَ لا يَرْقُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ ولا يتَطيَّرونَ، وعَلى ربِّهِمْ يتوكَّلُونَ)[1].

(١) متفقٌ عليه؛ مخرج في الصحيحين وغيرهما مُطوَّلًا ومختصرًا في عدَّة مواضع، منها ما أخرجه البخاريُّ (٢٤٤٨)، ومسلمٌ (٢٢٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، والحديث معدودٌ في المتواتر، مرويٌّ عن تسعة عشر صحابيًّا. انظر: «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني (ص ٢٤١، رقم ٣٠٩).

وكيفَ يُحاسَبُ مَنْ لا شَيءَ لَه؟! أمْ كيفَ يُسْأَلُ عَنْ فِعْله مَنْ شَهدَ أنَّه لا فِعْلَ لَه؟! وإنَّما يُحاسَبُ المدَّعُونَ، ويُناقَشُ الغَافلُونَ، الَّذينَ يَشْهَدُونَ أنَّهم مَالِكُونَ، أوْ مَعَ الله فَاعِلُونَ.

ومَنْ لم يدَّخِرْ ثِقةً باللهِ، وتوكُّلًا عَلَيه سَاقَ الله لَهُ رِزْقَهُ بوجُودِ الهَنا، وأوْجَدَ في قَلْبِه وجُودَ الغِنَا.

أفْلَسَ بَعْضُ العَارفينَ، فقَالَ لزَوْجَته: «أخْرجي كُلَّ مَا في البَيْتِ فتَصَدَّقِي به»، ففَعَلَتْ إلَّا الرَّحَى، فإنَّها قَالتْ: لعَلَّنا نَحْتاجُ إليْهَا، ولا نَجِدُ مِثْلَها؛ فهِيَ قَدْ فَعَلَتْ، وإذا بالبَابِ قَدْ دُقَّ، فقِيلَ: هَذا قَمْحٌ أُرْسِلَ إلى الشَّيخ، فمُلأَتِ الدَّارُ قَمْحًا، فلَمَّا رَجَعَ العَارِفُ ونَظَرَ، قالَ: «أخْرَجْتِ كُلَّ مَا في البَيْتِ؟» قالَتْ: «نَعَمْ»، قالَ: «ليس الأمْرُ كَذلكَ؟!»، فقَالَتْ: «ما تَرَكْتُ إلَّا الرَّحَى خِيفَةَ أنْ نَحْتَاجَ إليْهَا»، فقَالَ: «لوْ أخْرَجْتِ الرَّحَى، لجاءَك دقِيقٌ، ولكِنْ أبقَيْتِيهَا فجاءَكِ ما بِه تَتْعَبِينَ».

فإنِ ادَّخَرَ السَّابقُونَ فَلَا لأنْفُسِهِمْ، ولَكِنِ ادِّخارَ أمَانةٍ؛ لأنَّهم خُزَّانٌ أُمَنَاءُ، وعَبِيدٌ كُبَراءُ، إنْ أمسَكُوا الدُّنْيا أمْسَكُوهَا بحقٍّ، وإنْ بَذَلُوهَا بذَلُوهَا بِحقٍّ، وليسَ المُمْسِكُ لها بِحَقٍّ بِدُونِ البَاذِلِ لها بِحَقٍّ، ولا يَشْهَدُونَ أنَّهم مَعَ الله مَالِكُونَ، بلْ مَا في أيدِيهِمْ يشْهَدُونَه مِنْ ودَائعِ الله، ويَتَصَرَّفُونَ فِيهَا بالنِّيابَةِ عَنِ الله. سَمِعُوا قَولَه تَعَالى: ﴿وأنْفِقُوا ممَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] فعَلِمُوا أنَّه لا مِلْكَ لهمْ مَعَ الله، وإنَّما هِيَ نِسْبةٌ أضِيفَتْ إليْكَ، وإضَافةُ مِنَّةٍ مَنَّ

بِهَا عَلَيْكَ، ليَرَى كيْفَ تَعْمَلُ وهُوَ العَلِيمُ الخَبِيرُ: أَتَقِفُ مَعَ ظَاهِرِهَا أمْ تَنْفُذُ إلى أَسْرَارِها؟

ولذلِكَ كانَ الأنْبياءُ علَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، لا تَجِبُ عليهِمُ الزَّكاةُ؛ لأنَّهُمْ لا مِلْكَ لهم مَعَ الله حتَّى تَجِبَ عليْهِمُ الزَّكاةُ فيه، وإنَّما تَجِبُ علَيْكَ زَكاةُ ما أنتَ لَهُ مَالِكٌ. إنَّما يشْهَدُونَ مَا في أيدِيهِمْ مِنْ ودَائِعِ الله تعَالى لهمْ، يبذُلُونَه في أوَانِ بَذْلِه، ويَمْنَعُونَه مِنْ غَيرِ محلِّه؟

ولأنَّ الزَّكاةَ إنَّما هِيَ طُهْرَةٌ لما عَسَاهُ أنْ يكُونَ ممَّنْ وَجَبَتْ عَلَيه، لقَوْلِه تَعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، والأنْبياءُ عليهم السلام مُبرَّؤُنَ مِنَ الدَّنَسِ، لوُجُودِ العِصْمَةِ، ولأجْلِ ذَلكَ لم يُوجِبْ أبو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ الله عَلى الصِّبْيانِ زَكَاةً، لعَدَمِ دَنَسِ المخَالَفَةِ، والمخَالفةُ لا تكُونُ إلَّا بَعْدَ جُرْيانِ التَّكْليفِ، وذَلِكَ بَعْدَ البُلُوغِ.

وافْهَمْ هَهُنَا قَوْلَهُ ﷺ: (نَحْنُ مَعَاشِرَ الأنْبياءِ، لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ)[1]، يَتَبَيَّنْ لكَ ما ذَكَرْناهُ، ويتَّضِحْ مَا قرَّرْناهُ.

وإذا كَانَ أهْلُ المعْرِفَةِ بالله تَعَالى المشَاهِدُونَ لأَحَدِيَّتِه، لا يشْهَدُونَ لهم مَعَ الله مَلِكًا، فما ظَنُّكَ بالأنْبياءِ والرُّسُلِ صَلَوَاتُ الله وسَلَامُه علَيهِمْ أجْمعِينَ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ مخرج في الصحيحين وغيرهما مُطوَّلًا ومختصرًا في عدَّة مواضع، منها ما أخرجه البخاريُّ (٣٠٩٣)، ومسلمٌ (١٧٥٩)، وغيرهما من حديث السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا مرفوعًا، دون قوله: «نحن معاشر الأنبياء»، والحديث معدودٌ من المتواتر مرويٌّ عن ثلاثة عشر صحابيًّا، انظر: «نظم المتناثر من الحديث المتواتر» للكتاني (ص ٢١٦، رقم ٢٧٢).

وأَهْلُ التَّوحِيدِ والمعْرِفَةِ إنَّما غَرَفُوا مِنْ بِحَارِهِمْ، واقْتَبَسُوا مِنْ أَنْوارِهِم. يُحكَى أنَّ الشَّافِعِيَّ(١) وأَحْمَدَ(٢) -رَحِمَهُما الله تَعَالى- كَانَا جَالِسَيْنِ، إِذْ أَقْبَلَ شَيْبانُ(٣) الرَّاعِي -رحمه الله- فقَالَ أَحْمَدُ للشَّافِعِيِّ: أُرِيدُ أنْ أَسْأَلَ هَذا المُشَارَ إليه في هَذَا الزَّمَنِ؟ فقَالَ الشَّافِعيُّ: لا تَفْعَلْ. فَقَالَ: لا بُدَّ مِنْ ذَلِكَ. فقَالَ: يا شَيْبانُ، ما تقُولُ فيمَنْ نَسِيَ أَرْبعَ سَجَدَاتٍ مِنْ أَرْبعِ رَكَعَاتٍ؟ فَقَال: يا أَحْمَدُ، هذا قلبٌ غَافِلٌ عَنِ الله عزَّ وجَلَّ، يَجِبُ أنْ يُؤَدَّبَ حتَّى لا يَعودَ إلى مِثْلِ ذَلِكَ.

---

(١) إمام عصره وفريد دهره أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب القرشي المطلبي، ولد سنة خمسين ومائة، وكان كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله وسنة الرسول ﷺ، وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم، واختلاف أقاويل العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب واللغة والعربية والشعر ما لم يجتمع في غيره، توفي بمصر في آخر يوم من رجب سنة ٢٠٤ وله أربع وخمسون سنة. انظر: «طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص ٧١)، «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥١/ ٢٦٧)، «وفيات الأعيان» (٤/ ١٦٣)، «طبقات الشافعية» للسبكي (٢/ ٧١).

(٢) الحافظ الحُجَّة إمام المحدِّثين، وأحد الأئمَّة المتبوعين أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، ولد في بغداد سنة ١٦٤، وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه، وقال الشافعي في حقِّه: «خرجتُ من بغداد وما خلَّفتُ بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل»، صنَّف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وله مصنَّفاتٌ مشهورةٌ، امتُحن في فتنة خَلْق القرآن فصبر، تُوفي في رجب يوم الجمعة سنة ٢٤١. انظر: «تاريخ بغداد» (٥/ ١٧٨)، «طبقات الفقهاء» للشيرازي (ص ٩١)، «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥/ ٢٥٢)، «وفيات الأعيان» (١/ ٦٣).

(٣) قال عنه أبو نعيم في الحلية: «المنيب الواعي شيبان أبو محمد الراعي، كان في العبادة فائقًا، وبالتوكُّل على ربِّه عزَّ وجلَّ واثقًا»، ثم ذكر عن محمد بن حمزة الربضي قال: كان شيبان الراعي إذا أجنب وليس عنده ماء دعا فجاءت سحابة فأظلته، فاغتسل منها، وكان يذهب إلى الجمعة فيخط على غنمه، فيجيء فيجدها على حالتها»، وذكر القشيري أنه حجَّ مع سفيان الثوري فعرض لهم سبع، فقال: سفيان لشيبان: أما ترى هذا السبع؟ فقال: لا تخف، فأخذ شيبان أذنه فعركها فبصبص وحرَّك ذنبه، فقال: سفيان ما هذه الشهرة؟ فقال: لولا مخافة الشهرة لما وضعت زادي إلا على ظهره حتى آتي مكة، تُوفي في حدود ١٧٠. انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٧)، و«الرسالة القشيرية» (٢/ ٥٤٢) و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٤/ ٤١٠).

فَخَرَّ أَحْمدُ مَغْشِيًّا عَليهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَقَال: ما تقُولُ فِيمَنْ لَهُ أَرْبعُونَ شاةً؟ ما زَكَاتُها؟ فقَالَ: على مَذْهَبِنا أوْ مَذْهَبِكُم؟ فقَالَ: وهُمَا مَذْهَبان؟ قالَ: نَعَمْ. قالَ: أَمَّا عَلَى مَذْهَبِكُمْ فَفِي الأَرْبَعِينَ شاةً شاةٌ، وأمَّا على مَذْهَبِنا فالعَبْدُ لا يَمْلِكُ معَ سيِّدِه شيئًا»[1].

وقَدْ جاءَ في الحديثِ: (أنَّ النَّبيَّ ﷺ ادَّخَرَ قُوتَ سَنة)[2]. فإمَّا أنْ يكُونَ ذلكَ لما قُلْناهُ أوَّلًا، مِنْ أنَّ ادِّخَارَ الأنْبياءِ عليهم السلام إنَّما هُوَ إمْسَاكٌ بالأمَانةِ مُختَارِينَ لهُ وقْتًا يَصْلُحُ إنْفاقُه، وإنَّما ادَّخَرَ رسُولُ الله ﷺ لأجْلِ عَائِلَتِه، أوْ لِيُبَيِّنَ جوازَ الادِّخَارِ لأُمَّتِه، فإنَّه إذَا [لَمْ يَقَعْ] لم تَقَعِ الحوَالَةُ عليْه لنَا في التَّوكُّلِ.

ومِمَّا يَدلُّكَ على أنَّ المرادَ إنَّما كَانَ لِيُبيِّنَ جوازَهُ أنَّه كانَ ﷺ أغْلبُ أحواله عَدمُ الادِّخَارِ، وإنَّما ادَّخَرَ تَوْسِعَةً على أمَّتِه، ورَحْمةً بهِمْ، وإشْفَاقًا على الضُّعَفاءِ مِنْهُم، إذْ لوْ لم يدَّخِرْ لم يكُنْ لمؤْمِنٍ أنْ يدَّخِرَ بَعْدَه، ففَعلَ ذلِكَ لِيُبيِّنَ حُكْمَه، وقدْ قالَ ﷺ: (إنِّي لأنْسَى -أوْ أُنَسَّى- لأَسُنَّ)[3].

---

(١) ذكرها القشيريُّ في «الرسالة» (ص ٥٧٢) [باب المعرفة بالله]، ونقل السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٧٤٥، ٧٤٦)، والسيوطي في «الدرر المنتثرة» (ص ٢٤٤) عن ابن تيمية بطلان هذه القصة، قال: «ما اشتهر من أنَّ الشافعيَّ وأحمد اجتمعا بشيبان الراعي وسألاه فباطلٌ باتفاق أهل المعرفة، لأنهما لم يُدركاه»، والله أعلم!!

(٢) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٣٥٧)، ومسلمٌ (١٧٥٧)، وغيرهما من حديث عمر رضي الله عنه مرفوعًا ولفظ البخاريِّ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبسُ لأهله قُوتَ سَنَتِهم»

(٣) ذكره مالكٌ في «الموطأ» (٢) [كتاب السهو] بلاغًا، وقال الحافظ ابن عبد البر في التمهيد (٢٤/ ٣٧٥): «وأمَّا هذا الحديث بهذا اللفظ فلا أعلمه يروى عن النبيِّ ﷺ بوجهٍ من الوجوه مسندًا ولا مقطوعًا من غير هذا الوجه والله أعلم، وهو أحد الأحاديث الأربعة في «الموطأ» التي لا توجد في غيره مسندةً ولا مرسلةً والله أعلم، ومعناه صحيح في الأصول...».

فبَيَّنَ لَكَ ﷺ أنَّ النِّسْيانَ ليسَ مِنْ شَأْنِه، ولا مِنْ وَصْفِه، وإنَّما يَدْخُلُ فيه، لِيُبَيِّنَ حُكْمَه ومَا يتَعلَّقُ بِه لأمَّتِه، فافْهَمِ الحديثَ.

***

كفالة الله الخاصة برزق طالب العلم

فائدةٌ: قولُه ﷺ (طَالِبُ العِلْمِ تكَفَّلَ الله بِرِزْقِه)(١):

اعْلَمْ أنَّ العِلْمَ حَيْثُما تكَرَّرَ في الكتَابِ العَزيز، أو في السُّنَّة، إنَّما المرادُ به العِلْمُ النَّافعُ الَّذِي تقَارِنُه الخشْيَةُ، وتكتَنِفُه المخَافةُ. قالَ الله تَعَالى: ﴿إنَّما يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَماءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فبَيَّنَ أنَّ الخَشْيةَ تُلازِمُ العِلْم، وفُهِمَ مِنْ هذا أنَّ العُلَماءَ إنَّما هُمْ أهْلُ الخشْيةِ، وكذَلِكَ قَوْلُه تَعَالى: ﴿قَالَ الَّذينَ أوتُوا العِلْمَ﴾ [النحل: ٢٧]، ﴿والرَّاسِخُونَ في العِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً﴾ [طه: ١١٤]. وقَوْلُه ﷺ: (إنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أجْنِحَتَهَا لطَالِبِ العِلْمِ)(٢)، وقولُه ﷺ: (العُلَماءُ ورَثَةُ الأنْبياءِ)(٣).

وقولُه ههنا: (طالِبُ العِلْم تكفَّلَ الله برِزْقِه)، إنَّما المرادُ بالعِلْم في هذَا الموْطِنِ: العِلْمُ النَّافعُ، القَاهِرُ للهَوَى القَامِعُ، وذَلِكَ مُتَعَيِّنٌ بالضَّرُورَةِ؛ لأنَّ كَلامَ الله تَعَالى وكَلامَ رسُول الله ﷺ أجَلُّ مِنْ أنْ يُحْمَلَ على غَيرِ هَذا، وقدْ بيَّنَّا

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص١٧٤.

(٢) أخرجه الطيالسيُّ (١٢٦١)، وأحمد (١٨٠٨٩)، والدارميُّ (٣٨٣)، والترمذيُّ (٣٥٣٦)، وابن خزيمة (١٧)، وابن حبَّان (١٣١٩)، وغيرهم من حديث صفوان بن عسَّال رَضِوَاللَّهُعَنهُ يرفعه إلى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه مطوَّلًا أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، والترمذيُّ (٢٦٨٢)، وابن حبَّان (٨٨)، والطحاويُّ في «شرح مشكل الآثار» (٩٨٢)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِوَاللَّهُعَنهُ مرفوعًا. وهو حسنٌ بشواهده

ذلكَ في غيرِ هذا الكتابِ. والعِلْمُ النَّافعُ: هُوَ الذي يُسْتَعانُ به على طَاعةِ الله تَعالى ويُلْزِمُكَ المخَافةَ منَ الله تَعالى والوُقُوفَ على حُدُودِ الله وهُوَ عِلْمُ المعرفَةِ بالله تَعالى. ويشْمَلُ العِلْمُ النَّافعُ: العِلْمَ بالله، والعِلْمَ بما به أمَرَ الله إذا كانَ تعلُّمُهُ لله.

فقَولُه علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: (طَالِبُ العِلْمِ تكَفَّلَ الله برِزْقهِ)، أيْ: تكفَّلَ لَهُ أنْ يُوصِّلَه لَه مَعَ الهنَاءِ والعِزَّةِ والسَّلامَةِ منَ الحجْبَةِ، وإنَّما أوَّلْنَا هذا التَّأويلَ، وأنَّ معْنى التَّكَفُّلِ تكَفُّلٌ خاصٌّ؛ وذلكَ لأنَّ الحقَّ سُبْحانَه وتَعالى، متكفِّلٌ برِزْقِ العِبادِ أجمعَ، طَلبُوا هذا العِلْمَ أوْ لمْ يَطْلبُوهُ، فدَلَّ على أنَّ هَذهِ الكَفَالةَ كفَالةٌ خَاصَّةٌ كما ذَكَرْنَا؛ لأنَّه أفْرَدَهَا بالذِّكْرِ.

ولهَذَا المعْنى قالَ الشَّيخُ أبو العبَّاسِ في حِزْبِه لما قَالَ: «وأعْطِنا كَذا وكَذا»، قالَ: «والرِّزْقَ الهنِيَّ، الَّذي لا حجَابَ به في الدُّنْيا، ولا سُؤَالَ ولا حسَابَ ولا عِقَابَ عَليه في الآخرَةِ، على بِسَاطِ عِلْمِ التَّوحِيدِ والشَّرْعِ سَالمِينَ منَ الهوَى والشَّهْوةِ والطَّبْعِ».

فسَأَلَ منَ الله الرِّزْقَ الهنِيَّ، وهُوَ المتَكَفَّلُ به لطَالبِ العِلْمِ، ثُمَّ فسَّرَ الرِّزْقَ الهنِيَّ بأنَّهُ: الَّذي لا حجَابَ معَهُ في الدُّنْيا، ولا حسَابَ عليه في الآخرَةِ؛ لأنَّ ما وقَعتْ فيه الحجْبَةُ فلا هَناءَ فيه؛ إذ الحجْبَةُ تُوجِبُ تكَثُّرَ الشَّرِّ بالمنْعِ عنِ المحاضَرةِ، والصَّدَّ عَنِ المفاتحةِ، لا عَلى ما يَفْهَمُه العُمُومُ مِنْ أنَّ الرِّزْقَ الهنِيَّ الَّذي حَصَلَ مِنْ غيرِ وجُودِ تَعَبٍ ولا نَصَبٍ.

فالهناءُ عِنْدَ أَهْلِ الغَفْلةِ فيما يَرْجعُ إلى الأَبْدَانِ، وعندَ أَهْلِ الفَهْمِ فيما يَرْجِعُ إلى القُلوبِ. ووقُوعُ الحِجْبَةِ في الرِّزْقِ: إمَّا بشُهودِ الغَفْلَةِ والأَسْبابِ عَنِ الله تَعَالى، وإمَّا بأنْ تَتناوَلَه وليْسَ قَصْدُكَ التَّقَوِّي على طَاعَةِ الله تَعَالى. فالأَوَّلُ حِجْبَةٌ في الحصُولِ، والثَّاني حِجْبَةٌ في التَّناوُلِ.

وقَوْلُ الشَّيخِ: «ولا سُؤالَ ولا حِسَابَ ولا عِقَابَ عليه في الآخِرَةِ»، فالسُّؤالُ: أنْ يكُونَ عنْ حُقُوقِ النِعَمِ لقَوْلِه تَعَالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وأكَلَ النَّبيُّ ﷺ وبعْضُ أصْحابِه طعامًا، ثُمَّ قالَ: (والله لَتُسْأَلُنَّ عَنْ نَعيمِ هَذا اليَومِ)[١].

وكانَ الشَّيخُ رَحِمَه الله يَقُولُ: السُّؤالُ على قِسْمين: سُؤَالُ تَشْرِيفٍ، وسُؤالُ تَعْنِيفٍ. فسُؤَالُ أَهْلِ الموافَقَةِ والعِنايةِ سُؤالُ التَّشرِيفِ، وسؤالُ أَهْلِ الغَفْلةِ عَنِ اللهِ والإعْراضِ عَنهُ سُؤالُ التَّعْنيفِ. وافْهَمْ رَحِمَكَ الله: أَنَّ الحقَّ سُبحانَه وتَعَالى إنَّما يَسْأَلُ أهلَ الصِّدقِ وإنْ كانَ هُوَ العالمَ بأخْبارِهم، ولاتخْفَى عليْه أسْرارُهُم؛ ليُظْهِرَ مَرْتبةَ صِدْقِهِم للعِبادِ، ويَنْشُرَ محسَانَهُم في المعَادِ، كما يقُولُ السَّيِّدُ لعَبْدِه: ما صَنَعْتَ في أمرِ كَذا كَذا؟ وهُوَ يَعْلمُ أنَّه أحْكَمَهُ وأتْقَنَه، ولكِنْ أرادَ أنْ يَعْلَمَ الحاضِرُونَ اعْتِناءَهُ بأمْرِه، وقيامَهُ وعنَايتَه بشَأنِه، فافْهَمْ.

(١) ذكره مالك في «الموطأ» (٢٨) [كتاب صفة النبي ﷺ] بلاغًا، ووصله ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٩ - ٣٤٣) من وجوه صحاح.

وقولُ الشَّيخ رَحِمَهُ الله: «ولا حِسَابَ»: فالحِسَابُ هُوَ نَتيجَةُ السُّؤال، وإذا سَلِمُوا مِنَ السُّؤال سَلِمُوا مِنَ الحِسَاب، وإذا سَلِمُوا مِنَ السُّؤال والحِسَاب سَلِمُوا مِنَ المعَاقَبة، فذَكَرَها الشَّيخُ رَحِمه الله وإنْ كانتْ مُلازِمَةً، ليَتَبَيَّنَ ما يَسْتَلْزِمُ هَذا الرِّزْقُ مِنَ المِنَنِ التي لو انفَرَدَتْ واحدةٌ منْها لكانَ حَرِيًّا أنْ تُطْلَبَ.

وقولُ الشَّيخ رَحِمَه الله تَعَالى: «عَلى بِسَاطِ عِلْمِ التَّوحِيد»: أيْ: على أنْ أَشْهَدَكَ فيما رزَقْتَني وأرَاكَ فِيما أطْعَمْتَني، فلا أشْهَدُ ذلكَ مِنْ غَيرِكَ، ولا أُضِيفُه لأحَدٍ مِنْ خَلْقِكَ.

وكذلكَ أهْلُ الله لا يأكُلونَ إلَّا على مائِدَة الله، أطْعَمَهُم مَنْ أطْعَمَهُم، لعِلْمِهم أنَّ غَيرَ الله تَعَالى لا يَمْلِكُ معَه شيئًا، فيَسْقُطُ بذَلكَ شُهُودُ الخَلْقِ عَنْ قُلوبِهم، فلم يَصْرِفُوا لغَيرِ الله حُبَّهُم، ولا وجَّهُوا لمَنْ سِواهُ وُدَّهُم، إذْ رأوْا أنَّه هُوَ الَّذي أطْعَمَهُم، ومَنَحَهُم مِنْ فَضْلِه وأكْرَمَهُم.

قال الشَّيخُ أبو الحَسَنِ رَحِمَهُ الله يومًا: «إنَّا نحنُ لا نُحِبُّ إلَّا الله تَعَالى»، أيْ: لا يَتوجَّه الحبُّ منَّا إلى الخَلْقِ. فقَالَ لهُ رجلٌ: قَدْ أبى ذلكَ جَدُّكَ يا سَيِّدي، بقوله ﷺ: (جُبلَتِ القُلُوبُ على حُبِّ مَنْ أحْسَنَ إلَيْهَا؟)[1]، فقالَ: «نَعَمْ، نَحْنُ قَومٌ لا نَرَى المُحْسِنَ إلَّا الله تَعَالى، فلِذَلكَ جُبلَت قلُوبُنا عَلى محبَّتِه».

---

(١) أخرجه ابن حِبَّان في «روضة العقلاء» (ص ٢٤٣)، وأبو نعيم (٤/ ١٢١)، والخطيب في «التاريخ» (٧/ ٣٥٨)، والقضاعيُّ في «مسند الشهاب» (٥٩٩)، وغيرهم عن عبدالله بن مسعود مرفوعًا. ونصَّ على بطلانه مرفوعًا وموقوفًا السخاويُّ في «المقاصد الحسنة» (ص ٢٨٠ رقم ٣٦٥).

ومَنْ رَأى أنَّ المطْعِمَ هُو الله سُبْحانَه وتَعالى تجدَّدَ عندَه مَزيدُ الحبِّ على حَسْبِ ما يَتجَدَّدُ مِنْ تَناوُل النِّعَم، لقَوْلِه ﷺ: (أحِبُّوا الله لما يغْذُوكُمْ بِه مِنْ نِعَمِه)[1]، وقد سَبقَ بيانُه.

ومَنْ رأى أنَّ الله هُوَ المطْعِمُ له، صَانتْهُ هذه المطالَعةُ عَن الذُّلِّ للخَلْق، أوْ أنَّه يَميلُ قَلبُه بالحبِّ لغَيرِ الملكِ الحقِّ، ألمْ تَسْمَعْ قولَ إبراهِيمَ الخليلِ عليه السلام: ﴿والَّذي هُو يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]، فشَهِدَ لله تَعالى بانْفرادِه بذلك، واعْترفَ لهُ تَعالى بوْحدانِيَّته فيه.

وقولُ الشَّيخِ رَحمهُ الله: «عَلَى بِسَاطِ عِلْم التَّوحيدِ والشَّرْع»: لأنَّ مَن اسْتَرسَلَ مِنْ إطلاقِ التَّوحيدِ، ورأى أنَّ المُلْكَ لله وأنْ لا مُلْكَ لغَيرِه مَعَه، ولم يتقيَّدْ بظَواهرِ الشَّريعةِ فقَدْ قُذفَ به في بَحْرِ الزَّنْدقةِ، وعادَ حَالُه بالوَبال عَليه، ولكنِ الشَّأنُ أنْ يكونُ بالحقَيقةِ مُؤيَّدًا، وبالشَّريعةِ مُقَيَّدًا. وكذلكَ المحقِّقُ؛ فلا مُنْطلقًا معَ الحقِيقةِ، ولا واقِفًا معَ ظاهرِ إسْنادِ الشَّريعَة، ﴿وكَانَ بَينَ ذلكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فالوقُوفُ مَع ظَواهرِ الإسْنَادِ شرْكٌ، والانْطلاقُ مَعَ الحقيقةِ مِنْ غَيرِ تَقْييدِ بالشَّريعةِ تَعْطيلٌ. ومقَامُ أهْلِ الهدايةِ فيها بيْنَ ذلكَ ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ ودَمٍ لبَنًا خَالِصًا سَائغًا للشَّاربِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

***

(١) تقدَّم تخريجه. انظر ص ١٣٤.

فصلٌ: [عوارضُ تردُ في شأنِ الرِّزق]

واعْلَمْ أنَّه يرِدُ في شَأنِ الرِّزقِ أمُورٌ، ويَعْرِضُ فيه عَوارِضُ، وقد ذكَرَ الشَّيخُ رحمه الله تَعَالى كثِيرًا منْها بقَوله: «وسَخِّرْ لي أمْرَ هَذا الرِّزْقِ، واعْصِمْني مِنَ الحِرْصِ والتَّعَبِ في طَلَبِه، ومِنْ شُغْلِ القَلْبِ وتَعَلُّقِ الهمِّ به، ومِنَ الذُّلِّ للخَلْقِ بسَبَبِه، ومِنَ التفكُّرِ والتَّدْبيرِ في تحْصِيلِه، ومَنَ الشُّحِّ والبُخْلِ بَعْدَ حُصُولِه».

وليسَ العَوارِضُ الوارِدةُ في شَأنِ الرِّزْقِ بِمُنْحَصِرةٍ حتَّى تُسْتَوفى، فلْنَتَكَلَّمْ على ما قَالَه الشَّيخُ رحمه الله:

فاعْلَمْ أنَّ للعَبدِ بالنِّسْبةِ إلى الرِّزْقِ ثلاثةَ أحْوالٍ: حَالٌ قبلَ أنْ يرزُقَه وهِيَ حالةُ السَّعْيِ، وحالٌ بَعْدَ ذلِكَ وهِيَ حالةُ الحصُولِ، وحالٌ بَعْدَ انْقِضَائِه وهِيَ الحالةُ الثَّالثةُ.

عوارض تعرض قبل حصول الرزق

فأمَّا ما يعْرِضُ قبلَ حُصُولِه: فالحِرْصُ، والتَّعبُ في طلَبِه، وشُغْلِ القَلْبِ، وتَعلُّقِ الهمِّ بِه، والذُّلُّ للخَلْقِ بِسببِه، والتَّفكُّرُ والتَّدْبيرُ في تحْصِيلِه.

فأمَّا الحِرْصُ، فهُو الرَّغْبةُ القَائمةُ بالنَّفسِ في التَّحْصِيلِ لَه، والانْكِبابُ على ذلِكَ، وهُوَ ينْشَأُ عن فقْدانِ الثِّقَةِ وضَعْفِ اليَقِينِ، وهُما ناشِئانِ عنْ فُقْدانِ النُّورِ، وفُقْدانُ النُّورِ ناشِئٌ عَنْ وجُودِ الحجْبةِ، إذْ لوْ كانَ القَلْبُ بأنْوارِ المشَاهَدةِ مَعْمُورًا، وبِمِنَنِ الله مَغْمُورًا، لم تُطْرُقْه طَوارِقُ الحِرْصِ.

ولَو انبَسَطَ نُورُ اليقِين على القَلْبِ لَكَشَفَ له عَنْ سَابقِ القِسْمة، فلمْ يُمْكنْه الحِرْصُ، وعلِمَ العبدُ أنَّ لهُ عنْد الله قِسْمَةً لا بُدَّ أنْ يُوصلَهَا إليه.

وأمَّا التَّعبُ في طلَبه: فإمَّا أنْ يكُونَ تَعَبَ الظَّواهِر، ويكُونُ الاستعاذةُ منْه إلى الله تَعَالى؛ لأنَّه إذا اسْتولَى على الطَّالب للرِّزْق التَّعَبُ في الظَّاهر، شَغَلهُ ذلكَ عَنْ القِيام بالأوامِر. والرِّزْقُ معَ الرَّاحةِ، فيه إعانةٌ على التَّفرُّغ إلى طاعَة الله تَعالى والقِيام بخدْمَته.

وإن كان التَّعبُ هُو تعبُ القُلوبِ، لا تَعَبُ الظَّواهِر، فَهُو أوْلى بأنْ يُسْتَعاذَ منْه، وذلكَ لأنَّ القُلوبَ يُتْعِبُها تكَلُّفُها في طَلَبِ الرِّزقِ والفكْرةُ فيه، ويُثْقلُها مَا حُمِّلَتْ منْ ذلكَ؛ ولا رَاحَةَ لها إلَّا بالتَّوكُّلِ على الله. لأنَّ المتوكِّلَ على الله وَضَعَ لأثْقاله، والله تَعالى يَحملُهَا عَنه، لقَوْله تَعَالى: ﴿ومَنْ يتَوكَّلْ عَلى الله فَهُوَ حَسْبُه﴾ [الطلاق: ٣].

ثُمَّ قالَ الشَّيخُ رَضيَ الله عنه: «ومنْ شُغْلِ القَلْب وتَعَلُّقِ الهمِّ به». فشُغْلُ القَلْب بأمْر الرِّزْقِ، قاطعٌ عَظيمٌ، حتَّى قالَ الشَّيخُ أبو الحسَن رحمه الله: «أكثرُ مَا حَجَبَ الخلْقَ عَن الله تَعَالى شَيْئَانِ: همُّ الرِّزْق، وخَوفُ الخَلْق».

وهمُّ الرِّزْق أشَدُّ الحجَابَين، وذلكَ أنَّ أكثرَ النَّاسِ قدْ يَخْلُو منْ همِّ خَوف الخلْق، ولا يَخْلُو منْ همِّ الرِّزْقِ إلا قليلٌ، لا سيَّما وشاهِدُ الفاقَة قائمٌ بوجُودك، وأنتَ مُفْتقرٌ إلى ما يُقيمُ بنْيَتَكَ ويشُدُّ قوَّتَكَ.

وقولُه: «وتَعلُّق الهمِّ به» أيْ: تعلُّق الهمَّة بأمْرِ الرِّزْقِ تَوَجُّهًا واسْتِغْراقًا، حتَّى لا يَبْقَى فيه مُتَّسعٌ لغَيرِه، وهَذه حالةٌ تُوجِبُ القَطيعةَ، وتَكْسِفُ أنوارَ الوُصْلةِ، وتُنادِي على صَاحِبِهَا بخَرَابِ قلبه منْ نُورِ اليَقِينِ، وفَلَسِهِ مِنَ القُوَّةِ والتَّمْكِينِ.

وقولُه: «ومِنَ الذُّلِّ للخَلْقِ بسَبَبِه»، فاعْلَمْ أنَّ مَنْ ضَعُفَ يَقينُه، وقلَّ مِنْ قِسْمَةِ العَقْلِ نَصيبُه، فالذِّلَّةُ لازمةٌ له لطَمَعِهِ في الخَلْقِ، ولعَدَمِ ثِقَتِه بالملكِ الحقِّ؛ وذلكَ لأنَّه لم يشْهَدْ سَابقَ قِسْمةِ الله تَعالى، ولم يظْفَرْ بصِدْقِ وعْدِه، فذَلَّ للخَلْقِ مُتَمَلِّقًا، ولَحَّ إليهم مُتعلقًا، وذلكَ عُقُوبةُ الغَفْلةِ عَنْ الله تَعَالى، ولَعذَابُ الآخِرَةِ أشَدُّ.

ولو صَحَّ إيمانُه وثِقتُه بالله لكانَ بذِلِكَ عزيزًا، ولله العِزَّةُ ولرسُوله وللمُؤْمِنِينَ، فعِزَّةُ المؤْمِنِ بربِّه لا يَعْتزُّ بغَيرِه، لعِلْمِه أنَّ العزَّةَ لله جميعًا، وأنَّه العزيزُ فلا عزيزَ معَهُ، والمعِزُّ فلا مُعِزَّ معَه، فأعزَّتْه الثِّقَةُ، ونَصرهُ التَّوكُّلُ، فلمْ يَهِنْ لصِدْقِ ثِقَتِه بربِّه في قِسْمَتِه، ولم يحْزَنْ لاعْتِمادِه عليه في وجُودِ مِنَّتِه، سامعًا قولَه تَعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

فعِزَّةُ المؤْمِنِ بتَرْكِ الطَّمعِ في الخَلْقِ، ووجُودِ الثِّقةِ بالملكِ الحقِّ، أبَى له إيمانُه أنْ يَرْفَعَ حاجَتَه لغَيرِ ربِّه، أو أنْ يَصْرِفَ لما سِواهُ قلبَه، ولذلكَ قالَ بَعْضُهُم:

حرامٌ عَلى مَنْ وحَّدَ الله رَبَّه * وأفردَهُ أنْ يَجْتدي أحدًا رِفْدَا
ويا صَاحِبي قفْ لي مَعَ الحقِّ وقْفَةً * أمُوتُ بها وُجْدًا وأحْيَا بها وَجْدَا
وقلْ لِلُوكِ الأرْضِ تَجهَدُ جُهْدَها * فذَا المُلْكُ مُلْكٌ لا يُبَاعُ ولَا يُهدَى

ومَنْ حرَّرَه الله مِنْ رِقِّ الطَّمَعِ، وأعزَّهُ بوجُودِ الوَرَعِ، فقَدْ أجْزَلَ مِنَّتَه، وكمَّلَ علَيه هِمَّتَه.

واعْلَمْ أنَّ الله قَدْ كَسَاكَ أيُّها المؤمِنُ خِلَعًا عدِيدةً مِنْها: خِلْعةُ الإيمانِ والمعْرِفةِ والطَّاعةِ والسُّنَّةِ، فلا تُدنِّسَها بالطَّمَعِ في المخْلُوقِينَ، وبالاسْتنادِ إلى غيرِ ربِّ العَالمينَ.

قال الشَّيخُ أبو الحسَنِ -رَحمه الله-: رأيتُ النَّبيَّ ﷺ في المَنَام فقَالَ لي: يا عليُّ، طَهِّرْ ثِيابَكَ مِنَ الدَّنَسِ تَحْظَ بِمَدَدِ الله في كُلِّ نفْسٍ. فقُلْتُ: يا رسولَ الله، وما ثِيابي؟ فقَالَ: اعْلَمْ أنَّ الله تَعالى كسَاكَ حُلَّةَ الإيمانِ، وحُلَّةَ المعْرِفَةِ، وحُلَّةَ التَّوحيدِ، وحُلَّةَ المحَبَّةِ. قالَ: فَفَهِمْتُ حِينَئِذٍ قولَه تَعالى: ﴿وثِيابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

فمَنْ عرَفَ الله صَغُرَ لدَيه كلُّ شيءٍ، ومنْ أحبَّ الله هانَ عليه كُلُّ شيءٍ، ومَنْ وحَّدَ الله لم يشْرِكْ به شَيئًا، ومَنْ آمَنَ بالله أمِنَ مِنْ كُلِّ شيءٍ، ومَنْ أسْلَمَ لله قَلَّما يَعْصِيه، وإنْ عَصَاهُ اعْتَذَرَ إلَيهِ، وإن اعْتَذَرَ إليهِ قَبِلَ عُذْرَه.

واعْلَمْ رحِمكَ الله أنَّ رفعَ الهِمَّةِ لسَالِكي طَرِيقِ الآخرة عن الخلق، وعدَمَ

التَّعرُّض لهم، أزينُ لَهُم منَ الحُليِّ للعَرُوس، وهُمْ أحْوجُ إليه منَ الماء لحياة النُّفوس. ومَنْ خُلِعَتْ عليه خِلْعةُ المُلْك فحَفظَها وصَانَها، فحَريٌّ أنْ تَدامَ له وأنْ لا تُسْلبَ عنه، والمدنِّسُ لخِلَع المواهب، فحريٌّ أنْ لا تُتْرك لَهُ.

فلا تُدنِّسْ أيُّها الأخُ إيمانَكَ بطَمَعكَ في المخلُوقينَ، ولا تجعَلنَّ اعتمادَكَ إلَّا على ربِّ العَالمينَ، فإنْ اعْتزَزْتَ بالله دامَ عِزُّكَ بدوام مَنْ اعْتززْتَ به، وإنِ اعْتزَزْتَ بغَيره فلا بَقاءَ لعِزِّكَ، إذْ لا بَقاءَ لمنْ أنتَ به مُعْتَزٌّ، أنْشدَ لي بعضُ الفُضَلاءِ لنَفْسه:

ليكُنْ بربِّكَ كلُّ عِزِّكَ يَسْتَقِرُّ ويَثْبُتُ
فإنِ اعْتَزَزْتَ بمَنْ يَمُوتُ فإنْ عِزَّك ميِّتُ

ودخلَ إنْسانٌ على بعْضِ العَارفينَ وهوَ يبكِي فقَالَ: ما شَأْنُكَ؟ قالَ: ماتَ أسْتَاذي. فقَالَ له ذلِكَ العَارِفُ: ولِمَ جَعَلْتَ أسْتاذَكَ مَنْ يمُوتُ؟

ويُقالُ لَكَ: إذا اعْتزَزْتَ بغَيرِ الله فَقَدْتَه، وإذَا اسْتَنَدْتَ إلى غَيره عَدمْتَه، ﴿وانظُرْ إلى إلهِكَ الَّذي ظَلْتَ عليه عَاكفًا لنُحرِّقَنَّه ثُمَّ لنَنْسِفَنَّه في اليَمِّ نَسْفًا * إنَّما إلهُكُمُ الله الَّذي لا إلَهَ إلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيءٍ علْمًا﴾ [طه: ٩٧-٩٨].

وكُنْ أيُّها العَبْدُ، إبراهيميًّا فقدْ قالَ أبوكَ إبراهيمُ -صَلواتُ الله عليه وسَلامُه-: ﴿لا أُحبُّ الآفلينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]، وما سِوَى الله تَعَالى آفِلٌ: إمَّا وجُودًا، وإمَّا إمْكانًا.

وقدْ قَالَ الله تَعَالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] أيْ: اتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهِيمَ، فواجبٌ على المؤمنِ أنْ يتَّبعَ ملةَ إبراهِيمَ.

ومِلَّةُ إبراهِيمَ رفْعُ الهِمَّةِ عَنِ الخلْقِ، فإنَّه يوْمَ زُجَّ به في المَنْجَنيقِ تَعرَّضَ لهُ جَبرائيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ فقَالَ: أمَّا إليكَ فَلَا، وأمَّا إلى الله فبلَى. قالَ: سَلْهُ؟ قالَ: حَسْبي مِنْ سُؤالي عِلْمُه بِحَالي. فانْظُرْ كيفَ رَفَعَ إبراهِيمُ صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَليْه همَّتَه عَنِ الخَلْقِ، ووَجَّهَهَا إلى الملِكِ الحقِّ، فلَمْ يَسْتَغِثْ بِجَبرائِيلَ، ولَا احْتالَ على السُّؤال مِنَ الله تَعَالَى، بَلْ رَأى الحقَّ أقْرَبَ إليه مِنْ جَبْرائيلَ ومِنْ سُؤالِه، فلِذَلكَ سَلَّمَه مِنَ النَّمْرودِ ونكَالِه، وأنْعَمَ عليهِ بنوالِه وإفْضَالِه وخَصَّهُ بوجُودِ إقْبالِه.

ومِنْ مِلَّةِ إبراهيمَ: مُعاداةُ كُلِّ ما شَغَلَ عَنِ الله، وصَرْفُ الهِمَّةِ بالرَدِّ إلى الله تَعَالَى لقَوْلِه: ﴿فإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧].

والغِنَى إنْ أرَدْتَ الدِّلالةَ عليْه، فهُو في اليأسِ مِنَ النَّاسِ، ولقَد قَال الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحمه الله: «أيِسْتُ مِنْ نَفْعِ نَفْسي لنَفْسي، فكَيفَ لا أيأَسُ مِنْ نَفْعِ غَيري لنَفْسي؟! ورَجَوْتُ الله لغَيْري؛ فكيفَ لا أرْجُوهُ لنَفْسي؟!». وهَذا هوَ الكِيمْياءُ والإكْسِيرُ(١) الَّذي مَنْ حَصَل لَهُ، حَصَلَ لَه غِنَى لا فاقَةَ فيه، وعِزٌّ لا

(١) علم الكيمياء عند القدماء هو: علم يعرف به طرق سلب الخواصّ من الجواهر المعدنية وجلب خاصّة جديدة إليها، ولا سيّما تحويلها إلى ذهب. [المعجم الوسيط] والإكسير: مادّة مركّبة كان الأقدمون يعتقدون أنها تحوّل المعدن الرخيص إلى ذهب. [معجم اللغة العربية المعاصرة].
والمراد بهما هنا: الدواء النافع، والترياق الشافي. وفي «التعريفات» للشريف الجرجاني: كيمياء السعادة: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها، واكتساب الفضائل وتحليتها بها. وكيمياء الخواص: تخليص القلب عن الكون باستئثار المكون.

ذُلَّ مَعَه، وإنفاقٌ لا نَفادَ لَهُ، وهُو كِيمْياءُ أهْلِ الفَهْم عن الله تَعَالى .

قالَ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحِمه الله: «صَحِبَنِي إنْسَانٌ وكانَ ثَقيلًا عليَّ، فبَسَطتُه فانْبَسَطَ فقُلْتُ لَه: يا ولَدِي، ما حَاجَتُك؟ ولم صَحِبْتَني؟ قالَ يا سَيِّدي، قِيلَ لي: إنَّكَ تُعَلِّمُ الكِيمْياءَ فصَحْبتُكَ لأتَعلَّمَ منْكَ، فقُلْتُ لَه: صَدَقْتَ، وصَدَقَ مَنْ حَدَّثَكَ، ولكِنْ إخالُكَ أن لا تَقْبلُ، فقَالَ: بَلَى أقْبَلُ.

فقُلتُ له: نَظَرْتُ إلى الخلقِ فوَجدتُّهم على قِسْمين: أعْدَاءٍ وأحِبَّاءَ. فنَظَرْتُ إلى الأعْداءِ فعلِمْتُ أنَّهم لا يستَطِيعُونَ أنْ يشُوكُوني بشَوكَةٍ لم يُرِدْني الله بها، فقَطَعْتُ نظَرِي عنْهُم.

ثُمَّ تَعلَّقْتُ بالأحِبَّاءِ فرأيْتُهُم لا يَسْتَطِيعُونْ أنْ ينْفَعُوني بشَيءٍ لم يُرِدْني الله به، فاشْتَدَّ إياسي منْهُم، وتعَلَّقْتُ بالله تَعَالى فقِيلَ لي: إنَّكَ لنْ تَصلَ إلى حَقيقَة هذا الأمْرِ حتَّى لا تشُكَّ فِينَا، وتَيْأسَ مِنْ غَيرِنَا أنْ يُعْطِيَكَ غَيرَ مَا قَسَمْناه لَكَ».

وقالَ مَرَّةً أخْرَى -رَحِمَه الله- لَمَّا سُئِلَ عَنِ الكِيمْياءِ، فقالَ: «أخْرِجِ الطَّمعَ مِنْ قَلبِكَ، واقْطَعْ يأسَكَ منْ ربِّكَ، أنْ يُعْطِيَكَ غيرَ ما قَسَم لَكَ».

وليسَ يدُلُّ على شِعارِ العَبدِ كثْرةُ عمَلِه، ولا مُداومَتُه على وِرْدِه، وإنَّما يدُلُّ على نُورِه غِنَاهُ بربِّه، وانْحِبَاسُه إلَيه بقلْبه، وتحرُّرُه مِنَ رِقِّ الطَّمَعِ، وتَحلِّيه بحلْيَة الوَرَعِ، وبذَلكَ تَحسُنُ الأعْمالُ، وتزكُو الأحوالُ. قالَ الله تَعَالى: ﴿إنَّا جعلْنَا مَا على الأرْضِ زِينَةً لها، لنَبْلُوَهُمْ أيُّهم أحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

فحُسْنُ الأعمالِ إنَّما هُوَ بالفَهْم عَن الله، والفَهْمُ هُوَ مَا ذكَرْناهُ مِنَ الاغْتناء بِالله، والاكْتِفَاء به، والاعْتِمادِ علَيه، ورفْعِ الحوائجِ إلَيه، والدَّوَام بينَ يدَيه، وكلُّ ذلكَ مِنْ ثَمَرَةِ الفَهْم عَنِ الله تَعالى.

وتَفَقَّدْ وجُودَ الوَرَعِ مِنْ نَفْسِكَ أكثرَ ممَّا تَتفَقَّدُ ما سِواهُ، وتَطَهَّرْ مِنَ الطَّمَعِ في الخلْقِ، فلو تَطَهَّرَ الطَّامعُ فيهِمْ بِسَبْعةِ أَبْحُرٍ ما طَهَّرهُ إلَّا اليأسُ مِنْهُم، ورفْعُ الهِمَّةِ عنْهُم.

وقَدِمَ عليُّ بنُ أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ البصْرةَ، فدَخلَ جامِعَها فوَجَدَ القُصَّاصَ يقُصُّونَ، فأقامَهُم حتَّى جاءَ إلى الحسَنِ البصْريِّ، فقال: يا فتَى، إنِّي سائِلُكَ عنْ شيءٍ، فإنْ أجَبْتَ عنه أبقَيْتُكَ، وإلَّا أقَمْتُكَ كما أقمْتُ أصْحابَك، وكانَ قَدْ رأى علَيهِ سَمتًا وهَدْيًا.

فقَالَ الحسَنُ: سَلْ عمَّا شِئْتَ. فقَالَ له عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما مِلاكُ الدِّينِ؟ قالَ: الوَرَعُ. قالَ: فما فسَادُ الدِّينِ؟ قالَ الطَّمَعُ. قال: اجْلِسْ، فمِثْلُكَ مَنْ يتكَلَّمُ على النَّاسِ[1].

وسَمِعْتُ شَيخَنا أبا العَبَّاسِ -رَحِمه الله- يَقُولُ: «كنتُ في ابْتِداءِ أمْري بثَغْرِ

---

(١) هذه القصة لم أجدها فيما اطلعت عليه من مصادر حديثية، وقولُه: «ملاكُ الدِّين الورعُ» حديثٌ أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٨)، والقضاعيُّ في «مسند الشهاب» (٤٠)، وغيرهما مِنْ حديث ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مرفوعًا، وفيه: سوارُ بنُ مُصْعَب وهو ضعيفٌ. وفي الباب عن السيدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

وقوله «مثلك من يتكلم على الناس» أي: أمام الناس.

الإسكندريَّة، فجئتُ إلى بَعْضِ مَنْ يَعْرِفُني، فاشتَريتُ منه حاجةً بنصفِ درْهم، ثمَّ قُلْتُ في نفسي: لعلَّه لا يأخُذه منِّي، فهتفَ بي هَاتفٌ: السَّلامةُ في الدِّين بتَرْك الطَّمَع في المخلوقِينَ»، وسَمِعتُه يقولُ: «صَاحِبُ الطَّمَعُ لا يشْبَعُ أبدًا، ألا ترى حرُوفَه كلَّها مُجوَّفةً؟ الطاءُ والميمُ والعينُ».

فعَلَيكَ أيُّها المريدُ برفْعِ همَّتكَ عن الخلْق، ولا تَذِلَّ همّ في شأنِ الرِّزْق، فقدْ سَبَقَتْ قِسْمَتُه وجُودَكَ، وتقدَّمَ ثُبوتُه ظُهُورَكَ، واسْمَعْ ما قالَ بعْضُ المشايخ: «أيُّها الرَّجُلُ: ما قُدِّرَ لماضِغَيْكَ أنْ يَمْضُغَاهُ، فلا بدَّ أنْ يَمْضُغاهُ، فكُلْهُ ويحك بعزٍّ ولا تأكُلْه بذُلٍّ».

اعْلَمْ أنَّ منْ عرفَ الله وثِقَ بضَمانِه وكفَالته، وأنَّه لا يكْمُل فهْمُ العبْدُ حتَّى يكُونَ بما في يدِ الله أوثقَ منْه بما في يدَيه، وبضَمانِ الحقِّ أوْثَقَ منه بضَمانِ الخلْقِ، ويكفيكَ جَهْلًا أنْ لا تكونَ كذَلِكَ.

ورأى بعضُهُم رجُلًا يُلازِمُ الجامعَ، ولا يخرُجُ عنه، فتعَجَّبَ منْ ملازَمتِه، وفكَّرَ في نَفْسِه منْ أينَ يأكُلُ؟ فقالَ له يومًا: مَنْ أينَ تأكُلُ؟ فقالَ له ذلكَ الرَّجُلُ: إنَّ لي صَاحِبًا يهوديًّا وعَدَني كلَّ يوم برَغيفَيْن، فهُو يأتيني بهما. فقال له: ذاكَ إذًا. فقالَ لهُ ذلكَ العارفُ: يا مسْكينُ! وثقتَ لي بوَعْدِ يهوديٍّ، ومَا وَثِقْتَ لي بوَعْدِ الله سُبْحَانه وتَعَالى؟ وهوَ الصَّادِقُ الوَعْدِ الذي لا يخلِفُ الميعَادَ؟ وقدْ قالَ تَعالى: ﴿وَمَا مِنْ دابَّةٍ فِي الأرْضِ إلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]. فاسْتَحْيَا منْه ذلكَ الرَّجُلُ وذَهَبَ.

وعنْ آخَرَ: أنَّه صَلَّى خَلْفَ إمام أيَّامًا، فقال لهُ الإمَامُ يومًا وقدْ تعَجَّبَ مِنْ مُلازَمته المسْجدَ وترْكه الأسْبابَ: مِنْ أينَ تأكُلُ؟ فقال: قفْ حتَّى أُعيدَ صَلاتي، فإنِّي لا أُصَلِّي خَلْفَ مَنْ شَكَّ في الله. والحكاياتُ في هَذا كثيرةٌ.

قِيلَ لعَليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: لوْ أنَّ إنْسَانًا أُدْخلَ بَيْتًا وَطُيِّنَ ذلكَ البيتُ عَليْه، مِنْ أينَ يأتيه رِزْقُه؟ فقَالَ: يأتِيهِ رزْقُه مِنْ حيثُ يأتيه أجَلُه[1]. فانْظُرْ هَذه الحُجَّةَ، ما أبْهرَهَا، وهذِه البَيِّنَةَ مَا أظْهَرَهَا!

وقولُ الشَّيخ رحمه الله تَعَالى: «ومِنَ التفكُّرِ والتَّدْبير في تَحصيله»: فالتَّفكُّرُ: أنْ تَسْتَحْضرَ في نفْسكَ أنَّه لا بُدَّ لكَ منْ غِذاءٍ يُقِيمُ بِنْيَتَكَ. والتَّدبيرُ: أنْ تقُولَ هُوَ مِنْ وجْهِ كَذا وكَذا لا، ولكِنْ هُو مِنْ وجهِ كَذا وكَذا، ويكثُرُ ذلكَ، ويتردَّدُ على القَلْبِ حتَّى لا تَدري إنْ كُنتَ مُصَلِّيًا ماذا صَلَّيتَ، أو تاليًا ماذا تَلَوْتَ، فَتَتَكَدَّرُ عليكَ تلكَ الطَّاعةُ التي أنتَ فيهَا، وتُحْرَمُ أنْوارَها، وتُمْنَعُ أسْرارَهَا.

فإذا أُوْرِدَ عليكَ ذلِكَ، فاهْدِمْ بناءَه بفَأْسِ الثِّقَةِ، ودُكَّهُ بوجُودِ اليقِينِ. واعْلَمْ -رحِمكَ الله- أنَّ الله تَعالى قَدْ تولَّى تدْبيرَكَ مِنْ قَبْلِ أنْ تكُونَ، وإنَّكَ إنْ أرَدْتَ نُصْحَ نفْسكَ فَلا تُدبِّرْ لهَا، فإنَّ التَّدْبيرَ منْكَ لها إضْرارٌ بها؛ إذْ ذاكَ ممَّا يُوجِبُ إحالتَكَ عليْكَ، ويَمنَعُ إمْدادَ اللُّطْفِ أنْ يَصلَ إليْكَ، والمؤْمنُ لا يدَعُه الحقُّ سُبْحانه وتَعالى لوجُودِ التَّدبيرِ ولَا لمنازَعَةِ المقَاديرِ.

فإنْ عَرَضَ ذلكَ عليكَ أو خَطرَ فلا تَثْبُتْ له، فإنَّ نورَ الإيمانِ لا يدَعُه

(١) نهج البلاغة (١/ ٤٩٩).

لذلك: ﴿وكَانَ حَقًّا علَيْنا نَصْرُ المؤمنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿بلْ نَقْذِفُ بالحقِّ على البَاطِلِ فيَدْمَغُهُ فإذَا هُو زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

***

عوارض تعرض بعد حصول الرزق

وقولُ الشَّيخِ رَحِمه الله: «ومِنَ الشُّحِّ والبُخْلِ بعدَ حُصُولِه»: فهذانِ مِنَ العوارِضِ بعدَ الحصُول، وهُما ينْشَآنِ عَنِ ضَعْفِ اليقِينِ، وعدمِ الثِّقَة، فحينَئذٍ يكونُ الشُّحُّ، ويقَعُ البُخْلُ، وقدْ ذمَّ الله تَعالى الشُّحَّ والبُخْلَ كِلَيهما في كتَابِه العزيزِ فقَالَ تَعالى: ﴿ومَنْ يُوقَ شُحَّ نفْسِه فأُولئِكَ هُمُ المفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩، التغابن: ١٦]، فمفْهُومُه أنَّ صاحبَ الشُّحِّ لا فَلاحَ لَه أيْ: لا نُورَ له، والفلاحُ هو النُّورُ.

وقالَ تَعالى في وصْفِ المنافِقينَ: ﴿أشِحَّةً على الخيرِ أولئِكَ لمْ يُؤْمِنُوا فأَحْبَطَ الله أعْمالَهُم﴾ [الأحزاب: ١٩]. وقالَ تَعالى: ﴿ومِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ الله لَئِنْ آتانَا مِنْ فضْلِه لنَصَّدَّقَنَّ ولَنكُونَنَّ مِنَ الصَّالحِينَ * فلمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِه بَخِلُوا بِه وتَولَّوْا وهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦]. وقالَ تَعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فإنَّما يَبْخَلُ عنْ نَفْسِه﴾ [محمد: ٣٨].

والبُخْلُ والشُّحُّ يُطْلَقُ عَلى أقْسَامٍ ثَلاثَةٍ: الأَوَّلُ: أنْ تَبْخَلَ بِما في يَدِكَ أنْ تَبْذُلَه في واجِباتِ الله تعالى. الثَّاني: أنْ تبْخَلَ بِه ولم يتَعلَّقْ بكَ الوجُوبُ على عِبادِ الله. الثَّالثُ: أنْ تَبْخَلَ بنفسِك أنْ تَبْذُلَها لله تَعالى[1].

---

(١) يقول سيدي عمر بن الفارض رضي الله عنه:
ومَن لم يَجُدْ في حُبِّ نُعْمَ بِنفسِهِ * ولو جاءَ بالدُّنيا إليه انتهَى البُخلُ

والبُخْلُ الأوَّلُ: هُوَ أنْ تبْخَلَ فَلا تُؤتي الزَّكاةَ وقَدْ خُوطِبْتَ بها، أوْ لا تَقُومَ بِحقٍّ وقدْ تَعيَّنَ عليكَ مِنْ نَفَقاتِ الأبَوَينِ في فَقْرِهِمَا والأوْلادِ في فَقْرِهِم، وصِغَرِهِمْ، وكَنَفَقاتِ الزَّوْجاتِ.

وبالجمْلةِ: فكلُّ حقٍّ أوجبَ الله عليكَ القيامَ به فتَخَلُّفُكَ عنه مِمَّا يُطْلِقُ عليكَ لِسَانَ الذَّمِّ، وتَسْتَحِقُّ به العُقُوبةَ، وفي ذلِكَ جاءَ قولُه تَعالى: ﴿والَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهبَ والفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَها في سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أليمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

قالَ أهْلُ العِلْمِ: الكنْزُ هو المالُ الَّذي لا تُؤَدِّي زكَاتَه، فإذا أدَّيْتَ زكاتَه لا يكُونُ كنْزًا، معنَاهُ: لا يدخُلُ تحتَ هذا الوَعِيدِ ولا يُطلِقُ عليه لِسَانَ الذَّمِّ.

القِسْمُ الثَّاني: البُخْلُ بالبَذْلِ فِيما لم يتَعلَّقْ به الوجُوبُ، كمنْ أخْرجَ زَكاةَ مالِه، ثُمَّ لم يَبذُلْ مِنْه شَيئًا بَعْدَ ذلكَ، وهَذا وإنْ كَانَ قدْ فَعَلَ مَا أمرُه الله تعالى به مِنْ إخْراجِ ما وجَبَ عليه، فَينْبغِي أنْ لَا يَقْتَصِرَ عليه، فإنَّ الاقْتِصَارَ على الواجباتِ، وتَرْكَ نوافلِ الخيراتِ إنَّما هُوَ حالُ الضُّعفاءِ(١).

فلا ينْبغِي للمُؤْمِنِ المعتَني بإصْلاحِ شَأنِه معَ الله تَعالى أنْ يَتْرُكَ مُعامَلةَ الله تَعالى فِيمَا لم يوجِبْه الله عليه؛ فإنَّه إنْ كانَ كذلِكَ، كانَ حالُه كمَنْ يُصَلِّي الفَرائِضَ

---

(١) هذا وقد جاء في الحديث عنه ﷺ: (في المال حق سوى الزكاة)، وإلى هذا يتوجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥] وقوله: ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ [الذاريات: ١٩]. قال العلماء: فالمعلوم هو الزكاة المفروضة، والذي لم يوصف بأنه معلوم هو ما كان زائدا عن الزكاة، وكلاهما حق.

ولا يَقُومُ برواتبِهَا. ويكْفيكَ أيُّها العَبدُ قولُه تَعَالى فِيمَا حكَاهُ عنه رسُول الله ﷺ: (مَا تقَرَّبَ إليَّ المتقَرِّبونَ بِمِثْلِ أداءِ ما افْتَرَضْتُ عليْهِمْ، ولا يزَالُ عبدِي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أحِبَّه، فإذَا أحْبَبْتُه كنْتُ لهُ سَمْعًا وبَصَرًا، ولِسَانًا، وقَلْبًا، وعَقْلًا، ويَدًا، ومُؤَيِّدًا)(١).

فقَدْ بيَّنَ سُبْحانَه وتَعالى أنَّ تَكْرارَ النَّوافِلِ، والقِيامَ بها يُوجِبُ للعَبْدِ وجُودَ الحبِّ مِنَ الله تعَالى، والنَّوافلُ كُلُّ مَا لم يَطْلبْكَ بها لِسَانُ إيجابٍ مِنْ صَلاةٍ أو صَدقةٍ أو حَجٍّ أو غيرِ ذلِكَ.

ومثلُ القَائمِ بالفَرائضِ مِنَ الصَّلواتِ المقْتَصرِ عَليهَا، والقَائمِ بها وبالنَّوافِلِ، أوِ المخْرجِ لِلزَّكاةِ المقتَصرِ عليهَا، والمخْرِجِ لها والمؤْثِرِ مَعَها، كعَبْدَيْنِ لسَيِّدٍ جَعَلَ علَيْهِما كلَّ يومٍ خَراجًا على كُلِّ عبْدٍ دِرْهَمَيْنِ.

فأمَّا العَبْدُ الواحدُ، فإنَّه يَأْتي للسَّيِّدِ بذلِكَ ولا يَزِيدُ عليهِ شَيْئًا، ولا يُهادِيه ولا يُوَادِدُهُ.

وأمَّا العبدُ الآخَرُ فإنَّه يقُومُ للسَّيِّدِ كلَّ يومٍ بما قامَ به صَاحِبُه، لكنْ يَشْتَرِي مِنَ الطُّرَفِ والفَواكِهِ ما يُهْدِي إلى سَيِّدِه زائدًا عَنْ خَراجِه.

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٦٥٠٢)، وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا بلفظ: «مَن عادَى لي وَليًّا فقد آذنتُه بالحرب، وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبُّ إليَّ ممَّا افترضتُ عليه...» الحديث، وللسيد عبدالعزيز بن الصِّدِّيق رسالتان في هذا الحديث رد فيهما على من تكلم على هذا الحديث وهما: «إثبات المزية بإبطال كلام الذهبيِّ في حديث «مَن عادى لي وليًّا»، و«إظهار ما كان خفيًّا في حديث من عادى لي وليًّا».

فَهَذا العَبدُ لا محالةَ أحْظَى عِنْدَ السَّيِّدِ، وأوْفرُ نَصيبًا منَ الحبِّ، وأقربُ إلى إقبال السَّيِّدِ؛ لأنَّ العبدَ القَائمَ بما خُورِجَ عليه غيرَ مُتودِّدٍ للسَّيِّد، وإنَّما أعْطَاهُ إشْفاقًا مِنْ عُقُوبَتِه. والعَبْدُ الَّذي أعْطَى لسَيِّدِه ما خَارَجَهُ عليه، وهَاداهُ بعْدَ ذلِكَ، فهُوَ قدْ سَلَكَ مَسْلَكَ التَّودُّدِ للسَّيِّدِ والتَّعَرُّضِ لحبِّهِ فهُوَ حَرِيٌّ أنْ يظْفَرَ بقُرْبِه وحبِّه.

وإنَّما جَعَلَ الحقُّ تَعَالى الإيجابَ عَلى العِباد عِلمًا منْهُ بما هُمْ عليهِ مِنْ وُجُودِ الضَّعْفِ، وبما نفُوسُهم متَّصِفةٌ بِه مِنْ وجُودِ الكَسَلِ، فأوْجَبَ عليهِمْ ما أوْجَبَ؛ لأنَّه لوْ خَيَّرَهُمْ فِيما أوْجَبَ علَيهِمْ لم يكُونُوا بِه قائِمِينَ إلَّا قَليلًا، ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، فأوْجَبَ عليهِم وجُودَ طَاعتِه، وفي التَّحْقيقِ ما أوْجبَ علَيهِمْ إلَّا دُخُولَ جَنَّتِه، فسَاقَهُم إلى الجنَّةِ بِسَلاسِلِ الإيجابِ، (عَجبَ ربُّكَ مِنْ قَوْمٍ يُسَاقُونَ إلى الجنَّةِ بالسَّلاسِلِ)[1].

***

تنْبيهٌ وإعْلامٌ: اعْلَمْ رَحِمَكَ الله أنَّا تلَمَّحْنَا الواجباتِ فرأيْنا الحقَّ تَعَالى جَعَلَ في كُلِّ مَا أوْجَبَه تطَوُّعًا مِنْ جنْسِه في أيِّ الأنْواع كانَ، ليكُونَ ذلكَ التَّطوُّعُ في ذلِكَ الجنْسِ جابرًا لما عسَاهُ أنْ يقَعَ مِنَ الخلَلِ في قيام العبدِ بالوَاجبَاتِ. وكذلكَ جاءَ في الحديثِ: (إنَّه يُنْظَرُ في مفْرُوضِ صَلاةِ العبدِ فإنْ نَقَصَ منْها شيءٌ كُمِّلَ لَه مِنَ النَّوافِلِ)[2]، فافْهِمْ رحِمكَ الله هَذا، ولاتكُنْ مُقْتصِرًا على ما فرَضَ الله تَعالى

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٠١٠)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٩٤٩٤)، وأبو داود (٨٦٤)، والترمذيُّ (٤١٣)، والنَّسائيُّ في «المجتبى» (٤٦٥)=

عليكَ، بلْ لِيكُنْ فيكَ ناهِضَةُ حبٍّ توجِبُ إكبابَكَ على مُعامَلَةِ الله فِيما لم يُوجِبْه عليكَ.

ولو كانَ العِبادُ لا يجِدُونَ في موازِينِهمْ إلا فِعْلَ الواجِباتِ، وثوابَ تركِ المحرَّماتِ، لفاتَهمْ من الخيرِ والمِنَّةِ ما لم يحْصُرْه حاصِرٌ، ولا يَحْزُرْهُ حازِرٌ، فسُبْحَانَ الفاتِحِ لِلْعِبَادِ بابَ المعَامَلةِ، والمبيِّنِ لهم أسْبابَ المواصَلةِ.

واعْلَمْ أنَّ الحقَّ تعَالى عَلِمَ أنَّ في عبادِهِ ضُعَفَاءَ وأقْوِياءَ، فأوْجبَ الوَاجبَاتِ وبيَّنَ المحَرَّماتِ؛ فالضُّعَفَاءُ اقْتَصرُوا على الواجِبَاتِ، والتَّرْكِ لِلمحرَّماتِ، وليسَ في قُلوبِهِم مِنْ سُلطَانِ الحبِّ ووجُودِ الشَّغَفِ ما يحمِلُهُمْ على المعَامَلةِ مِنْ غيرِ إيجابٍ، فمَثَلُهُم كَمَثَلِ العبدِ الَّذي يَعْلمُ السَّيِّدُ منْهُ أنَّه إنْ لم يخارِجْه لم يُهْدِ إليه شَيئًا.

فلِذلكَ وقَّتَ سُبْحانَه وتعالى الأوْرادَ، ووَظَّفَ وظائِفَ العُبودِيَّة، وعرَّفَ ذلِكَ بالطَّالع والغَارِبِ والزَّوَال وصَيرُورةِ كلِّ شيءٍ مِثْلَه في الصَّلاةِ، وبالحوْلِ في الأمْوال النَّاميةِ في العَينِ والحرْثِ والماشِيةِ، وبوقتِ حُصُول المنفَعة في الزَّرْع ﴿وآتُوا حقَّه يومَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وبعشْرِ ذي الحجَّة في الحجِّ، وبشَهرِ رَمضَان في الصِّيامَ، فوظَّفَ الوظَائفَ، ووقَّتَها، وجعَلَ لِلنُّفُوسِ فيما سِواهَا فُسْحَةً للحُظُوظِ والسَّعْي في الأسْبابِ.

=وفي «الكبرى» (٣٢٢)، وابن ماجه (١٤٢٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: «فإن انتقصَ مِن فريضته شيءٌ، قال الربُّ عزَّ وجلَّ: انظروا هل لعبدي مِن تَطوُّعٍ؟! فيُكَمَّلُ بها ما انتَقصَ مِن الفريضة، ثُمَّ يكون سائرُ عَمَلِه على ذلك».

وأهلُ الله تَعالى وأهْلُ الفَهْم عنه جَعَلُوا الأوْقاتَ كلَّهَا وقتًا واحدًا، والعُمُرَ كلَّه نَهجًا إلى الله قاصِدًا، فعلِمُوا أنَّ الوقْتَ كلَّه لَه، فلمْ يجْعَلُوا مِنهُ شيئًا لغَيره، ولذَلِكَ قال الشَّيخُ أبو الحسَن -رحمه الله-: «عليْكَ بورْدٍ واحِدٍ، وهُوَ إسْقاطُ الهوَى ومحبَّةُ المَوْلى، أبتِ المحبَّةُ أنْ تَسْتَعْمِلَ مُحبًّا إلَّا فيما يُوَافِقُ محْبُوبَه».

وعلِمُوا أنَّ الأنْفاسَ أماناتُ الحقِّ عنْدَهُم، وودائِعُه لديْهم، فعلِمُوا أنَّهم مُطَالبُونَ برعايَتِها فوجَّهُوا هِمَمَهُم لِذَلِكَ.

وكَما أنَّ له الرُّبوبيَّةَ الدَّائمَةَ كَذَلكَ حُقُوقُ ربُوبيَّتِه عليكَ دائِمةٌ، فرُبوبيَّتُه عليكَ غيرُ مُؤَقَّتَة بالأوْقاتِ، فحُقوقُ ربُوبيَّتِه يَنْبغِي أنْ تكُونَ أيضًا كذَلِكَ. يقولُ الشَّيخُ أبو الحسَنِ رَحِمه الله: «فإنَّ لِكُلِّ وَقْتٍ سَهْمًا في العُبُوديَّةِ يقْتضِيه الحقُّ مِنْكَ بِحُكْمِ الرُّبوبِيَّة».

ولْنَحْبِسْ عنانَ المقَال لِئَلَّا نَخْرُجَ عنْ غَرَضِ الكِتَابِ.

القِسْمُ الثَّالثُ مِنْ أقْسام الإيثَارِ، وهُو الإيثَارِ بالنَّفْسِ: فهَذا هُوَ أفْضَلُ الوجُوهِ الثَّلاثة، وإنَّما أُوثِر بغَيْرِه لأجْله، فَمَنْ آثَرَ الله تَعَالى بما أوْجَبهُ عليه، قَدْ لا يؤْثِرُه بما في يدَيه ممَّا لم يُوجِبْهُ عليه، ومَنْ آثَرَ الله تَعَالى بما في يَدَيْه ممَّا لم يُوجِبْه عَليْهِ، فقَدْ لا يؤْثِرُه بنفسِه ولا يَسْخُو ببَذْلها، فإنَّ السَّخاءَ بالنَّفْسِ والبَذْلَ لها مِنْ أخلاقِ الصِّدِّيقِينَ، وشَأنِ أهلِ اليقينِ، الذينَ عَرفوا الله تَعَالى فبَذلُوا له نُفُوسَهُم؛ عِلْمًا منْهُم أنَّ العبدَ لا يَمْلكُ معَ السَّيِّدِ شيئًا، وإذا كَانَ الإيثَارُ بالنَّفْسِ هُوَ أكمَلُ الوُجُوهِ فيكُونُ البُخْلُ بها أقْبحَ الوجُوه.

فقَدْ تَبيَّنَ مِنْ هذا قولُ الشَّيخ: «ومِنَ الشُّحِّ والبُخْلِ بعدَ حُصُولِه» على طَريقِ الإلماحِ لا الاسْتِقْصَاءِ، فإنَّ الكتابَ غيرُ مَوضُوعٍ لهذا المغنَى.

***

عوارض تعرض بعد حصول الرزق ونفاده

القِسْمُ الثَّالثُ مِنْ أقْسَامِ العَوَارِضِ في شَأنِ الرِّزْقِ:

فإنَّا ذكَرْنا أنَّ العَوارِضَ التي تَعْرِضُ في شَأنِ الرِّزْقِ على ثَلاثةِ أقْسَام: عَوارِضُ قبلَ الحصُولِ، وعوارِضُ في حينِ الحصُولِ؛ وقد تقَدَّمَ ذكْرُهُما في كَلامِ الشَّيخِ فيهِما، وبيَّنَّا نَحْنُ ذلِكَ. وعَوارِضُ بعْدَ حُصُولِه ونَفَاذِه مِنَ الأسَفِ والندم عليه، ودَوامِ التَّطَلُّعِ إليه.

فينْبغِي أنْ تَطْهُرَ منْها أيضًا، واسْمَعْ قولَه تَعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقَوْلَ النَّبيِّ ﷺ لَمَّا تُوفِّيَ ولدٌ لإحْدَى بَناتِه، قالَ ﷺ: (أعْلِمْهَا أنَّ لله مَا أخَذَ، ولهُ مَا أعْطَى)[(١)].

ومَنْ أسِفَ على فقْدِ شَيْءٍ دُونَ الله تَعَالى فقَدْ نادَى على نَفْسِه بوجُودِ الجهْلِ وثباتِ القَطيعَةِ؛ إذْ لوْ وجَدَ الله لم يفْقِدْ شيئًا دُونَه، فمَنْ وجَدَ الله فلا يجِدُ شَيئًا دونه حتَّى يكُونَ لهُ فَاقِدًا. وليَعْلم العبدُ أنَّ مَا فاتَه ليسَ له برزْقٍ، وما كانَ عندَه ففقَدَهُ فليسَ لَه؛ لأنَّه لو كانَ رزْقَهُ ما ذهبَ عنه إلى غيرِه، بلْ كان عاريةً عندَه، أخذَ العَاريَةَ مَنْ أعارَها، واسترْجعَ الشَّيءَ مَنْ أوْجَدَهُ.

---

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (١٢٨٤)، ومسلمٌ (٩٢٣)، وغيرهما من حديث أسامة بن زيد رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا مرفوعًا.

وكانَ لبَعْضِهِمْ ابنةُ عمٍّ مُسَمَّاةً عليهِ مِنَ الصِّغَرِ، فلمَّا كَبُرَ جَرَى ما مَنَعَ زَواجَه إيَّاهَا، ثُمَّ تزَوَّجتْ بزَوْجٍ غيرِه، فجاءَ إليهِ بعضُ أهْلِ الفَهْمِ، وقالَ له: يَصْلحُ لكَ أنْ تَعْتَذِرَ إلى هذا الزَّوْجِ الذي تزوَّجَ ابنةَ عمِّكَ؛ إذْ كنتَ أنتَ المتطَلِّعُ لزَوْجتِه؛ إذْ هيَ زَوْجتُه في الأزَلِ.

وكفَى بالمؤْمِنِ تحذُّرًا مِنَ النَّدمِ على ما فاتَ قولُ الله تَعَالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يعبدُ الله عَلى حَرْفٍ فإنْ أصَابَهُ خَيرٌ اطْمأنَّ به وإنْ أصَابتْهُ فتْنةٌ انْقلَبَ على وجْهِه خَسرَ الدُّنْيَا والآخِرَة، ذلِكَ هُو الخُسْرانُ المبِينُ﴾ [الحج: ١١].

فقَدْ ذمَّ الحقُّ تعالى مَنْ يسْكُنُ للأشْياءِ في حِينِ وَجْدِها. ألا تراهُ كيفَ قالَ: ﴿فإنْ أصَابَهُ خيرٌ اطْمأنَّ بهِ﴾، أيْ: اطْمَأنَّ بذلِكَ الخيرِ، ولو فَهِمَ لما اطْمأنَّ بشيءٍ دونَ الله تَعَالى، ولَكَانتْ طُمَأْنِينَتُه بالله وحْدَهُ[1]، وكذلِكَ مَنْ يحزَنُ عليهَا عندَ فَقْدِهَا، لقَولِه تَعَالى: ﴿وإنْ أصَابَتْه فِتْنةٌ﴾، والفِتْنةُ فقْدُ ذلِكَ المشْتَهَى الذي كانَ إليْه سَاكِنًا، ﴿انْقَلَبَ عَلى وجْهِهِ﴾ أيْ: دُهِشَ عَقْلُه، وذُهِلَتْ نفسُه وغَفَلَ قَلْبُه، ومَا ذلِكَ إلا لِعدَمِ معْرِفتِه بالله تَعَالى، ولوْ عَرَفَ الله تَعَالى أغْناهُ وجُودُه عَنْ كُلِّ مَوجُودٍ، واسْتَغْنى به عَنْ كُلِّ مَفقُودٍ، ومَنْ فَقَدَ الله لم يجِدْ شَيئًا، ومَنْ وجَدَهُ لم يَفْقِدْ شَيئًا. وكيْفَ يفْقِدُ شَيئًا مَنْ يجِدُ مَنْ بيَدِه مَلكُوتُ كُلِّ شَيءٍ؟! وكيفَ يفْقِدُ شيئًا مَنْ وجَدَ الموجِدَ لكُلِّ شيءٍ؟! وكيفَ يَفْقِدُ شيئًا مَنْ وجَدَ الظَّاهِرَ في كُلِّ شيءٍ؟!

(١) ولعل هذا من أسمى معاني قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ [الرعد: ٢٨].

فما سوَى الله تَعَالى عندَ أَهْلِ المعرفَة لا يَتصفُ بوُجْدٍ ولا بفَقْدٍ؛ إذْ لا يُوجَدُ غَيرُهُ معَهُ؛ لثُبوتِ أحدِيَّته، ولا فَقْدَ لغَيرِه؛ لأنَّه لا يُفْقَدُ إلَّا مَا وُجِدَ، ولو انهتَكَ حجَابُ الوَهْمِ لوقَعَ العِيانُ عَلى فقدِ الأعْيانِ، ولأشْرَقَ نورُ الإيقانِ فَغَطَّى وُجُودَ الأكْوَانِ.

وإذا قَدْ فَهِمْتَ هذا فيَنْبغِي لكَ أيُّها العبدُ أنْ لا تأسَى على فَقْدِ شيءٍ، وأنْ لا تَرْكنَ بوجُودِ شَيءٍ، فإنَّ مَنْ وجَدَ شيئًا فرَكَنَ إليهِ أو فقَدَ شيئًا فحَزِنَ عليهِ فقدْ أثبتَ عُبوديَّتَه لذلكَ الشَّيءِ الذي أفرَحَه وجُودُه، وأحزَنَه فقْدُه.. وافْهَمْ ههُنَا قولَهُ ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تعِسَ عَبدُ الخَميصَةِ، تَعِسَ وانْتَكَسَ وإذا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ)[1]، فلا تَحكَّمْ في قلبكَ أيُّها المؤمنُ شيئًا إلا حُبَّ الله وَوُدَّهُ، فإنَّك أشْرَفُ مِنْ أنْ تكونَ عبدًا لغَيرِه، فقَدْ جَعلَكَ عبدًا كريمًا، فلا تكُنْ عبدًا لئيمًا.

وقَدْ أبى لأهْلِ الفَهْمِ عَنِ الله تَعَالى فَهْمُهُم أنْ يرْكَنُوا لوُجْدٍ أوْ يَتطلَّعُوا لفَقْدٍ، حِفْظًا لعُبودِيَّتِهم وتَصْحيحًا لحرِّيَّتِهم عما سِواهُ. وسَمِعْتُ شَيْخَنا أبا العبَّاسِ رَحمَه الله يَقُولُ: «الكائنُ في الحال عَلى قِسْمَينِ، عَبْدٌ هُوَ في الحال بالحال، وعبدٌ هُو في الحالِ بالمحَوِّل. والَّذي هُوَ في الحال بالحال: هُوَ عبدُ الحال الذِي يفْرَحُ بها إذا وَجدَهَا، ويحزَنُ عليهَا إذَا فقَدَها. وعبدٌ هوَ في الحال بالمحَوِّل: فذلكَ عبْدُ الله لا عبدُ الحالِ، وهُوَ الَّذي لا يأسى عليها إذا فَقَدَها، ولا يفرَحُ إذا وَجدَهَا».

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٨٧)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا.

فقَولُه تَعالى: ﴿ومِنَ النَّاسِ مَنْ يعبُد الله عَلى حَرْفٍ﴾ أيْ: على وِجْهَة واحدةٍ، فإنْ زالتْ، زالتْ طاعتُه وانْفَصَلَتْ موافَقَتُه، ولوْ فَهِمَ عنَّا لعَبَدَنا على كُلِّ حَالةٍ وفي كُلِّ وِجْهةٍ، كَما أنَّه ربُّكَ تعالى في كُلِّ حَال كذَلِكَ، فكُنْ له عَبدًا في جَميعِ الأحْوال.

فقَولُه سُبْحَانَه وتَعَالى: ﴿فإنْ أصَابَه خيرٌ اطْمأنَّ به﴾ أيْ: إنْ أصَابَه خَيرٌ مِمَّا يلائِمُ نفسَه هُو في نَظَرِه خَيرٌ، وقَدْ يكونُ شَرًّا في نفْسِ الأمْرِ، ﴿وإنْ أصَابتْهُ فتْنةٌ انقَلبَ﴾ أيْ: فقَدَ ذلِكَ الخيْرَ الَّذي كانَ به مُطْمَئِنًّا، وسَماهُ فتْنةً ؛ لأنَّ في الفَقْدِ اختبارَ إيمانِ المؤمِنِ، وفي الفَقْدِ يَظْهرُ أحْوالُ الرِّجَال.

فكَمْ منْ ظَانٍّ أنَّ غِناهُ بالله، وإنَّما غِنَاهُ بوجُودِ أسْبابه، وتَعْدادَات اكتِسَابه، وكَمْ مِنْ ظَانٍّ أنَّ أُنسَهُ بربِّه، وإنَّما أنْسُهُ بحَاله، دليلُ ذلِكَ فُقْدانُه لأنْسه عندَ فُقْدانِ حَالِه، فلَوْ كَانَ أنْسُهُ بِربِّه، لدَامَ أُنسُهُ بدَوامِه، ولبَقِيَ ببَقَائه.

وقَولُه تَعَالى: ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا والآخِرَةِ﴾: خَسِرَ الدُّنْيا بفُقْدانِ ما أرادَ منْهَا، وخَسِرَ الآخِرَةَ؛ لأنَّه لم يعْمَلْ لها، فَقَدْ فاتَه ما طَلَبُه وهُوَ مَا طَلبْنَا حتَّى نكُونَ لَه، فافْهَمْ.

***

[أمثلة التدبير مع الله]

فَصْلٌ: نذْكُرُ فيه أمْثِلَةَ التَّدْبير مَعَ الله، والمدَبِّرينَ معَه، وأمْثِلَةَ الرِّزْقِ وضَمانَ الحقِّ تَعَالى لَهُ، فإنَّ بالمثَال يتَبَيَّنُ الحَالُ.

مثَلُ المدبِّرِ معَ الله، كَمَنْ بنَى بناءَهُ عَلى شَاطِئِ البَحْرِ، كلَّما اجْتَهدَ في بنائِه، كثُرَتْ عليه الأمْواجُ، فتدَاعى جَميعُ أنْحائِه. كذلِكَ المدَبِّرُ معَ الله تَعَالى، يَبْنِي مَبَانِيَ التَّدْبيرِ؛ وتهدِمُها وَارِدَاتُ المقادِيرِ، لأجْلِ ذلِكَ قِيلَ: «يدَبِّرُ المدَبِّرُ، والقَضَاءُ يَضْحَكُ». وقالَ الشَّاعِرُ:

مَتَى يَبْلُغُ البُنْيانُ يومًا تَمامَه * إذَا كُنْتَ تَبْنِيه وغيرُكَ يَهْدِمُ

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ المدَبِّرِ مع الله تَعَالى كرَجُلٍ جاءَ إلى رِمَال مُتراكِمَةٍ، فوضَعَ عليْهَا بناءَهُ فَجَاءَتِ العَوَاصِفُ فنَسَفَتْ الرِّمالَ، فتهدَّمَ ما بنَاهُ، كَما قِيلَ:

وعهُودُهُمْ بالرَّمْلِ قدْ دَرَسَتْ * وكَذاكَ مَا يُبنَى على الرَّمْـــلِ

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ المدَبِّرِ معَ الله تَعالى، كمَثَلِ ولدٍ سَافَرَ مَعَ والدِهِ، فسَارَا لَيْلًا، والأبُ لإشْفاقِه على الولدِ يُراقِبُه مِنْ حيثُ لا يَراهُ الوَلَدُ، والولدُ لا يَرَى الوالدَ للظُّلْمَةِ الحائلَةِ بينَهُما، فالولدُ مهْمُومٌ بأمرِ نفسِه كيفَ يفْعَلُ في شَأنِه، فإذا طلَعَ القَمَرُ ورأى قُرْبَ الأبِ منْهُ سَكَنَ جَأْشُهُ، وهَدأَ رَوْعُهُ؛ لأنَّه رأى قُرْبَ أبيهِ منْه فاغْتَنى بتَدْبيرِه لهُ عنْ تدْبيرِه لنَفْسِه.

كذلكَ المدبِّرُ معَ الله تَعالى لنَفْسِه، إنَّما دَبَّرَ لأنَّه في ليلِ القَطيعة، فلمْ يشْهَدْ قُرْبَ الله تعالى مِنْه، فلَوْ طلَعَ قمَرُ التَّوحيدِ، أو شَمْسُ المعرفَةِ، لرأى قُرْبَ الحقِّ تَعَالى مِنْهُ، فاسْتَحْى أنْ يُدَبِّرَ معَهُ، واغْتَنَى بتَدْبيرِ الله تَعَالى لَه، عَنْ تَدْبيرِه لنَفْسِه.

مثالٌ آخَرُ: التَّدْبيرُ شَجرَةٌ تُسْقَى بماءِ سُوءِ الظَّنِّ، وثَمَرَتُها القَطيعةُ عنِ الله تَعَالَى، إذْ لَوْ حَسَّنَ العبْدُ ظنَّهُ بربِّه لماتَتْ شَجرَةُ التَّدْبيرِ مِنْ قَلْبه لانْقطاعِ غذَائِها، وإنَّما كانَ ثمرتُها القَطيعةُ عنِ الله تعالى؛ لأنَّ مَنْ دَبَّرَ لنَفْسه فقَد اكتَفى بعَقْله ورَضِيَ بتَدْبيرِه، واحْتالَ على وجُودِه، فعقُوبَتُه أنْ يُحالَ عليْه، وأنْ يُمْنَعَ وارداتِ المِنَنِ أنْ تَصِلَ إليهِ.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ المدبِّرِ معَ الله كعبْدٍ أرْسَلَهُ سيِّدُه إلى بَلدٍ له ليَصْنَعَ لهُ فيهَا قماشًا، فدَخَلَ العَبْدُ تلْكَ البلدةَ، فقالَ: أينَ أسْكُنُ؟ ومَنْ أتزَوَّجُ؟ فاشْتَغَلَ بذَلِكَ، وصَرَفَ همَّتَه لما هنالِكَ، وعَطَّلَ ما أمَرهُ به السَّيِّدُ حيثُ دعَاهُ سيِّدُه إليْه، فجزاؤُه منْ سَيِّده أنْ جازَاه بالقَطيعةِ ووجُودِ الحجْبَةِ؛ لاشْتِغَالِه بأمْرِ نَفْسه عَنْ حقِّ سيِّده.

كذلَكَ أنْتَ أيُّها المؤمِنُ، أخْرجَكَ الحقُّ إلى هَذِه الدَّارِ، وأمرَكَ فيها بخِدْمته، وقامَ لك بوجُودِ التَّدْبيرِ لكَ منه، فإنِ اشْتَغَلْتَ بتدبيرِ نَفْسِكَ عنْ حقِّ سَيدِكَ، فقدْ عَدَلْتَ عنْ سَبيلِ الهُدَى وسلَكْتَ مَسْلَكَ الرَّدَى.

مثالٌ آخَرُ: مثَلُ المدَبِّرِ معَ الله تَعَالى والَّذي لا يُدَبِّرُ كَعبدَيْنِ لمالِكٍ، أمَّا أحدُهُما فمُشْتَغِلٌ بأوَامِرِ سيِّده ولا يلتفتُ إلى مَلْبَسٍ ولا مَأكلٍ، بلْ إنَّما تَهمُّه

خِدْمَةُ السَّيِّدِ فأَغْفَلَه ذلِكَ عن التَّفرُّغِ لحظُوظِ نَفْسِه، ومهمَّاتها. وعبدٌ آخَرُ: كيْفَما طلبَه السَّيدُ وجَدَه في غَسْلِ ثِيابِه، وسِياسةِ مركُوبِه، وتحسِينِ زيِّه.

فالعَبدُ الأَوَّلُ أوْلى بإقْبال السَّيِّدِ مِنَ العَبْدِ الثَّاني، المشْتَغِلِ بحُظُوظِ نَفْسِه، ومُهِمَّاتِها عنْ حقُوقِ سيِّدِه، والعَبدُ إنَّما اشْتُرِي للسَّيِّدِ لا لِنَفْسِه.

وكذلِكَ العَبدُ البصِيرُ، لا تَراهُ إلَّا مَشْغُولًا بحقُوقِ الله تعَالى ومُراقبَةِ أوامِرِه عَنْ محابِّ نفْسِه، ومُهِمَّاتِهَا، فلمَّا كانَ كذلِكَ قامَ له الحقُّ تَعَالى بكُلِّ أمْرِه، وتوجَّهَ له بجَزِيلِ عطَائِه؛ لصِدْقِه في توكُّلِه: ﴿ومنْ يتوكَّلْ على الله فَهُو حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

والغافِلُ ليسَ كذلِكَ، لا تجِدُهُ إلَّا في تَحصِيلِ أسْبابِ دُنْياهُ، وفي الأشْياءِ التي تُوصِّلُه إلى هَواهُ، قائمًا بوُجُودِ التَّدْبيرِ منْ نَفْسِه لنَفْسِه، مُحَالًا عليهَا، مَقْطُوعًا به عنْ وجُودِ حُسْنِ الثِّقَةِ وصِدْقِ التوكُّلِ.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ المدبِّرِ معَ الله تَعَالى كالظِّلِّ المنْبَسِطِ في عَدَمِ اسْتِواءِ الشَّمْسِ فإذا اسْتَوَتْ الشَّمسُ فنِيَ ذلِكَ الظِّلُّ حتَّى لا يَبْقَى منْهُ إلا بَقِيَّةُ رسْمٍ لا تمحُوهُ المقابَلَةُ، كذلِكَ شَمْسُ المعْرِفَةِ إذا قابَلَتِ القُلوبَ محَتْ منها وجُودَ التَّدْبيرِ إلَّا بَقَاءَ رسْمٍ مِنَ تَدْبيرِ العبدِ أُبْقِيَ فيه ليَجْرِيَ عليه التَّكليفُ.

مثالٌ آخَرُ: مثَلُ المدبِّرِ معَ الله تَعَالى لنَفْسِه، كَرَجُلٍ باعَ دارًا، أو عَبْدًا، ثُمَّ بعدَ المبايَعَةِ وإتْمامِهَا جاءَ البائعُ إلى المشتَرِي، فَقَالَ لَه: لا تَبْنِ فيهَا شيئًا، أو اهْدِمْ

منهَا بيتَ كذا، أو افْعَلْ فيها كَذَا. أوْ جاءَ البائعُ ليفعلَ ذلكَ فيُقالُ له: أنتَ قدْ بِعْتَ، وليْسَ لَكَ بَعْدَ البيعِ تصرُّفٌ فيها بِعْتَه؛ إذْ ليسَ بعدَ المبايعةِ منازَعةٌ، وقدْ قالَ سُبحَانَه وتَعَالى: ﴿إنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المؤمِنينَ أنْفُسَهُم وأمْوالَهم بأنَّ لهمُ الجنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

فعلَى المؤمِنِ أنْ يسَلِّمَ نفسَه لله ومَا انْتسبَ إليها؛ لأنَّه أنشَأَهَا ولأنَّه اشْتراهَا، ومِنْ لازِمِ التَّسْليمِ تركُ التَّدْبيرِ لما أنتَ له مُسَلِّمٌ كما بيَّناهُ.

وأمَّا الرِّزْقُ فمِثالُ رزْقِ العبْدِ في هَذه الدَّارِ كمَثَلِ سَيِّدٍ قالَ لِعَبْدِه: الزَمْ هَذِه الدَّارَ قائمًا فيهَا بِخِدْمةِ كَذا، فلَمْ يكُنْ للسَّيِّدِ ليأمُرَه بذلِكَ إلَّا وهُو يُطْعِمُه ويَسْقِيه ويُكْسِبُه ويقُومُ له بوجُودِ الكفَايةِ ولا يهْمِلُه منَ الرِّعايةِ.

كذلِكَ العبدُ أمَرَهُ الله تَعَالى في الدُّنْيا بالطَّاعةِ والموَافقَةِ، وضَمِنَ له وجُودَ القِسْمةِ، فلْيَقُمِ العَبدُ بخَدْمتِه، فإنَّ السَّيِّدَ قائمٌ عليه بمِنَّتِه، قال الله تَعَالى: ﴿وأْمُرْ أهلَكَ بالصَّلاةِ واصْطَبِرْ عَلَيهَا، لا نَسْأَلُكَ رزْقًا نَحْنُ نرزُقُكَ والعَاقِبَةُ للتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢] وقد تقدَّمَ بيَانُه.

مثالٌ آخَرُ: مَثلُ العبدِ معَ الله تَعَالى في هذِه الدُّنْيا كَالطِّفْلِ معَ أمِّه، ولَمْ تكُنِ الأمُّ لتَدَعَ ولدَهَا مِنْ كفَالتِهَا، ولا أنْ تُخْرِجَه منْ رِعَايتِهَا.

وكذلِكَ المؤمِنُ مَعَ الله تَعَالى، قائمٌ له الحقُّ تَعَالى بحُسْنِ الكَفَالَةِ، فهُو سائقٌ إلَيه المِنَنَ ودافعٌ عنْه المِحَنَ.

رأى رسُولُ الله ﷺ امْرأةً معَهَا ولدُها فقَالَ: (أتَرَوْن أنَّ هذه طَارِحَةً ولدَهَا في النَّارِ؟) فقَالُوا: لا يا رسُولَ الله. فقَالَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: (اللهُ أرْحَمُ بِعبْدِه المؤمِنِ مِنْ هذِه بولَدِهَا)(١).

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ العَبدِ في الدُّنْيا كَمَثَلِ عبدٍ قالَ لَه سَيِّدُه: اذْهَبْ إلى أرْضِ كَذا أو كَذا، وأحْكِمْ أمْرَكَ، لأنْ تُسَافرَ مِنْ تلكَ الأرْضِ في برِّيَّةِ كَذا، وخُذْ أُهْبَتَكَ وعُدَّتَكَ، فإذا أذِنَ له السَّيِّدُ في ذلِكَ، فمَعْلومٌ أنَّه قدْ أباحَ لَه أنْ يأكُلَ ما يَسْتَعِينُ بِه على إقَامَةِ بِنْيَتِه ليسْعَى في طَلَبِ العُدَّةِ، وليَقُومَ بوجُودِ الأُهْبةِ.

كذلِكَ العبدُ، أوْجَدهُ الحقُّ في هذه الدَّارِ، وأمَرهُ أنْ يتزَوَّدَ منْها لمعَادِه، فقَالَ الحقُّ تَعَالى: ﴿وتَزوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]. فمَعْلُومٌ أنَّه إذ أمَرَهُ بالزَّادِ للآخِرَةِ فَقَدْ أباحَ لَه أنْ يأخُذَ مِنَ الدُّنْيا مَا يَسْتَعِينُ به على تَزوُّدِه، واسْتِعدادِه، وتأهُّبِه لميعَادِه.

مثالٌ آخَرُ: مَثلُ العبدِ مَعَ الله تَعَالى كمَثَلِ سَيِّدٍ لهُ بُسْتانٌ، أمرَ عبْدَه أنْ يكُونَ فيه غارِسًا وزارِعًا، وقائِمًا بمصْلحَتِه، فإنْ كانَ ذلِكَ العَبدُ حِينَ أُمِرَ بِذاكَ قامَ بما طَلبَه السَّيِّدُ منه، لا يَخْرُجُ عنه، فليسَ السَّيِّدُ بلائم لهُ، ولا مَانع إيَّاهُ منْ أكله منْ ذلكَ البُسْتانِ، فإنَّه إذا أكَلَ منه عَملَ فيه، لكنْ على العبْدِ أنْ يأكُلَ ما يَسْتَعِينُ به على الخدْمَةِ، وأنْ لا يأكُلَ أكلَ التَّمتُّعِ والتَّشهِّي.

(١) متفقٌ عليه؛ أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٩)، ومسلمٌ (٢٧٥٤)، وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا.

مثالٌ آخرُ: مَثَلُ العَبدِ معَ الله كَمَثَلِ والدٍ غَرَسَ غَرْسًا كثيرًا، وبنَى رَبْعًا كبيرًا، فقِيلَ لَه: لمنْ فعَلْتَ هذا؟ فقالَ لولدٍ عَسَاهُ أنْ يَحْدُثَ لي، فهيَّأَ للولَدِ ما يَحتاجُ إليه قبْلَ وجُودِهِ حُبًّا منْهُ له، أفترَى إذا أعدَّ له الأبُ قبلَ وجُودِه، أيمْنَعُه إيَّاهُ بعْدَ وجُودِه؟!

كذلِكَ العبدُ مَعَ الله تَعَالى هيَّأَ لهُ الحقُّ المِنَّةَ مِنْ قَبْلِ أنْ يَخْلُقَهُ في هَذِه الدَّارِ؛ لأنَّ المِنَّةَ سَابِقةٌ لوجُودِكَ إنْ فَهِمْتَ.

ألا تَرَى أنَّه سَبقَ عطاؤُه إيَّاكَ وجُودَك، ومِنَّته عليكَ ظُهورَكَ ؛ إذْ هُوَ أعْطَى في الأزَل، قَبلَ أنْ يكُونَ العبدُ ويكُونَ منْه لَه عَملٌ، فما قَسَمَه لكَ في الأزَل وادَّخَرَهُ لَكَ ليسَ بمانِعِه عنْكَ. أهُوَ هيَّأَ لَكَ قبلَ الوجُودِ ويمْنَعُكَ لمَّا وُجِدْتَ؟!

مثالٌ آخَرَ: مثَلُ العبد معَ الله تَعَالى كمَثَلِ أجيرٍ أتَى به مَلِكٌ إلى دارِه، وأمَرَهُ بأنْ يَعْمَلَ له عَمَلًا فما كانَ الملِكُ ليَأتيَ بالأجيرِ فيستَخْدمَه في هذِه الدَّارِ، ويتْرُكَه مِنْ غيرِ تَغْذِيةٍ؛ إذْ هُوَ أكْرمُ مِنَ ذلِكَ.

كذلِكَ العَبدُ مَعَ الله تَعَالى، فالدُّنْيا دارُ الله، والأجِيرُ هُوَ أنتَ، والعَمَلُ هُو الطَّاعةُ، والآخِرَةُ هيَ الجنَّةُ، ولم يكُنِ الله ليَأمُرَكَ بالعَمَلِ ثُمَّ لا يسُوقُ لكَ ما بِهِ تَسْتَعِينُ عليه.

مثالٌ آخرُ: مَثَلُ العَبدِ معَ الله تَعَالى كَمَثَلِ ضَيْفٍ نَزلَ على مَلِكٍ كَريمٍ في

داره فحقٌّ على ذلكَ الضَّيفِ أنْ لا يَهتَمَّ بمَأكَلٍ ولا مَشْرَبٍ؛ لأنَّه إنْ فعَل ذلكَ كانَ تُهمةً للمَلِكِ؛ وسُوءَ ظَنٍّ منه به، وقَدْ تقَدَّمَ ذلكَ مِنْ قَوْل الشَّيخِ أبي مَدْينٍ رَحِمه الله تَعَالى. كَذلكَ الدُّنْيا دارُ الله والعِبادُ فيها ضُيُوفُه، ولم يكُن الله تَعَالى ليَأمُرَ بالضِّيافَةِ على لسَانِ رسُولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1] ويكُونُ لها تاركًا، فالمهْتَمُّ فيها بمَأكلٍ ومَشْرَبٍ ممقُوتٌ في نَظَرِ المَلِكِ؛ إذ لَوْلا شَكُّه في الله لما كانَ يَهتَمُّ بشَأنِه.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ العَبدِ معَ الله تَعَالى، كَمَثَلِ عبدٍ أمَرَهُ الملِكُ أنْ يُقيمَ في أرْضِ كَذا، يحارِبُ العَدُوَّ الذي هُنالِكَ، وأنْ يَبذُلَ عَزْمَه في مُجاهَدتِه، وأنْ يدُومَ على مُحارَبتِه. فمَعلُومٌ أنَّه إذا أمَرَه بذلِكَ أنَّه يُبيحُ له أنْ يأكُلَ مِنْ إهْداءِ تلْكَ البلْدةِ ومخازنِها بالأمَانَةِ، ليسْتَعينَ بذلِكَ على محاربةِ العَدُوِّ الَّذي أمَرَه الملِكُ بمُحارَبتِه.

كذلِكَ العِبادُ أمَرَهُم الحقُّ بمُحارَبَةِ الشَّيطانِ بقَولِه: ﴿وجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]، وقالَ تَعالى: ﴿إنَّ الشَّيْطَانَ لكُمْ عدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. فلمَّا أمَرَهُمْ بمُحارَبتِه أذنَ لهمْ أنْ يتَناوَلُوا مِنْ مِنَّتِهِ مَا يَسْتَعِينُونَ به على مُحارَبَةِ الشَّيطانِ؛ إذْ لو تَركْتَ المأكَلَ والمشْرَبَ، لم يُمْكِنْكَ أنْ تقُومَ لِطاعتِه، ولا أنْ تنْهَضَ بخِدْمتِه، فقَدْ تَضمَّنَ أمْرُ الملِكِ بالمجَاهَدَةِ إباحَةَ تنَاوُلِ مَا هُوَ مَنْسُوبٌ للملِكِ ممَّا هُو مُعَدٌّ لَكَ، ولكنْ على طَرِيقِ الأَمَانَةِ محفُوفًا بالصِّيانَةِ.

---

(١) الأمر بالضيافة ثابتٌ على لسان رسول الله ﷺ، ومخرجٌ في الصحيحين في عدَّة مواضع منها ما أخرجه البخاريُّ (٦٠١٩)، ومسلمٌ (٤٨)، وغيرهما من حديث أبي شريح العدوي، وفيه: «ومَن كانَ يُؤمِنُ بالله واليومِ الآخِرِ فليُكرِمْ ضَيْفَه» وفي الباب عن السيدة عائشة، وأبي هريرة وغيرهما.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ العَبدِ مَعَ الله تَعَالى كشَجَرةٍ غَرَسَهَا غارِسٌ طالبًا نمُوَّهَا ونِتَاجَهَا، فقَدْ عَلِمَتِ الشَّجرةُ -إنْ يكُنْ لها عِلْمٌ، أوْ عَلِمْنا ذلكَ فيهَا- أنَّه ما كانَ لِيَغْرِسَهَا، ويَمْنَعَها السَّقْيَ، كيفَ وهُو حَريصٌ على نِتاجِهَا، مُريدٌ لنَمائِهَا.

كذلِكَ أنتَ أيُّها العبدُ شَجرةٌ، الله غارِسُك وهُو سَاقِيكَ في كُلِّ وقْتٍ، قائمٌ لكَ بوجُودِ التَّغْذِيةِ، فلا تتَّهِمْه أنْ يغْرِسَ شَجَرةَ وجُودِكَ ثُمَّ يَمْنَعُكَ مِنَ السُّقْيا بعدَ الغَرْسِ فإنَّه ليسَ بغَافِلٍ.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ العَبدِ معَ الله تَعَالى كمَثَلِ مَلِكٍ له عَبيدٌ، بنى دارًا وأحْسَنَهَا وبهَّجها، وتوَلَّى غِراسَهَا، وكَمَّلَ المشْتَهَيَاتِ فيها، في غَيرِ الموْطِنِ الَّذي العَبيدُ فيه، وهُو يُريدُ أنْ يَنقُلَهُم إليْهَا. أتَرَى إذا كانَ هذا غايتَه بهِمْ فيما ادَّخَرَهُ لهمْ عِنْدَه، وهَيَّأَ لهُمْ بعدَ الرِّحْلةِ، أيَمْنَعُهُم هَهُنا أنْ يتَناوَلُوا مِنْ مِنَّتِه وفَضَلاتِ طعَامِه، وهُوَ قدْ هيَّأ لَهُم الأمْرَ العَظِيمَ، والفَضْلَ الجسيمَ؟!

كذلِكَ العِبادُ معَ الله، جَعلَهُم في الدُّنيا، وهيَّأ لهمُ الجنَّةَ كما هيَّأ لهمُ الآخِرَةَ، وهُو يُريدُ أنْ يَمْنَحَهُمْ مِنَ الدُّنْيا ما يقِيمُ به وجُوهَهُم، ولذَلِكَ قال تَعَالى: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ الله﴾ [البقرة: ٦٠]، وقالَ تَعَالى: ﴿كلُوا مِنْ رِزْقِ ربِّكُمْ واشْكُرُوا لَه﴾ [سبأ: ١٥]، وقالَ تَعَالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صَالحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقالَ تَعَالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُم﴾ [البقرة: ١٧٢].

فإذَا ادَّخَر لَكَ الباقِيَ، ومَنَّ به عليكَ لا يمنَعُكَ الفَاني، فإنْ مَنعكَ منْه،

فإنَّما منَعَك مَا لم يَقْسِمْهُ لكَ، وما لم يَقْسِمْهُ لكَ فليسَ لَكَ، فكانَ ذلكَ المَنْعُ لكَ مِنْهُ عطَاءً ونَظَرًا عَلِمَ أنَّ فيه مصْلحةَ وجُودِكَ ونِظَامَ أمْرِكَ، كَما يُقْطَعُ تَوالِي الماءِ عنِ الشَّجرةِ لئلَّا يُتْلِفَهَا دوَام السُّقْيَا.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ المُتهمِّم بأمْرِ دُنْياهُ، الغَافلِ عنِ التَّزوُّدِ لآخرته، كَمَثَلِ إنْسَانٍ هاجَمَهُ سَبُعٌ وقد كَادَ أنْ يفترسَهُ، ووَقَعَ علَيه ذُبابٌ فاشْتَغَلَ بذَبِّ ذلكَ الذُّبابِ ودفْعِه عنِ التَّحرُّزِ مِنَ الأسَدِ، فهَذا عبدٌ أحمقُ، فاقِدٌ وجُودَ العَقْلِ، ولوْ كَانَ بالعقْلِ مُتَّصفًا لشَغَلَهُ أمرُ الأسَدِ وصَوْلَتُه وهجُومُه عليْه عَنِ الفِكْرةِ في أمْرِ الذُّبابِ والاشْتِغالِ بِه.

كذلكَ المهموم بأمْرِ دنياهُ، الغَافلُ عنِ التَّزوُّدِ لأخْرَاهُ، دلَّ ذلِكَ مِنْهُ على وجُودِ حُمقِهِ؛ إذْ لو كَانَ فاهمًا عَاقلًا، لتأهَّبَ للدَّارِ الآخِرَةِ الَّتي هُوَ مَسْئُولٌ عنْهَا، وموقُوفٌ فيها، ولا يَشْتغِلُ بالاهْتمامِ بأمْرِ الرِّزْقِ، فإنَّ الاهْتمامَ بِه بالنِّسْبةِ إلى الآخرَةِ كنِسْبَةِ الذُّبابِ إلى مفَاجَأةِ الأسَدِ وهجُومِه.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ العبدِ مَعَ الله تَعَالى كمَثَلِ الطِّفْلِ مَعَ أبِيهِ لا يعُولُ مع الأبِ هَمًا ولا يخْشَى عُدْمًا، لعِلْمِهِ أنَّ الأبَ قائمٌ لَهُ بوجُودِ الكَفالَةِ، فطَيَّبَتِ الثِّقَةُ بِه عَيشَهُ، وأزالَ الاعْتِمادُ على أبيه غَمَّهُ.

كذلكَ العبدُ المؤمنُ مَعَ الله تَعَالى لا يَعُولُ الهمُومَ، ولا تَرِدُ بِسَاحةِ قلْبِه الغُمُومُ مِنْ شَأنِ الرِّزْقِ لعِلْمِهِ بأنَّ الحقَّ لا يدَعُه، وعنْ فَضْلِهِ لا يقْطَعُه، ومِنْ جُودِه وإحْسَانِه لا يَمْنَعُه.

مثالٌ آخَرُ: مَثَلُ العَبْدِ مَعَ الله تَعَالى كعَبْدٍ له سَيِّدٌ غَنِيٌّ متَّصفٌ بالثَّرْوَة، والإحْسَانِ إلى عَبيدِه، وغيْرُ معْرُوفٍ بالمنع، مَوصُوفٌ بالجودِ والعَطَاء. والعبْدُ بفَضْلِه واثِقٌ، ولإحْسَانِه رامِقٌ، عَلِمَ مِنْ سيِّده الغِنَى، فأخرجَه ذلكَ عنْ وجُود العَنَا،

وهذا بعيْنِه كانَ سَبَبَ تَوبَةِ شَقيقٍ البلْخِيِّ رَحمه الله. قالَ: «عَبَرْتُ في زَمَنِ مجَاعةٍ فَوجَدْتُ غلامًا مُنْبَسِطًا مُنْشَرِحًا ليسَ عنْدَهُ عِلْمٌ ممَّا الناسُ فيه، فقُلتُ لهُ: يا فتَى أمَا تَعْلَمُ مَا النَّاسُ فيه؟ فقالَ: ومَا أُبَالي ولموْلَايَ قريةٌ خَالصَةٌ، يُدْخِلِ إليْنَا كُلَّ يوم مَا نَحْتاجُ إليَه. فقُلْتُ في نَفْسي: إنْ كانَ لسَيِّدِ هذا قريةٌ خالصَةٌ، فمَوْلَايَ لهُ خَزائِنُ السَّمواتِ والأرْضِ، فأنَا أوْلى بِالثِّقَةِ مِنْ هذا بِسَيِّدِه، وهُوَ كَانَ سَبَبَ انْتِباهِي».

مثَالٌ آخرُ: مَثَلُ العَبْدِ المتَسبِّبِ المرْزُوقِ في وجُودِ السَّبَبِ، كَمَثَلِ عبدٍ قالَ لهُ السَّيِّدُ: اعْمَلْ وكُلْ مِنْ عَمَلِكَ. ومِثَالُ المتَجرِّدِ كمَثَلِ عبدٍ قالَ لهُ السَّيِّدُ: الزَمْ أنتَ خَدْمَتي، وأنَا أسُوقُ إليك منّتِي.

مثالٌ آخَرُ: مثَلُ العَبْدِ النَّافذِ إلى الله تَعَالى في الأسْبابِ بمَثَابةِ الرَّجُلِ يقْعُدُ تحتَ الميزَابِ إذا أمطرَتِ السَّماءُ، فهو يَشْكُر الله تَعَالى وحْدَهُ، ولا يَلْزَمُ مِنْ قعُودِهِ تحتَ الميزَابِ أنْ يُضيفَ المطرَ لهُ، بلْ عَلمَ أنَّه إنْ لم يكُنْ فيه لم يجدْ شَيئًا، كذلكَ الأسْبابُ: مَيَازِيبُ المِنَنِ، فمَنْ دَخَلَ في الأسْبابِ، وهمَّتُه مُتعلِّقةٌ بالله تَعَالى لا بها لم يضُرَّهُ ذلِكَ ولم يُخشَ عليه القَطيعةُ فيما هُنَا لكَ.

ومثَلُ الواقفِ معَ الأسْباب الغَافِلِ عنْ وليِّهَا، كَمَثَلِ البَهيمَة، يَغْبُرُ عليها مالِكُها فلا تَلْتَفِتُ إليه، وهوَ المالكُ لها، والمعْطِي لسَائسَها ما يُنْفِقُ عليْهَا، فإذا عَبَرَ سَائسُهَا بَصْبَصَتْ بعَيْنِها، وتشَوَّفَتْ إليه لاعْتيَادهَا منهُ أنَّه يتَولَّى طُعْمَتَهَا.

فالعَبدُ كذلكَ لأنَّه إذا أجْرَى عَليه الإحْسَانَ على أيدي الخَلْقِ يشْهَدُ ذلكَ منْهُم، ولم يخْرِجْهُ عنْهُم، فهُوَ كَالبَهِيمَة، بلْ البَهِيمةُ أحْسَنُ حَالًا منه: ﴿أُولَئِكَ كالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أضَلُّ أولئكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

مِثَالٌ آخَرُ: مَثَلُ الوَاقفِ معَ الأسْبَابِ، والنَّافدِ إلى الله تَعَالى فيهَا، كَمَثَلِ رجُلَينِ دَخَلا حَمَّامًا، أحدُهُما وَافِرُ العَقْلِ، والآخَرُ غَالبٌ عليه البَلاهَةُ، فإذا توَقَّفَ الماءُ: فأمَّا العَاقِلُ فيعْلَمُ أنَّ له مُصَرِّفًا مِنْ ورائِه يَصَرِّفُه، ومُجرِيًا يُجْرِيه فيرْجِعُ إليه ليُرسِلَ له منهُ ما كانَ قَطَعَهُ أوْ يفْعلُ مَا يشَاءُ.

وأمَّا الآخَرُ، فيأتي إلى الأنْبُوبِ فيقولُ: أيُّها الأنبوبُ، اسْكُبْ لنا ماءً، ما لَكَ قَطَعْتَني ماءَكَ؟ فيُقالُ له: إنَّكَ لأحمَقُ، وهَلْ الأنبوبُ يَسْمَعُ شيئًا؟ أو يَفْعلُ شَيْئًا؟ إنَّما هِيَ مَحلٌّ ومجْرَى يَظْهرُ فِيهَا ما أُجْرِيَ فِيها.

مثالُ العبدِ المدَّخرِ كعَبْدٍ للمَلِكِ جعَلَه في بُسْتانِه ليقُومَ بإصْلاحِ شَأنِه، فللْعَبْدِ أنْ يأكُلَ مِنْ ثَمَراتِ ذلِكَ البُسْتَانِ مَا يتقَوَّى به عَلى الغِراسِ والزِّراعَة فيه، وليسَ لهُ أنْ يدَّخِرَ؛ لأنَّ ثَمرةَ ذلكَ البُسْتانِ دائمةٌ، وسيِّدُه غَنِيٌّ قادرٌ، فإن ادَّخرَ بغيرِ إذْنِ سيِّدِه إمْسَاكًا عَلى نَفْسِه وتُهْمَةً لسَيِّدِه فقَدْ خَانَ.

ومِثالُ العَبدِ الذِي لا يدَّخِرُ كعبْدٍ هُوَ في بُسْتانِ السَّيِّدِ أو في دَارِه، عَلِمَ أَنَّهُ لا ينْسَاهُ سيِّدُه، ولا يُهْمِلُه، بلْ يَبذُلُ له خَيْرَه، ويُوصِلُ إِلَيْهِ بِرَّهُ، فاغْتَنى بسَيِّده عَنِ الادِّخَارِ معَهُ، وبغِناهُ عنْ أنْ يحتَاجَ وأنْ يَعْتَمِدَ على شَيءٍ دُونَه. فهَذا العَبدُ: حرِيٌّ أنْ يُواجَهَ بالإقْبالِ، وأنْ يُسْعَفَ بالنَّوَال.

مثَالٌ آخَرُ: المدَّخِرُ بالأَمَانةِ كعَبْدٍ للمَلِكِ لا يَرَى أنَّ له معَ سيِّده شَيئًا، لا يعتمِدُ ادِّخَارَ ما في يَدِه ولا بذْلَه، بلْ لا يخْتارُ إلَّا مَا اخْتارَهُ السَّيدُ له، فإذا فَهِمَ هذا العَبدُ أنَّ الإمْسَاكَ مُرادُ سيِّدِه، أمْسَكَ لسَيِّدِهِ لا لنَفْسِه، حَتَّى يتَخَيَّرَ مَوْضِعَ صَرْفِه، فيكُونَ له صَارِفًا حينَ يَفْهَمُ عَنْ سَيِّده إرادةَ صَرْفِه. فهَذَا بإمْسَاكِه غيْرُ ملومٍ أنه مُدَّخِرٌ؛ لأنَّه أمْسَكَ لسَيِّدِه لا لنَفْسِه.

كذلِكَ أهْلُ المعْرِفَةِ بالله تَعَالى، إنْ بذَلُوا فللَّه، وإنْ أمْسَكُوا فَلَه، يَبْتَغُونَ مَا فيه رِضَاهُ، وَلَا يُريدُون بِبَذْلِهِمْ وإمْسَاكِهِمْ إلَّا إيَّاهُ، فهُمْ خُزَّانٌ أمَنَاءُ، وعَبيدٌ كُبَراءُ، وأحْرارٌ كرمَاءُ، قدْ حَرَّرَهُم الحقُّ تَعَالى مِنْ رِقِّ الآثار، فلمْ يَميلُوا إليها بحُبٍ، ولَا أقْبلُوا علَيهَا بوُدٍّ، منَعَهُم مِنْ ذلِكَ ما أُسْكِنَ في قُلُوبِهِمْ مِنْ حُبِّ الله وُوُدِّهِ؛، ومَا امْتلأَتْ به صُدُورُهُمْ مِنْ عَظَمَتِه ومجْدِه، ولَيْسَ المُمْسِكُ لله بِدُونِ البَاذِلِ لهُ فَصَارَتِ الأَشْياءُ في أيدِيهم كهي في خَزائِنِ الله مِنْ قَبْلِ أنْ تَصِلَ إليهِمْ، عِلْمًا منْهُم أنَّ الله تَعَالى يَمْلِكُهُمْ ويَمْلِكُ ما مَلَّكَهُم، ومَنْ لم يُحسِنِ الإمْسَاكَ لله لم يُحسِنِ البَذْلَ لهُ، فافْهَمْ.



[مناجاة الحق سبحانه لعبده]

فَصْلٌ: نذْكُرُ فيهِ مُناجَاةَ الحقِّ سُبْحَانه وتَعَالى لعَبْدِه على ألسِنَةِ هَواتفِ الحقائقِ في شَأنِ التَّدبيرِ والرِّزْقِ.

أيُّها العَبْدُ، ألقِ سَمْعَكَ وأنتَ شَهيدٌ، يأتِكَ مِنِّي المزيدُ، وأصْغِ بِسَمْعِ قلبِكَ، فأنا عنْكَ لسْتُ ببَعيدٍ.

أيُّها العَبْدُ، كُنْتُ لكَ بتَدْبيرِي لكَ مِنْ قبْلِ أنْ تكُونَ لنفْسِكَ، فكُنْ لنَفْسِكَ بأنْ لا تكُونَ لهَا؛ وتولَّيْتُ رِعايتَهَا قبلَ ظُهورِكَ، وأنا الآنَ في الرِّعَايةِ لها.

أيُّها العَبدُ، أنا المنْفَرِدُ بالخلْقِ والتَّصْوِيرِ، وأنا المنْفَرِدُ بالحكْمِ والتَّدْبيرِ، لم تَشْرِكْني في خَلْقِي وتَصْوِيرِي، فلَا تُشارِكْني في حُكْمِي وتَدْبيرِي.

أنا المدَبِّرُ لملْكِي؛ وليسَ لي فيهِ ظَهيرٌ، وأنا المنْفَرِدُ بحُكْمِي، فلا أحْتاجُ فيهِ إلى وَزِيرٍ.

أيُّها العَبدُ، مَنْ كانَ لَكَ بتَدْبيرِه قَبْلَ الإيجَادِ فلَا تُنازِعْه في المرَادِ، ومَنْ عَوَّدَكَ حُسْنَ النَّظَرِ مِنْه لَكَ، فلَا تُقَابِلْهُ بالعِنادِ.

أيُّها العَبدُ، عَوَّدْتُكَ حُسْنَ النَّظَرِ منِّي لَكَ فكُنْ عَلى إسْقَاطِ التَّدْبيرِ منْكَ مَعِي.

أيُّها العَبدُ، أشَكًّا بعدَ وجُودِ التَّجْربةِ، وحَيْرَةً بعدَ وجُودِ البيَانِ، وضَلالًا بعدَ وضُوحِ الهدَى؟ أمَا يُحيلُكَ عليَّ عِلْمُكَ بأنَّه لا مُدَبِّرَ لكَ غيْرِي؟ أمَا يُجنِّبُكَ مِنَ المنازَعَةِ لي ما سَبقَ مِنْ وجُودِ خَيرِي؟

أيُّها العَبدُ، انظُرْ نسْبةَ وجُودِكَ مِنْ أكْوَانِي تَرَ أنَّكَ مُتلَاشٍ في الفَانِي فما ظَنُّكَ بما ليسَ بفانِي، وقَدْ سَلَّمْتَ لي قِيامِي بِمَمْلكَتِي، وأنتَ مِنْ مَملَكَتِي، فَلا تُنازِعْ رُبُوبِيَّتِي، ولا تُضادِدْ بتَدْبِيرِكَ معي وجُودَ إلاهِيَّتِي.

أيُّها العَبدُ، أمَا يَكْفِيكَ أنِّي أكْفِيكَ؟ أمَا يُوجِبُ سُكُونَكَ لي سَوابقُ عَوائِدِي فِيكَ؟

أيُّها العَبْدُ، مَتَى أحْوَجْتُكَ إليْكَ، حتَّى تَحْتالَ عَليْكَ؟ ومتَى وَكَلْتُ شيئًا مِنْ مملَكَتِي لغَيرِي حتَّى أكِلَ ذَلِكَ إليْكَ؟

أيُّها العَبْدُ، أعْدَدْتُ لكَ جُودِي مِنْ قَبلِ أنْ أُظْهِرَكَ لوجُودِي، وظَهرَتْ بِقُدْرَتِي في كُلِّ شَيْءٍ، فكَيْفَ يُمْكِنُكَ جُحُودِي؟

أيُّها العبدُ، متَى خَابَ مَنْ كنتُ لهُ مُدَبِّرًا، ومتَى خُذِلَ مَنْ كُنْتُ له مُنْتَصِرًا؟

أيُّها العَبْدُ، لِتَشْغَلْكَ خِدْمَتِي عَنْ طَلبِ قِسْمَتِي، ولْيَمْنَعْكَ حُسْنُ الظَّنِّ بي عنْ اتِّهامِ ربُوبِيَّتِي.

أيُّها العَبْدُ، لا يَنْبَغِي أنْ يُتَّهَمَ مُحْسِنٌ، ولا أنْ يُنازَعَ مُقْتَدِرٌ، ولا أنْ يُضادَدَ

قَهَّارٌ، ولا أنْ يُعْتَرَضَ على حُكْمِ حَكِيمٌ، ولا أنْ يُعَالَ هَمٌّ مَعَ لَطِيفٍ.

أيُّها العَبدُ، لَقَدْ فازَ بالنُّجحِ مَنْ خَرَجَ عَنِ الإرَادةِ مَعِي، ولقَدْ دُلَّ على يُسْرِ الأمْرِ مَن احْتَالَ عليَّ، ولقدْ ظَفِرَ بكَنْزِ الغِنَى منْ صَدَقَ في الفَاقَةِ إليَّ، ولقَدِ اسْتَوْجَبَ النَّصْرَ منِّي عبدٌ إذا تحرَّكَ تحرَّكَ بي، ولقَدْ اسْتَمْسَكَ بأقْوَى الأسْبابِ مَنِ اسْتَمْسَكَ بِسَببِي، إنِّي آلَيْتُ على نفْسي أنْ أجَازيَ أهْلَ التَّدْبيرِ بوجُودِ التَّكْدِيرِ، وأنْ أهْدِمَ مَا شَيَّدُوا، وأحُلَّ مَا عَقَدُوا، وأنْ أكِلَهُم إليْهِمْ، وأنْ أُحِيلَهُم عَلَيهِم، مَمْنُوعِينَ مِنْ رُوحِ الرِّضَا ونَعِيمِ التَّفْويضِ، فلَوْ فَهِمُوا عَنِّي لاقْتَنَعُوا بتَدْبيري لهُمْ عنْ تَدْبيرِهِمْ لأنفسِهِم، وبِرعَايتي لهُمْ عنْ رِعَايَتِهِم إيَّاهَا، فإذا كنتُ أسْلُكُ بِهِمْ سَبيلَ الرِّضَا، وأنْهجُ منْهَجَ أهْلِ الهدَى، وأسْعَى بهِمْ في طَرِيقِ بَيْضَا، وأجْعلُ عِنايتي بِهِم واقيَةً لهم مِنْ كُلِّ ما يخافُونَ، وجَالِبةً لَهُم جميعَ مَا يرجُونَ، وذلِكَ عليَّ يَسيرٌ.

أيُّها العَبدُ، نُريدُ منكَ أنْ تُرِيدَنا ولا تُرِيدَ مَعَنا، ونَخْتارُ لَكَ أنْ تخْتارَنا ولا تَخْتارَ مَعَنا، ونَرْضَى لَكَ أنْ تَرْضَانَا، ولا نَرْضَى لَكَ أنْ تَرْضَى سِوانَا.

أيُّها العَبدُ، إنْ قَضَيتُ لَكَ فلإرادتي ظُهورَ فَضْلي عَلَيكَ، وإنْ قَضَيتُ عَليكَ فَلأنِّي أريدُ أنْ أُوردَ في قَضَائي أسْرارَ لُطْفي إليْكَ.

أيُّها العَبدُ، لا تَجعَلْ ما أظْهَرْتُ فيك مِنْ نِعْمَتي وجُودَ مُنازَعَتي، ولا تَجعَلْ عِوضَ ما أحْسَنْتُ لَكَ بالعَقْلِ الَّذي مَيَّزْتُكَ بِه وجُودَ مُضادَدتي.

أيها العَبدُ، كما سَلَّمتَ لي تَدبيرَ أرْضي وسَمائي، وانفرادي فيهما بحُكْمي وقَضائِي، سَلِّمْ وجُودَكَ لي فإنَّكَ لي، ولَا تُدبِّرْ مَعي فإنَّكَ مَعِي، واتَّخِذْني وكيلًا، وثِقْ بي كفيلًا، أُعطِك عَطَاءً جَزِيلًا، وأَهَبْكَ فَخْرًا جليلًا.

أيها العَبدُ، إنِّي حَكَمْتُ في أزَلي أنَّه لا يَجتَمِعُ في قلْب عبْدِي ضِياءُ التَّسليم لي وظُلمَةُ المنَازعَةِ مَعي، فمَتَى كَانَ واحدٌ منْها لَمْ يكُنِ الآخَرُ معَه، فاخْتَرْ لنَفْسكَ.

ويحَكَ: إنَّا أجْلَلْنَا قَدْرَكَ أنْ تَشْتَغِلَ بأمْرِ نَفْسِكَ، فَلَا تُصَغِّرْ قَدْرَكَ يا مَنْ رَفَعْنَاهُ، ولَا تَذِلَّنَّ بحَوَالتِكَ على غَيرِي، يَا مَنْ أعْزَزْنَاه.

وَيْحَكَ: أنتَ أجَلُّ عنْدنَا مِنْ أنْ تَشْتَغِلَ بغَيرِنا، لحضْرَتي خَلَقْتُكَ، وإليْهَا خَطَبْتُكَ، وبِجَوَاذِبِ عِنايَتِي لها جَذَبْتُكَ، فإنِ اشْتَغَلْتَ بنَفْسِكَ حَجَبْتُكَ، وإنِ اتَّبَعْتَ هَوَاهَا طَرَدْتُكَ، وإنْ خَرَجْتَ عنْهَا قَرَّبْتُكَ، وإنْ تَوَدَّدْتَ لي بإعْرَاضِكَ عمَّا سِوايَ أجَبْتُكَ.

أيها العَبدُ، أمَا كفَاكَ لَوِ اكْتَفَيْتَ، وهَدَاكَ لو اهْتَدَيتَ، أنِّي أنا الذي خَلَقْتُ فَسَوَّيتُ، وتَصَدَّقْتُ فأعْطَيْتُ؟ أمَا يَمْنَعُكَ ذلِكَ مِنْ مُنازَعَتي فيما قَضيتُ، ومُعَارَضَتي فِيما أتيتُ؟

أيها العَبدُ، مَا آمَنَ بي مَنْ نازَعَني، ولا وحَّدَني مَنْ دبَّرَ مَعِي، ولا رَضِيَ بي مَنْ شَكَا مَا أنْزلْتُ بِه إلى غَيْرِي، ولا اخْتَارَنِي مَنْ اخْتارَ مَعِي، ومَا امْتَثَلَ أمْري مَنْ لم يَسْتَسْلِمْ لقَهْري، ولا عَرَفَني مَنْ لم يُفوِّضْ أمْرَهُ لي، ولقَدْ جهِلَني مَنْ لم يَتوَكَّلْ عليَّ.

أيُّها العَبدُ، يكْفيكَ مِنَ الجَهْلِ أنْ تَسْكُنَ لما في يَدِكَ ولا تَسْكُنَ لما في يَدِي، وأنْ أخْتارَ لَكَ أنْ تختَارَنِي، فتَخْتَارَ عليَّ؟! وَيْحَكَ: لَا تَجْتمِعُ عُبوديَّةٌ واخْتِيارٌ، ولا ظُلَمٌ وأنْوارٌ، ولا تَوجُّهُكَ لي، وتَوَجُّهُكَ لِلآثَارِ، فإمَّا أنَا لَكَ، أوْ أنتَ لنَفْسِكَ، فاخْتَرْ على بيَانٍ، ولا تَسْتَبْدِلْ الهدَى بِالخُسْرانِ.

أيُّها العَبدُ، لوْ طَلَبتَ مِنِّي التَّدْبيرَ لنَفْسِكَ جهلْتَ، فكَيفَ إذا دَبَّرْتَ لَهَا؟ ولوِ اخْتَرْتَ مَعِي مَا أنْصَفْتَ، فَكَيفَ إذَا اخْتَرْتَ عليَّ؟

أيُّها العَبدُ، لوْ أذِنْتُ لَكَ أنْ تُدَبِّرَ، كَان يجِبُ أنْ تَسْتَحْيِ مِنْ أنْ تُدبِّرَ، وكيْفَ وقدْ أمَرْتُكَ أنْ لَا تُدبِّرِ؟ يا مَهْمُومًا بنَفْسِه، لوْ ألْقَيتَهَا إلَيْنا لاسْتَرَحْتَ.

وَيْحَكَ: أعْبَاءُ التَّدْبيرِ لا يَحْمِلُهَا إلَّا الرُّبُوبيَّة، ولا تَقْوَى عَلَيها البَشَريَّةُ.

ويْحَكَ: أنتَ مَحْمُولٌ فلا تكُنْ حَامِلًا. أرَدْنَا راحتَكَ، فلَا تكُنْ مُتْعِبًا لنَفْسِكَ. مَنْ دبَّرَكَ في ظُلُماتِ الأحْشَاءِ، وأعْطَاكَ بَعْدَ الوجُودِ ما تَشَاءُ، لا ينْبغِي لَكَ أنْ تُنازِعُه فِيما يَشَاءُ.

أيُّها العَبدُ، أمَرْتُكَ بِخدْمَتِي، وضَمِنْتُ لكَ قِسْمَتِي، فأهْمَلْتَ مَا أمَرْتُ، وشَكَكْتَ فيما ضَمِنْتُ، ولم أكتَفِ لَكَ بالضَّمانِ حتَّى أقْسَمْتُ، ولم أكتَفِ بالقَسَمِ حتَّى مَثَّلْتُ وخَاطَبْتُ عِبادًا يَفْهَمُونَ، فقُلْتُ: ﴿وفي السَّماءِ رِزْقكُمْ ومَا تُوعَدُونَ * فوَرَبِّ السَّماءِ والأرْضِ إنَّهُ لحقٌّ مِثْلَ مَا أنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذرايات: ٢٢-٢٣].

ولقَدِ اكْتَفَى بِوَصْفِي العَارِفُونَ، واحْتالَ عَلى كَرَمِي الموقِنُونَ، فلَوْ لم يكُنْ وعدي لعَلِمُوا أنِّي لا أَقْطَعُ عَنْهُم وَارِدَاتِ رِفْدِي، ولوْ لم يكُنْ ضَماني لوَثِقُوا بوُجُودِ إحْسَاني، وقَدْ رَزَقْتُ مَنْ غَفِلَ عنِّي وعَصَاني، فكَيفَ لا أَرْزُقُ مَنْ أطَاعَني ورَعَاني؟!

ويحكَ: الغَارِسُ للشَّجَرَةِ هُوَ سَاقِيهَا، والمُمِدُّ لِلْخَلِيقَةِ هُو بَارِيها، ويَكْفيهَا أنَّه كافِيهَا ومُكَافِيها، مِنِّي كانَ الإيجَادُ، وعليَّ دَوَامِ الإمْدادِ.. مِنِّي كانَ الخَلْقُ، وعليَّ دَوام الرِّزْقِ.

ويحكَ: هَلْ تَدْعُو لدَارِكَ إلَّا مَنْ تُرِيدُ أنْ تُطْعِمَه، وهلْ تَنْسِبُ لنَفْسِك إلَّا مَنْ تُحِبُّ أنْ تُكْرِمَه؟!

أيُّها العَبْدُ، اجْعَلْ همَّكَ فِيَّ مكانَ هَمِّكَ برِزْقِكَ، فإنَّ مَا حَمَلْتُه عنْكَ، فَلَا تَتْعَبَنَّ به، ومَا حَمَلْتَه أنتَ فكُنْ أنتَ به. أُنْدخِلُكَ داري، ونَمْنَعُكَ إبْرَارِي؟! أُنْبرِزُكَ لكَوْني، ونَمْنَعُكَ وجُودَ عَوْني؟! أُنْخرِجُكَ إلى وجُودِي، ونَمْنَعُكَ جُودِي؟! أأطَالِبُكَ بحَقِّي، وأَمْنَعُكَ وجُودَ رِزْقِي. أأقْتَضِي مِنْكَ خِدْمَتِي، ولَا أقْضِي لَكَ بِقِسْمَتِي؟!

وَيحكَ: عنْدِي لَكَ هِبَاتٌ شَتَّى، وفيكَ أظْهَرْتُ رَحْمتِي ومَا قَنَعْتُ لَكَ بالدُّنْيَا حتَّى ادَّخَرْتُ لَكَ جَنَّتِي، ومَا اكتَفَيْتُ لَكَ بذلِكَ حتَّى أتحَفْتُكَ برُؤْيَتِي، فإذَا كَانتْ هكَذا أفعالي فكَيفَ تَشُكُّ في أفْضَالي؟!

أيُّها العَبْدُ: لا بُدَّ لنِعْمَتِي مِنْ آخِذٍ، ولفَضْلي مِنْ قَابلٍ، وأنَا الغنيُّ عَن الانْتفاع بالمنافع لما دَلَّ عليه الدَّليلُ القَاطِعَ. فلَوْ سَألْتَني أنْ أمْنَعَكَ رِزْقِي مَا أجَبْتُكَ، ولوْ سَألْتَني أنْ أحْرِمَكَ مِنْ فَضلي مَا حَرَمْتُكَ، فكَيفَ وأنتَ دائمًا تَسْألُني، وكثيرًا ما تَطْلُبُ منِّي، فاسْتَحِ منِّي إنْ كُنْتَ لا تَسْتَحْي منِّي، وافْهَمْ عنِّي، ولقَدْ أُعْطِيَ كلَّ العَطَاءِ منْ فَهِمَ عَنِّي.

أيُّها العَبْدُ، تخيَّرْني ولَا تتَخَيَّرْ عليَّ، ووَجِّهْ قلبَكَ بالصِّدْقِ إليَّ، فإنَّكَ إنْ تَفْعَلْ أُرِكَ غَرائِبَ لُطْفِي، وبَدائعَ جُودِي، وأُمَتِّعْ سِرَّكَ بِشُهُودِي.

لقدْ أظْهَرْتُ الطَّريقَ لأهْلِ التَّحقِيقِ، وبيَّنْتُ مَعالمَ الهدَى لِذَوِي التَّوفِيقِ؛ فبحَقٍّ سَلَّمَ إليَّ الموقنُونَ، وبِبَيانٍ توكَّلَ عليَّ المؤْمِنُونَ، عَلِمُوا أنِّي لهمْ خَيرٌ مِنْ أنْفُسِهِمْ لأنْفُسِهَمْ، وأنَّ تَدْبيري لهُم أجْدَى عَلَيْهم مِنْ تدْبيرِهِمْ لها، فأذْعَنُوا لِرُبوبِيَّتي مُسْتَسْلِمِينَ، وطَرَحُوا أنْفُسَهُمْ بينَ يدَيَّ مفَوِّضِينَ، فعَوَّضْتُهُم عِوَضَ ذلكَ راحةً في نفُوسِهِمْ، ونُورًا في عُقُولِهِم، ومَعْرِفَةً في قلُوبِهم، وتَحقُّقًا بقُرْبِي في أسْرارِهِم.

هَذا في هَذِه الدَّارِ، ولَهُمْ عِنْدِي إذا قَدِمُوا عليَّ أنْ أُجِلَّ مَنْصِبَهُم، وأُعلِيَ مَحلَّهُم، وأنْشُرَ ألوِيَةَ المجْدِ عليهم، ولهمْ إذَا أدْخَلتُهُم دارِي، مَا لا عينٌ رأَتْ ولَا أُذُنٌ سَمِعَتْ؛ ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ.

أيُّها العبدُ: الوَقْتُ الَّذي أنْتَ تَسْتَقْبِلُه لم أُطَالبْكَ فيه بالخِدْمةِ؛ فكيفَ تُطالِبُني فيهِ بالقِسْمَةِ؟!

فإذا كَلَّفْتُك تكلَّفتُ لَكَ، وإذَا اسْتَخْدمتُك أطْعَمْتُكَ، واعْلَمْ بأنِّي لا أنْسَاكَ وإنْ نَسِيتَنِي، وأنِّي ذكرْتُك قبلَ أنْ ذَكَرْتَني، وأنَّ رزْقي عَلَيْكَ دائمٌ، وإنْ عَصَيْتَني. فإذَا كنْتُ كَذلِكَ في إعْراضِكَ عنِّي، فكيفَ تَرى أنْ أكونَ لَكَ في إقْبالِكَ عليَّ؟!

ما قَدَرْتَني حَقَّ قدْرِي إنْ لم تَستسلِمْ لقَهْرِي، ولَا رَعَيْتَ حقَّ برِّي إنْ لم تَمتَثِلْ أمْري، فَلا تُعْرِضْ عنِّي فإنَّكَ لا تَجدُ مَنْ تَسْتَبْدِلُ منِّي، ولا تَغْتَنِي بِغَيرِي، فإنَّ أحَدًا لا يُغْنِيكَ عنِّي.

أنَا الخالقُ لك بقُدْرَتي، وأنا البَاسِطُ لَكَ مِنَّتِي، فكَما أنّه لا خَالقَ غَيرِي كذَلِكَ لا رَازِقَ غَيرِي. أَأَخْلُقُ وأُحِيلُ عَلى غَيرِي وأنَا المَتفَضِّلُ، وأمنَعُ العبادَ وجُودَ خَيرِي؟!

فَثِقْ أيُّها العَبدُ بِي فأنَا رَبُّ العِبادِ، واخْرُجْ عَنْ مُرادِكَ مَعِي أبَلِّغْكَ عَنِ المرادِ، واذْكُرْ سَوابِقَ لُطْفِي، ولا تَنْسَ حَقَّ الودَادِ.

***

[دعاء الختام]

أَرَدْنا أنْ نَخْتِمَ هَذا الكتابَ بُدُعاءٍ مُناسِبٍ لما الكتابِ مُوضُوعٍ لهُ، وهُو:

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تُصَلِّيَ على [سيدنا] مُحَمَّدٍ وعَلى آل [سيدنا] مُحَمَّدٍ، كَما صَلَّيتَ عَلى [سيدنا] إِبْراهِيمَ، وعَلى آل [سيدنا] إِبْراهِيمَ، في العَالمينَ، إِنَّك حَميدٌ مَجِيدٌ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنَ المسْتَسْلِمِينَ إِليْكَ، ومِنَ القَائمينَ بينَ يدَيكَ وأَخْرِجْنا مِنَ التَّدْبيرِ مَعَكَ، أَوْ عليكَ، واجْعلْنا مِنَ المفَوِّضِينَ إِليْكَ.

اللَّهُمَّ إِنَّكَ قد كنْتَ لنَا مِنْ قبلِ أَنْ نكُونَ لأنفُسنا، فَكُنْ لنا بَعدَ وجُودِنا كَما كُنْتَ قبلَ وجُودِنا، وألبِسْنا مَلابسَ لُطْفِكَ، وأَقْبِلْ عَلَينا بِجنابك وعَطْفِكَ، وأَخْرِجْ ظُلُماتِ التَّدْبيرِ مِنْ قُلوبِنَا، وأَشْرِقْ نورَ التَّفْويضِ في أَسْرارِنا، وأَشْهِدْنا حُسْنَ اخْتَيارِكَ لنَا حتَّى يَكُونَ ما تَقْتَضِيه فينا وتَخْتَارُه لنَا أحَبَّ إِليْنَا مِنْ مُخْتَارِنا لأَنْفُسِنا.

اللهُمَّ لا تَشْغَلْنا بِما ضَمِنْتَ لنَا عمَّا أَمَرْتَنا، ولا بِشَيءٍ أنتَ ضَامِنُه لنا عنْ شيءٍ أنتَ طالبُه منَّا.

اللَّهُم إنكَ دعَوتَنا إلى الانْقيادِ إليكَ، والدَّوَام بينَ يدَيكَ، وإنَّا عَنْ ذلكَ عَاجزُونَ إلَّا أنْ تُقدِّرَنَا، وضُعَفَاءُ إلَّا أن تُقوِّيَنَا. ومنْ أينَ لنَا أنْ نكُونَ في شَيءٍ إلَّا إنْ كَوَّنْتَنا؟ وكيفَ لنا أنْ نَصِلَ لشَيءٍ إلَّا إنْ وَصَّلْتَنا؟ وأنَّى لنَا أنْ نَقْوَى عَلى شَيءٍ إلَّا إنْ أعَنْتَنا، فَوَفِّقْنا لما بِه أمَرْتَنا، وأعِنَّا عَلى الانْكِفَافِ عَمَّا عَنْه زَجَرْتَنا.

اللَّهُمَّ أدْخِلْنا رِياضَ التَّفْويضِ وجنَّاتِ التَّسْليم، ونَعِّمْنَا بِهَا وفِيهَا، واجْعَلْ أَسْرارَنا مَعَكَ لا مَعَ نَعِيمِهَا ولَذَّتِها، ولَذِّذْنا بِكَ لا بِزِينَتِها وبَهْجَتِها.

اللَّهُمَّ أشْرِقْ عَلَيْنَا مِنْ أنْوارِ الاسْتِسْلامِ إليْكَ، والإقْبَالِ عَلَيْكَ، ما تَبْتَهِجُ بِه أسْرَارُنَا، وتَتكَمَّلُ بِه أنْوَارُنا.

اللَّهُمَّ إنَّكَ قَدْ دَبَّرْتَ كُلَّ شيءٍ قبلَ وجُودِ كُلِّ شَيءٍ، وقَدْ عَلِمْنا أنَّه لنْ يكُونَ إلَّا مَا تُرِيدُ، وليْسَ هذا العِلْمُ نَافِعًا لنا إلَّا أنْ تُرِيدَ، فرِدْنا بخَيرِك، وارْفَعْ شَأْنَنا بِفَضْلِكَ، واقْصِدْنا بِعَنايتِكَ، وحُفَّنا برِعَايتِكَ، واكْسُنَا مِنْ مَلابِسِ أهْلِ ولايتِكَ، وأدْخِلْنا في وجُودِ حِمايتِكَ، إنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

اللَّهُمَّ إنَّا عَلِمْنَا أنَّ حُكْمَكَ لا يُعَانَدُ، وقَضَاءَكَ لا يُضادَدُ، وقدْ عَجزْنا عَنْ رَدِّ مَا قَضَيْتَ، ودفعِ ما أمْضَيْتَ، فنَسْألُكَ لُطْفًا فيما قَضَيْتَ، وتأييدًا فِيما أمْضَيْتَ، واجْعَلْنا في ذلِكَ مِمَّن رَعَيْتَ، يا ربَّ العَالمينَ.

اللَّهُمَّ إنَّكَ قَدْ قَسَمْتَ لنا قِسْمةً أنتَ مُوصِلُها لنَا، فوصِّلْنا إليهَا بالهناءِ والسَّلامَةِ مَنَ العَنَاءِ، مُصَانِينَ فيهَا مِنَ الحجْبَةِ، محفُوفِينَ فيهَا بأنوارِ الوصْلَةِ،

نَشْهدُهَا منْك، فنكُونَ لَكَ مِنَ الشَّاكِرِينَ، ونُضِيفُهَا لَكَ، ولا نُضِيفُهَا لأحَدٍ مِنَ العَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ إنَّ الرِّزْقَ بِيَدِكَ، رِزْقَ الدُّنْيَا، ورِزْقَ الآخِرَةِ، فارْزُقْنا مِنْهَا مَا عَلِمْتَ فيه المصْلَحةَ لنَا، والعَوْدَ بالجدْوَى عَلَينا.

اللَّهُمَّ اجْعَلْنا مِنَ المختارِينَ لَكَ، ولا تَجعَلْنا مِنَ المختارِينَ عليكَ، ومِنَ المفوِّضِينَ لكَ لا مِنَ المعْتَرِضِينَ عليْكَ.

اللَّهُمَّ إنَّا إليْكَ محتَاجُونَ فأَعْطِنَا، وعنِ الطَّاعةِ عاجِزُونَ فأقْدِرْنا، وهَبْ لنا قُدْرَةً عَلى طَاعَتِكَ، وعَجْزًا عَنْ مَعْصِيَتِكَ، واسْتِسْلامًا لرُبوبِيَّتِكَ، وصَبْرًا على أحْكامِ إلهيَّتِكَ، وعِزًّا بالانْتِسَابِ إليكَ، وراحةً في قُلوبِنَا بالتَّوكُلِ عليْكَ، واجْعَلْنا ممَّنْ دَخَلَ مَيَادِينَ الرِّضَا، وكَرَعَ مِنْ تَسْنِيمِ التَّسْلِيمِ، وَجَنَى مِنْ ثِمارِ المَعَارِفِ، وَأُلْبِسَ خِلَعَ التَّخْصِيصِ، وأُتْحِفَ تُحفَةَ القُرْبِ، وفُوتِحَ مِنْ حَضْرَةِ الحبِّ، دَائِمِينَ على خِدْمَتِكَ، مُحقِّقِينَ لمعْرِفَتِكَ، مُتَّبِعِينَ لرسُولكَ، وارِثِينَ عنْهُ، وآخِذِينَ مِنْهُ، ومُحققِينَ بِهِ، وقَائِمِينَ بالنِّيابَةِ عنْهُ، واخْتِمْ لنا مِنْكَ بخَيرٍ يا ربَّ العَالمينَ. انتهى.

وصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ تَسْلِيماً

*****

فهرس الكتاب

*****